

المرأة العربية وتفاعلها الاجتماعي



منصور الرفاعي عبيد

المكتب العربي للمعارف

المرأة العربية وتفاعلها الاجتماعي

منصور الرفاعي عبيد

وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

للمساجد وشئون القرآن

عضو اتحاد كتاب مصر

وعضو المجالس القومية المتخصصة

الناشر

المكتب العربي للمعارف

عنوان الكتاب : المرأة العربية وتفاعلها الاجتماعي
اسم المؤلف : منصور الرفاعي عبيد
تصميم الغلاف : شريف الغالي

الناشر
المكتب العربي للمعارف
٢٦ شارع حسين خضر من شارع عبد العزيز فهمي
ميدان هليوبوليس – مصر الجديدة – القاهرة
تليفون/ فاكس: ٢٦٤٢٣١١٠-٠١٢٨٣٣٢٢٢٧٣
بريد إلكتروني : Malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٢٠١٦/١٩٧٤١
الترقيم الدولي : I.S.B.N.978-977-276-921-6

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بين يدي البحث

الحمد لله – الذي خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا. سبحانه وتعالى خلق. فسوى. وقدر فهدى. سبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه. له الحمد في الأولى والآخرة. وله الحكم. وإليه المرجع. وهو على كل شيء قدير– والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله رحمة إلى الإنسانية كلها. بشيرًا ونذيرًا. وداعيًا إلى الله بإذنه. وسراجًا منيرًا. حرر العقول. وكرم الإنسان وأعاد إليه كرامته. ورد عليه اعتباره. وأعلن على الدنيا بأسرها أن الإنسان صنعة الله. ملعون من هدم صنعته. صلى الله وسلم على سيدنا محمد– المحرر الأول للمرأة. والذي أعلن على الدنيا – بأن النساء شقائق الرجال – وخير الرجال خيرهم لأهله. أعاد للمرأة حقها الاجتماعي. ونظم لها حق الميراث. والشهادة. وحثها على طلب العلم. وكان هو الأستاذ الأول لتعليم النساء. وخصص لهن بابًا في مسجده النبوي لحضور الصلاة وحضور مجالس العلم. وأعلن على الدنيا كلها– ما أكرم النساء إلا كريم. وما أهانهن إلا لئيم.. فيا فوز من سعد بصحبته في إتباع سنته والتمسك بأخلاقه. ويتعايش بأدبه. ويقوم بهمة ونشاط في تأدية الواجب عليه. نحو نفسه. ونحو دينه. ونحو أهله ونحو مجتمعه. ونحو الناس أجمعين.

صلاة وسلامًا عليك يا سيدي يا رسول الله. وعلى آلك وأصحابك وأتباعك. وعلى من سار على مسيرتك وعمل بعملك إلى يوم الدين

وبعد،،،

فإن المرأة هي محور الحديث في الشرق والغـرب. والـبعض يـتهم العرب بأنهم ظلموا المرأة. وجعلوها تعيش في جهل. قعيدة بيت لا رأي لها في أي شيء. ثم يقول المتعصبون الجهلة من أعداء الشرق. بأن الإسـلام عامـل المرأة بما كانت تعامل به في الجاهلية. وهؤلاء جهلة لأنهم لم يقرأوا التـاريخ. ثم هناك خطأ منا نحن لأننا لم نقم بما فرضه الإسلام علينا من شرح أصـول الدعوة الإسلامية ونبين للدنيا بأسرها سيرة النبي سيدنا محمد صلى الله عليـه وسلم. لأنه هو الذي حرر المرأة من أي قيد يقيد حريتها. في نفس الوقت وضع لها ضوابط تصون حريتها وتحافظ على كرامتها وعفتها وصيانة شرفها. ولـم يسمح لأحد أن يلوك سيرتها بلسانه حتى ولو كان لاهيا هازلاً يقول الله سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[1]

لذلك لم نجد أي دين وضعي أو مذهب أخلاقي أو دعوة فكرية اجتماعية إصلاحية عملت على تكريم المرأة كما كرمها الدين الإسلامي ومبلغـه سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم, إن المرأة لها مكانتها العالية. ما لم تضعفها هـي. لأنها إذا ضعفت أو تهاونت ضعف المجتمع وانهار. وزلزل كيان الأمة لأنهـا هي التي تضخ الدم النقي الدافئ الصالح في جسـد المجتمـع فيقـوى بقوتـه ويضعف بضعفه وفساده.

في عصرنا هذا – دخل المدرس إلى مكان محاضرته. ودرسه. فوجـد الطلبة يجلسون فحياهم. ثم بدأ ينعش نفوسهم بأسئلة اجتماعية ليحرك عقـولهم فسأل الطلبة من وزير الصحة؟ قالوا – فلان – من وزير التنمية؟ قالوا فلان – من وزير المالية؟ سكت الطلبة. فأعاد السؤال مرة أخرى فلما لم يـتكلم أحـد.

---

(1) سورة النور ٤.

نادى على أحد الطلبة. وقال له هل سمعت السؤال قال نعم. فمن هـو وزيـر المالية؟ قال – أمي – سكت المدرس وانتظر أن يستنكر الطلبة فنظر إليهم على أمل أن يصحح له أحد الطلبة. ولكنهم نظروا إلى الطالب ثم إلى المدرس فـإذا بهم يضحكون وكأن شيئًا غريبًا لم يحدث. فقال المدرس. قم يا فلان – أسمعت إجابة زميلك؟ قال نعم. فقال المدرس للطلبة جميعًا– هل منكم مـن يعتـرض؟ قالوا لا – اتجه المدرس إلى مقعده. وجلس وأخذ يجري حوارًا داخليًا في نفسه إلى أن وصل إلى قناعة – لكنه – وقف وقال قم يا فلان – لماذا اعتبرتم الأم – هي وزيرة المالية؟ قال يا أستاذ إن أبي يحضر في آخر الشهر. ويقـدم لأمـي المرتب. فتمسك بالورق والقلم وتقول – للبقال كذا – للجزار كذا – وتبدأ فـي توزيع المرتب ثم تقول – هذا مبلغ احتياطي لمواجهة – أزمة – مـرض – أو شراء أدوية – أو حضور ضيوف. أو غير ذلك. وتقود سفينة البيت ومصاريفه. بدقة ومهارة وعندما نطلب من الأب أي مصروف إضافي يقول. قولوا لأمكـم تجيب من الاحتياطي.

إذاً فالأم العاقلة هي التي تدبر أمر بيتها. وتجعل البيت يعيش مستورًا لا تمد يدها إلى غيرها ولا تقترض من جيرانها. ولا ترهق زوجها. ولهـا مثـل تردده "على قدر طول لحافك مد رجليك" فإن قلنا لها. اقترضـي. تقـول لنـا "حمارتك العرجاء ولا سؤالك اللئيم" "القناعة كنز لا يفنى" إن الأم تجوع لتطعم أولادها. تسهر لينام أطفالها. إن هذه المرأة تذكرنا بجدتها المسلمة في العصـر الأول. عندما كانت تقف على باب بيتها وتمسك برقبة زوجها وتقول لـه "يـا زوجي الحبيب. إياك والحرام إياك والحرام. فإنا نصبر على الجوع في الـدنيا ولا نصبر على نار جهنم يوم القيامة لأنه يوم بخمسين ألف سنة مما نعـد. إن بعض الزوجات الجاهلات تقول الواحدة لزوجها. أنا مليش دعوة. أنـا عـايزه فستان قماش كذا والخياطة هتأخذ كذا يقول الزوج – طيب هجيب منين – ترد

الزوجة الجاهلة. معرفش. يرد الزوج – أسرق؟ – تقول الزوجة الجاهلة– طيب وماله. آخذ رشوة. وفيها إيه. هكذا بكل سهولة فهؤلاء النساء. استعبدهن المظهر. ولاتبالي من أين جاء ولاتبالي. أمن حلال – أم من حرام رزق زوجها. ومثل هؤلاء النساء أسرع في خراب البيت. وسجن الزوج وتشريد الأولاد..

وهل هي جاهلة؟ لا – لأن معها أعلى الشهادات وتنظر إلى التليفزيون وتقرأ كتب لكن الجهل أعمى بصرها – إن المرأة المدبرة . ربما تكون أمية. لكنها تعرف رسالتها وتؤدي واجبها بدقة. تحافظ على شرف زوجها وتصون سمعته وتنهاه عن الحرام لأن أمها ربتها على مكارم الأخلاق– والثانية – بئس المرأة – لا يهمها إلا المظهر ويغرها ثناء الآخرين عليها لأنها تجلس في النادي تضع رجلاً على رجل وتقول عندي وعندي. وربما يبلغها نبأ اعتقال زوجها لأنه ضبط وهو يرتشي أو يسرق ويختلس فتمط شفتيها أمام زميلاتها – وتقول – مغفل – ليه يعمل هذا العمل ولم تتذكر أنها السبب وأن طلباتها هي التي دفعت بزوجها لهذا. ومن هنا نقول للأم العاقلة المدبرة أنت العقل الذي يضبط حركة تحرك الأسرة بفكر وثقافة أخلاقية, وأنت التي تضخ الدم النقي الدافئ الطاهر الشريف في شرايين أفراد الأسرة. وأن التنمية داخل الأسرة – نتاج فكرها. وهمس خاطرها إلى أولادها. ولأنها تحرص عليهم وعلى شرف الأسرة لذلك فإنها تنمي فيهم القيم الأخلاقية. والعادات الحسنة. وتعلمهم الأدب. وعدم التطلع إلى ما في يد الغير وتؤكد على قيمة المبدأ أن القناعة والرضا بما قسم الله كنز لا يفنى. والرضا بما أعطانا الله خير لصحتنا ولو كان قليلاً من حلال ففيه خير وصحة وتنمية للفكر. وبذلك يكون عندنا ذكاء– إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرر "**أن المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها**"(٢)

---

(٢) البخاري

والحق سبحانه وتعالى يقول﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾[3]

إن المرأة نصف المجتمع. ورئته القوية. والمجتمع لا ينهض إلا بجناحين هما الرجل والمرأة, وأن يكونا صالحين عندهما قناعة ورضا. لكن هي الآن معطلة عن المشاركة في إنهاض الأمة اجتماعيًا. ولن تتحرر المرأة إلا إذا تحرر الرجل ولن يتم ذلك إلا في ظل:

١- محو أميتها الدينية على أن يكون تدينها صحيحاً على هدى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.
٢- توجيه رشيد للمرأة بحرصها على دينها ومعرفة تعليماته بالنسبة للعلاقة بن الرجل والمرأة. والتي تبنى على أنها المسئولة عن إدارة البيت والسير به في طريق صحيح وأسلوب ديني, ولأنها مع هذه المسئولية شريكة الرجل لأنها هي الأم – الأخت – الزوجة. الابنة – العمة – الخالة. فإذا نظر الرجل إلى المرأة بهذه الصورة فمن يكون أعز منها. والحفاظ عليها. ومراعاة حق الله على أي رجل نحوها. لأنها منجبة العلماء والأبطال والقيادات. والبنات زهرات البيت وجواهر الأسرة التي تربطها بالنسب والمصاهرة مع العائلات.

لقد حبا الله المرأة بقسط كبير – وجزء وفير – من مشاعر الرقة يجعلها حريصة على التدين. إذا أحسن الأب تربيتها وتوجيهها وإرشادها. وكان لها قدوة حسنة. في سلوكه. وفي علاقاته الاجتماعية. لأنها في حقيقة مشاعرها أكثر اهتمامًا بدينها – لأن الله سبحانه. خصها بفيض من مشاعر الحنان والرقة والرحمة الشيء الكثير.

([3]) سورة النساء ٣٤.

لقد سن الشارع الحكيم آدابا لمشاركة المرأة في العمل الاجتماعي. أو السياسي أو الاقتصادي – والاستهداء في كل ذلك بالقرآن الكريم والهدى النبوي. لأن ذلك أمرًا مطلوبًا لنصحح مسار حياتنا الاجتماعية. إنه لكي نمضي راشدين علينا أن نتمسك بالدين وتعاليمه وأن ندعو غيرنا برفق وحكمة موضحين أمر الله وتوجيهات نبيه صلى الله عليه وسلم يقول الله سبحانه ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾(٤).

إنه ليس بين الرجل والمرأة في ظل الإسلام إلا الخير يقدمه الشخص للأفراد. والعمل الصالح يشاركان فيه لله ورسوله ولصالح المسلمين لأن الله سبحانه شرع للمؤمنين شرعة الإخاء بقوله سبحانه ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾(٥) ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾(٦) فلم يفرق بين المسلم والمسلمة إلا شريف الخلق والطهارة النفسية والعفة. ذلك الإخاء الشامل هو الذي جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يزوج ولده "عاصمًا" وهو أحب أبنائه إليه – من بنت بائعة اللبن – وعمر لو أراد أن يزف ابنه إلى أعز امرأة في العالم – ما تأبى عليه أهلها. ولا منعوها عنه ولكن آثر الخلق النبيل – على بيت المجد والعز بلا دين ولا أخلاق– إن الخير في أمة الإسلام دائم وماض إلى يوم القيامة وقد بشرنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله.

---

(٤) سورة النساء ٥٩.

(٥) سورة الحجرات ١٠.

(٦) سورة التوبة ٧١.

١- **"لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك"**[٧].

٢- وقوله عليه الصلاة والسلام "**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله. ينفون عنه تحريف الغالين – وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**"[٨].

٣- وقوله عليه الصلاة و السلام "**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**"[٩]

إن على المسلمين أن يصححوا تصوراتهم عن شخصية المرأة، لأنها إنسان موفور الكرامة ومسئولة كالرجل تمامًا عن أعمالها المدنية والجنائية في الدنيا والآخرة . لأنها إنسان راشد لها نشاطها . وصدق الله العظيم ﴿ الحج المؤمنون النور الفرقان الشعراء النمل القصص العنكبوت الروم لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات ﴾[١٠]

إن النشاط الاجتماعي يساعد على نمو شخصية المرأة ويكسبها شخصية سوية تؤدي الحق بفهم وتكامل – خدمة للمجتمع. وأداء الواجب عليها. فإذا وفقها الله لتتفاعل مع المجتمع وتعمل على نموه ورقيه وإسعاد أسرتها ورقي أولادها لخدمة المجتمع والقناعة والرضا بما هو متاح. واللقمة من حلال – بملح وعيش ناشف. أفضل من كباب – وحمام محشي. من حرام – بأي وسيلة. ذلك لأن الغذاء من مال حرام. يجلب الأمراض – ويجعل الصدأ على الفكر.

---

(٧) رواه البخاري.

(٨) رواه البيهقي.

(٩) رواه أبو داود.

(١٠) سورة الأحزاب ٣٥.

والظلمة في القلب وخراب البيت– وعندئذ يتنكر القريب. وتكون شماتة الأعداء. وقد يكون من وراء ذلك سجن الأب – وعار الدهر. وذل العمر. أما اللقمة بالملح من حلال. ففيها بركة وخير. وعقل متفتح. وذكاء مفرط. ومستقبل باهر عز العمر وحب الله. والناس. وهذه هي الحياة – الأم هي الأستاذة التي تعلم ذلك وتنمي عند الأولاد شعور الإحساس بالمسئولية. ومراقبة الله. وحب الوطن – والتعايش السلمي مع الآخرين. وتدفع بأولادها إلى العمل التطوعي في ميادين الحياة وما يعود على الوطن بالرفاهية, ونحن الآن في مفترق الطرق – يلعب الإعلام دورًا خطيرًا خاصة ما يذيعه التلفاز من مسلسلات غير هادفة. بل هي هابطة جدًا ولذلك تأثير على أفكار الأولاد وعقولهم لكن – دور الأم أقوى من أي إعلام – وأخطر من أي جهاز إعلامي إذا عرفت الأم مسئوليتها وقدرت خطورة المسئولية نحو البيت الذي ترعاه في بناء المجتمع. من هنا نهيب بكل أم ونقول لها اعرفي دورك وتأثيره في رجال ونساء المستقبل لأن

الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعبًا طيب الأعراق

٢١ مارس ٢٠١٥

والله الموفق

منصور الرفاعي عبيد

عضو اتحاد كتاب مصر

وعضو المجالس القومية المتخصصة

شعبتي : (١) الرعاية الاجتماعية

(٢) الشباب والرياضة

مقدمة

النساء في المجتمع العربي مصابيح البيوت، لأن كل واحدة تحرص على أن تضئ بيتها بضوء الحب والمودة، وتضع في كل ركن من أركانه لمسات جمالية تستريح العين لرؤيتها، وتهدأ النفس بهذا الجو الشاعري الذي يريح الأعصاب بما يتسم به من جمال التنسيق واللمسات الفنية – لأن كل يوم نجد المرأة العربية تنتقل من طور إلى طور، فهي دائمًا تحاول أن تبلغ غاية ما أعدت له من إبراز خصائصها البشرية، من كمال النفس. وشرف العاطفة، فلها من التضحية في أداء الواجب والقيام بالعمل ما يقف الرجل دونه عاني الوجه، نادي الجبين، لأن المرأة ليست بالخلق الضعيف، فمن الذي يحتمل ما احتملته المرأة في ظلمات التاريخ من عنت الدهر، وظلم الأب، وجور الزوج، إلى تعب الحمل وألم المخاض وسهد الليالي، ورعاية الأطفال وأعمال البيت ولهذا يتبين لكل ذي عقل أنها ليست ضعيفة أبدًا، ولا بالشيء الهين. وهي تفعل ذلك وتتحمله وهي راضية مطمئنة، سعيدة مبتسمة وإذا كانت المرأة ليست بالخلق الضعيف، ولا هي حقيرة ممتهنة، فقد أثبت التاريخ أنها دعامة هذا الكون الذي يظل ناهضًا ما نهضت به المرأة.. فإن هي ضعفت ووهنت وتخاذلت عن أداء واجبها تهاوت عمد بنيان الأسرة والمجتمع وبالتالي تتصدع جوانبه. لأن الله أوكل إليها إبتناء هذا الكون، وإنشاء الأمم، من خلال إنجاب الأبناء وتربيتهم ورعايتهم وتعليمهم، ومن هنا قال نابليون بونابرت "إن المرأة التي تهز الوليد في مهده بيمينها تهز العالم بشمالها" لأن المرأة مصدر قوة الأمة، ودعامة قوية في بنيان المجتمع، فإن ضعفت أخلاقها ووهنت قيمها

فأقم على الأمة مأتمًا وعويلاً، إنه في سبيل الكمال وقوة بنيــان المجتمــع وهب الله المرأة قوة يقين. وصبر وسعة الحيلة. وحسن التخلص لأنها هي ملكة غير متوجة على عرش الأسرة، وقد بلغت من قــوة الــنفس ورقــة العاطفة وحسن الرأي في عهد جاهليتها. قبل أن تشرق على الدنيا شــمس الإسلام. ماجعلها محل احترام كل من يستمع إليها. ولهذا تمتعت بحريــة الرأي. وعزة الجانب. وضربت المثل الرائع في نبل الأخــلاق. ثــم لأن المرأة هي قسيمة الرجل في حياته. وموطن شكواه إن ألم به ما يؤرقــه. فتكون هي مستودع سره ومهبط نجواه. وعماد بيته. لأنها هي التي تستقبل الوجود بأحاسيس وعواطف طيبة، وحس مرهف. وقلب يخفــق بالحــب والحنان. فهي التي تأسو ما جرحته الأيام من قلب الرجل - لأن المــرأة تتمتع بقوة عظيمة من نقاء السريرة، وصفاء القلب، وما ينبعث عنها مــن جَلَد وقوة ورقة ووفاء وولاء وحنان وحب وتعاطف، إن المرأة تملك مــن أسباب التأسية ما تواسي زوجها به، فلها أســلوبها الــذي يكــون نجــدة للمكروب. وغياثًا للمنكوب. لأن قول المرأة أنفذ في قلب الرجل مــن أي قول آخر، فكلماتها ترد على الزوج قوته إن ضعفت، وتحيي عزيمتــه إن وهنت. وعبارتها مشجعة له، مثبتة لقلبه- ولا أدل على ذلك مــن قــول السيدة العظيمة الفاضلة/ خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، للنبي العظيم سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم. وهو الشخصية العظيمة النبيلة، والــذي عرف بين قومه بالصادق الأمين. وكان يعيش بين قومه شخصية مهذبــة اجتماعية يسهم بالعطاء والتطوع في العمل الاجتماعي. وعندما هبط عليه أمين الوحي. "جبريل عليه السلام" وكان ذلك لأول مرة وقد استولى على النبي صلى الله عليه وسلم الفزع والرعب لرؤية الروح الأمين. فلم يجــد

من يبث إليه خوفه إلا الزوجة الوفية التي هدأت من روعـــه، وأســـمعته كلمات مشجعة وسرت عنه، وشدت على قلبه بكلمات تنزلت علـــى قلـــب النبي صلى الله عليه وسلم بردًا وهدوءًا وأمنًا وسلامًا وحديثها يـــنم عـــن سعة الأفق وبُعد النظر، وكان قولها له وهو خائف مضطر "كلا- يعني لا تخاف، والله لن يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل. وتُكسب المعدوم. وتعين على نوائب الدهر". ذلك قول المرأة التي آزرت نبـــي الله صلى الله عليه وسلم وواسته بما لها من سعة أفق وبُعد نظر. ووقفت معه تشد من أزره، وتساعده بكل غال ونفيس. وفرجت عنـــه هـــذا الموقـــف وغيره من المواقف الصعبة. واحتملت دونه خطوبًا شديدة. وكان قولهـــا مساعدًا في نشر الدعوة الإسلامية في مهدها وذلك إلهام الله للسيدة خديجة جرى على لسانها فنزل بردًا وسلامًا على قلب نبي الهدى ورسول السلام، إن حاجة الدين إلى قلب صاف صادق يمتلئ حباً للنـــاس ثقـــة بنصـــاعة ماضيه أمر مهم جدًا علاوة على عواطف نبيلة، أشد وأقوى من حاجته إلى بندقية. ومدفع. وسيف، وخنجر. لأن الله سبحانه قـــال لنبيـــه ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ النحل: ١٢٥

والدعوة إلى الإسلام تعتمد على الإقناع عن طريق الحوار الهـــادف والكلمة الهادية دون كره أو جبر من أحد على أحد يقول الله في بيان هذا ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٥٦ ومن المؤكد أن الحرب في الإسلام وسيلة وليست غاية أبدًا، فالحرب في الإسلام دفاعية، لا ينشئها المسلمون أبدًا – وإن من آيات التضحية في المرأة ما يعجز عنه الرجل، لأنها أعدت لتبلغ غاية ما أعدت له. من كمال النفس ورقة العاطفة حيث إن لها رسالة خطيرة جدًا، وهي إنجاب الأولاد وقبلها تمر بمرحلة الحمل، ثم طور الأمومة التي هي فترة زمنية تتنزل فيها المرأة عن حقها في الوجود لمن فصل عنها، وهو المولود الذي هو قطعة من لحمها "فأولادها قطعة من كبدها يمشون أمامها وكمية من دمها يتدفق في عروق أبنائها. تسهر ليناموا. وتجوع ليشبعوا وتظمأ حتى يرتووا. وتحتمل الألم الشديد راضية فرحة لتذيق أولادها طعم الراحة، وقد دفعني للكتابة في هذا الموضوع ما رأيته من غياب القدوة الحسنة أمام بناتنا ونسائنا. لأن المرأة العربية في الوقت الحاضر تريد أن تنهض وهذا حقها لكن عليها أن تزود نفسها بالثقافة من تاريخ جدتها العربية، حتى يتسنى لها معرفة الحقيقة، لأن الإنسان فكر وقد دوَّن فكره حتى يؤدي هذا... الفكر الإنساني الشامل، وظيفته الرئيسية، وهي تحويل الفكر العشوائي إلى فكر ملتزم منضبط على الحق، والالتزام بوعي منظم.. وعدم الجهالة بمعرفة القيادات الطبيعية التي أدت دورًا في البيئة والمناخ الاجتماعي الذي تعيش فيه المرأة، فجهلها بذلك يجعلها في حيرة تنتابها بالمخاوف على مستقبلها فإن عرفت تاريخها تبددت المخاوف التي تسيطر على قلبها إلى جرأة مؤسسة على منطق راشد مبني على حقائق من تاريخ جدتها وأختها في العروبة ذلك لأن الفكر المؤسس على ثقافة

حقيقية يكون سببًا في تحويل الغرائز الحيوانية والمشاعر الإنسانية. والطبيعة البشرية. إلى طاقة بناءة وفكر رفيع المستوى، يؤدي ذلك إلى تواجد الصفوة من الأفراد الصالحين لقيادة المجتمع.. إن طبيعتنا العربية والإسلامية تجعلنا نمتلك البوصلة التي تحدد لنا معالم الطريق المستقيم وتبين لنا حاجتنا الضرورية إلى الثقافة التي علينا أن نتزود بها. والثقافة لم تتكون في يوم وليلة وإنما تكونت عبر رحلة البشرية الطويلة وأصبحت فكرًا هائلاً مليئًا بالرؤى والتجارب، وأصبح هذا الفكر هو ميراث البشرية كلها وتحت رعايتها ووصايتها، صيانة للعرف الاجتماعي لكل بيئة، والعادات السائدة التي هي لكل شخص زاد على طريق رحلته التي يقطعها طوال حياته، والذي يملك توجيه الثقافة التي يتزود بها الإنسان لأن أي شخص يختار ما يشاء، لأن الله الذي خلق الإنسان زوده بالطاقة الفكرية، وأودع فيه إرادة الاختيار ومنحه الحرية المنضبطة على القيم الأخلاقية النبيلة، وصدق الله العظيم ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ "سورة الشمس من ٧-١٠" إن الفكر الرشيد هو الذي إذا عرف خيرًا تمسك به، ويقول، "هذا إلى أن يظهر لي ما هو خير منه"، ولهذا يقول أفلاطون "إن أشق صداقة يمكن الحصول عليها هي صداقة المرء لنفسه" وكان فولتير يقول "أريد أن أعرف الخطوات التي سارها الإنسان من الهمجية إلى المدنية، من هنا أردت أن أزود نساءنا ببعض شخصيات من تاريخنا المليء بالنماذج العظيمة من فضليات النساء.. حيث وجدنا المرأة العربية المسلمة تتجه ببصرها إلى نساء أوربا: ونسيت أن تتجه ببصرها إلى تاريخ المرأة

العربية في جاهليتها وإسلامها، وعلى المرأة أن تدرك أننا أمة عربية لنـــا أسلوب حياة. وجو اجتماعي. وطبائع ونظم شرعية وقيم وتقاليد وعـــادات بيئية ترتبط بهدي الأنبياء المرتبط بهدي الله سبحانه وحياتنا تختلف عـــن حياة أوروبا التي نشأت في ظلها المرأة هناك.. لأنه من الظلم أن نقـــول لنسائنا خضن البحر، والعبن الجمباز، وكرة القدم، وكن كنساء أوروبـــا. ترين ما يرين فذلك إرهاق لنسائنا، ولا خير من ورائه، ولا قدرة لنســـائنا على ذلك وأنا لا أكذب على التاريخ فالمرأة الأوربية ليست بالمثل الأعلى للمرأة العربية التي تتمسك بهدي الله وتعليمات الأنبياء لأنه لو كان لها أثر في الحياة الاجتماعية هناك لتغير نظام الكون.. لأن المرأة هنـــاك تكـــون أرضعت أطفالها الرحمة من رعايتها لهم كما ترضعهم اللبن من صدرها وغرست في نفوسهم الرحمة بالناس جميعًا، وعلمتهم التعايش السلمي مع الآخرين مع تجديد الدعوة للمساواة والإحسان وضـــبط ميـــزان العدالـــة والإمساك به بيد لا ترتعش، وغرست في نفوسهم عدم عبادة القوة والبطش والجبروت.. ونهتهم عن سلطان الأنانية والجشع – وحثت القوم هناك على أن يبادروا إلى الضعيف فيعينوه. وإلى الملهوف فيغيثوه. وإلى المظلـــوم فينصروه وإلى الجائع فيطعموه لو أن المرأة هناك أرضعت أولادها ذلـــك لسعد العالم أجمع. إن المرأة هناك فشلت في تربية أولادها لأنها انشـــغلت عنهم بالوظيفة والنادي والتمثيل ولم يجد الأطفال من يرعاهم فنشأوا وليس عندهم أخلاق الأسرة، لأنهم لم يشعروا بحنان الأم وعطفها، ورعاية الأب، واجتماع شمل الأسرة، فتسبب ذلك في قيامهم بإشعال الحرب بعد الحرب، وتدمير المدن وطمس حضارات، ومع ذلك فنحن لا ننكر علـــى المـــرأة الأوربية. سعة عقلها وحسن تدبيرها. وما حصلت عليه. من علم فذلك ما

لا نجد السبيل إلى إنكاره. ولكننا ننكر عليها تركها لبيتها وإهمال أولادها. وتركتهم للمربيات الخادمات. أما هي فأصبحت كاتبة حاسبة وصانعة بارعة وممثلة قادرة. ولكنها أهملت دينها، وتخلت عن قيمها، فجذبها المسرح، ودخلت السينما ومثلت ورقصت وغنت، ودخنت السجائر وأمسكت بالشيشة – والمجتمع الإنساني من حولها أصبح مقهورًا، ومُحي الود من قاموس حياتهم. ودميت القلوب وتلفتت البشرية تسأل "أين دور المرأة ؟ إنها المعلمة – المربية. أين أثرها في غرس قيم الرحمة في النفوس؟ أين أثرها في تطهير القلوب، وتنمية العواطف الأخلاقية من الحب والتعاون. والتسامح والتعايش السلمي والحفاظ على حضارة البشرية. وصناعة السلام ونشر الأمان. لقد غاب كل ذلك لغياب دور المرأة الفعال وأثرها العظيم في تكوين الإنسان وصياغة عقله، وتنمية فكره، وترقيق عواطفه وتهذيب سلوكه فلما نسيت ذلك تخلت عن دورها ونسيت أطفالها فنسيها أطفالها ولذلك تكون النهاية أن يدفع بها الأبناء إلى دور المسنين ولا تزار وينساها الأبناء كما نسيت رسالتها، من هنا أناشد بناتنا وأنادي على نسائنا إن لكنَّ في أمهاتنا العربيات المسلمات الأوائل غناء عن كل ذلك لأن المرأة العربية في جاهليتها ثم في إسلامها لها من كرم أخلاقها وطهارة جسدها وطيب أعراقها ما يجعلنا نتخذهن قدوة لأن دماءهن تتدفق بين جوانحنا وأعطاف قلوبنا.. وسيعلم الناس أن المرأة في جاهليتها لها من قوة النفس. وعزة الجانب وصواب الرأي ونبل الخلق ما يجعلنا نقدمها قدوة صالحة لنسائنا. ثم جاء الإسلام فشرع لها منهجًا عظيمًا وألبسها أحسن لباس من الكمال والجلال، وأحاطها بسياج من القيم، حصنها بذلك من ظلم الظالمين، وبغي المعتدين، وقوى فيها الإيمان الذي

صنع منها ربيبة مجد، وربة بيت، ومربية أجيال، ورافعة لــواء الفخــر بآبائها وأمهاتها، وأولادها وبناتها، مدعمة للعلاقات الاجتماعية القائمة على أسس من حسن العلاقات الإنسانية المبنية على الاحترام للغير القائم علــى طهر الوسائل وسلامة القصد ونظافة الغاية. ذلــك، لأن أثرهــا عظــيم، وماضيها حافل بجلائل الأعمال. واقرءوا التاريخ فهو أعظم شاهد.

إن رسالة المرأة أن تقدم للمجتمع – رجالاً ونساءً يتمتــع الجميــع بسلامة الجسد وطهارته وقوة الذاكرة والنبوغ في العلوم والفنــون. مــع الشجاعة. وقوة العزيمة والرحمة والعدل – ورعاية حق الآخر. والعمــل بقوة وإرادة على نشر السلام. والحب بين الجميع. وأمل يملأ نفس الإنسان بحب الخير للناس جميعًا، لتحقيق الرفاهية لكل شخص أيًا كــان لونــه أو وطنه أو عقيدته أو جنسه والأمن والاستقرار للمجتمع الإنساني بأسره مع التعايش السلمي مع الآخرين، وأنا أدعو القارئ أن يتجــه ببصــره إلــى أمريكا والغرب ويتفحص الأسرة هناك وأترك الحكم لأي مُحلل اجتماعي أو نفسي له – لأنه سوف يرى أن هناك الأسرة مفككة، أصابها التصــدع الاجتماعي، وأحاط بها الاكتئاب النفسي، وليس عندهم قدرة على التعامــل مع الآخر إلا بالسلاح أو التفريق بين الناس – التعصب دأبهم- وانفصــام الشخصية متأصل فيهم. والكآبة مسيطرة عليهم وعلى الجميع. والخــواء الروحي – والموت البطئ بسبب الطعام الدائم من المحــلات والثلاجــات والمشروبات الكحولية والمخدرات – إلى غير ذلك.

والسبب في ذلك مزاحمة المرأة للرجل في العمل خــارج بيتهــا، والتخلي عن رسالتها الأصلية من رعاية البيت وإعدادها لتربية الأولاد –

وغياب القدوة أمامهم – وهي الأم إننا نلفت النظر لدراسة تاريخ المـــرأة العربية وها نحن نقدم نماذج من نساء الشرق حيث كانت المرأة ومازالت هي قطب الرحى في الأسرة ونصف المجتمع، فهي الأم والزوجة والأخت والعمة والخالة والمربية. كل ذلك وهي محافظة علـــى أســـرتها مدعمـــة لروابط الحب بين الجميع.

إن الحضارة التي بنتها المرأة الغربية وشاركت فيهـــا وتقمصـــت شخصية الرجل تدخن السجائر وأمسكت بالشيشة ورقصت ونامت في غير فراش بيتها. وقال لها من خدعوها لا فرق بينك وبين الرجل فمن حقك أن تفعلي كما يفعل الرجل تماماً. ونسيت المرأة هناك وظيفتها الأصلية فماذا كانت النتيجة؟ هذا الخلل والتصدع وجفاف العواطف وغياب الرحمة ولهذا انشغل كل إنسان بنفسه. فلا علاقة اجتماعية ولا تآزر أسري ولا مودة ولا زيارات فكل شخص مسئول عن نفسه فقط. يردد – إن جالـــك الطوفـــان ضع أولادك تحت رجليك – وأنا ومن بعدي الطوفان وهذه هي الأنانيـــة المفرطة المدمرة.

ولهذا أقيمت دور المسنين – وتوسعوا في دور حضـــانة الرضـــع وانشأوا بنك اللبن وبنك الأرحام وانفصلت البنت عن أسرتها عندما وصل سنها إلى ثمانية عشرة سنة واتخذت لها صديقًا والولد كذلك. لذلك أصيب المجتمع بالضياع والانهيار وتعلقوا بالمادة وحرصوا عليها فأحسوا بالخواء الروحي. وفلت الزمام من أيديهم. فانتشر الانتحار. ومـــات الأمـــل فـــي القلوب. وعكفوا على الفيس بـــوك والمحمـــول والفضـــائيات ولاتفـــاهم ولاحوار. فماتت العواطف. وجفت ينابيع المودة والألفة والترابط.

أما الشرق فالأمر فيه على عكس ذلك – ترابط الأسرة والتفاف الأبناء حول الآباء في مودة وعطف ورحمة حتى بعد الموت. وهذه هي عظمة الإسلام ومنهجه القرآن الكريم. وتعاليم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن هديه وسنته القولية والفعلية وما أقره من فعل الصحابة.

وتعالوا بنا نحتكم إلى التاريخ، لنرى عظمة المرأة العربية، التي أنجبت أقمار الدجي ومصابيح الظلام، وربت الأبناء تربية صالحة يعجز التاريخ أن يأتي بمثل من ربتهم غيرها في أي زمان، علمًا وفهمًا وذكاء وشجاعة لأن النساء في المجتمع العربي هن مصابيح البيوت، لأن أي امرأة عربية تحرص على أن تضئ بيتها بالرضا والود والرعاية، وتجعل في كل ركن من أركانه لمسات جمالية تستريح العين لرؤيتها، وتهدأ النفس بهذا الجو الشاعري الذي يريح الأعصاب بما يتسم به من جمال التنسيق واللمسات الفنية ونظرات الحب والتقدير وحسن تربية الأولاد. والتعاون على خلق حالة نفسية هادئة للزوج والأولاد.

إن كل يوم يمر علينا نجد المرأة العربية تنتقل من طور، إلى طور فهي دائمًا تحاول أن تبلغ غاية ما أعدت له من إبراز خصائصها البشرية، من كمال النفس. وشرف العاطفة. فلها من التضحية في أداء الواجب والقيام بالعمل مما يقف الرجل دونه عانى الوجه نادي الجبين، ومن هنا يتقدم بها المجتمع وينهض، أما إذا ضعفت اهتز المجتمع وتهاوت عمده وانهار سقفه لهذا كان المعز لدين الله يتطلع إلى فتح مصر. لكنه كان يتراجع تهيبًا وكان دائم السؤال عن قصر الأخشيد حاكم مصر.

فلما قيل له إن نساء القصر أغرقن في الترف، واستهن بالقيم، وغابت الفضيلة من دنيا نساء القصر، صاح قائلاً (اليوم فتحت لنا مصر). لأن المرأة مصدر قوة الأمة ودعامة قوية في بنيان المجتمع، فإن ضعفت أخلاقها ووهنت قيمها فأقم على الأمة مأتمًا وعويلاً. ولقد سُئل نابليون بونابرت أي الحصون أقوى عليك وأمنع على جندك؟ قال (المرأة الصالحة) في نفسها المحافظة على بيتها. المؤدية واجبها لربها بدقة وانضباط. ولزوجها راعية في حضوره وغيابه. ولأولادها بالتربية والتوجيه.

إنه في سبيل الكمال والمجد، والحياة الآمنة، وتحقيق السعادة والرفاهية، أسوق حديث المرأة العربية التي هي ملكة غير متوجة على عرش الأسرة، حيث بلغت من قوة النفس، وحسن الرأي في عهد جاهليتها، قبل أن تشرق شمس الإسلام، ولهذا تمتعت بحرية الرأي، وعزة الجانب، وضربت المثل الرائع في نبل الأخلاق، ذلك لأنها قسيمة الرجل في إسعاد الأسرة. والنهوض بها، ثم إنها موطن بث شكوى الرجل إن ألم به ما يؤرقه. في نفس الوقت هي مهبط نجواه. ومستودع سره. وعماد بيته. لأنها هي التي تستقبل الوجود بعواطف طيبة وحس مرهف. وقلب يخفق بالحب والحنان. فهي التي تأسو ما جرحته الأيام من قلب الرجل لأن المرأة تتمتع بقوة عظيمة من نقاء السريرة وصفاء القلب وما ينبعث عنها من عطف ورقة ووفاء وولاء وحنان وحب وإحسان. وتملك من أسباب التأسية ما تواسي زوجها فلها أسلوبها الذي يكون نجدة للمكروب. وتأسية للمنكوب, ونحن نقلب صفحات التاريخ لنقف على نماذج مشرفة

من أمهاتنا العربيات. ونقدم للعالم هذه النماذج لأنهن مصـــابيح البيــوت، منجبات الأبطال – مفاتيح السعادة.

وهذا الكتاب قسمته إلى فصول ثلاثة.

الفصل الأول: المرأة في الجاهلية

الفصل الثاني: المرأة في ظل الإسلام

الفصل الثالث: المرأة في القرن العشرين

نسأل الله سبحانه التوفيق فيما أقدمنا عليه وأن يكــون ســنداً لنـــا ومعيننا – وهو سبحانه المستعان والهادي إلى سبيل الحق. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه إلـــى يوم الدين،،،،

جمادى ثان سنة ١٤٣٦ هـــ

مارس سنة ٢٠١٥ م

المؤلف

منصور الرفاعي عبيد

عضو اتحاد الكتاب

الفصل الأول
المرأة في العصر الجاهلي

لم تتمتع المرأة في أي مكان في العالم بمنزلة عالية، ورعاية كاملة، بمثل ماتمتعت المرأة العربية في العصر الجاهلي. فقد كانت المرأة العربية هي مثار عاطفة الرجل وسبب غضبه. ومعقد ألفته. ومطلع قصيدته. هي مشرق وحيه، هي نور الوجود في ناظره. هي كل شيء بين يديه. وقد عبر عن ذلك الشعراء لأنهم ألسنة القوم، وحفظة آدابهم. وحماة مجدهم، فكان الشاعر يبدأ قصيدته بذكر المرأة يصف ديارها ويذكر أطلالها، ومعالم حيها، فيبدأ بها أولاً قبل أن يدخل في الموضوع الذي سوف يتحدث عنه، حتى وإن كان رثاء أو مدحًا أو وصفًا لشيء فمثلاً الشاعر "مهلهل بن ربيعه" بكى على كليب أخاه الذي قتل وبكاه وهو محرق الكبد، وقال قصيدة تدل على مدى حزنه وقد بدأ قصيدته بذكر المرأة فقال:

الدار قفر عفاها بعد ساكنها — بالريح بعد ارتحال الحي عافيها
وعافها الدهر إن الدهر ذو غيل — فأصبحت بلقعًا عفرا معانيها
إلا رواكد سعفا بين ملتبد — مثل الحمامة منتوفا خوافيها
دار لمهضومة الكشحين خزعبة — كالشمس حين بدا في الضوء باديها

إن الرجل العربي كان إذا أتى من الأمر ما هو خير كله ورضيت نفسه يفعله، وموقفه يتطلب أن يبوح بذلك لأحد. فكان لا تهدأ نفسه ولا يطمئن قلبه حتى يفضي بهذا الأمر إلى زوجته أو أمه أو أخته أو ابنته، يسوق إلى من يفضي إليها ما فعله، ثم يسوق إليها الشعر فياضًا بمآثره، معتزًا بما قدم، وكل

أمله أن تذكره المرأة التي أفضى إليها بما يشغله بكلمة طيبة بين نظرائها، فيتيه بها فخرًا. وفي مثل هذا يقول بعضهم:

إن كنت ساقية يوما ذوي كرم فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم وأعلى مفارقهم مسكا وريحانا

ولم يقف الأمر عند ذلك بل إن الرجل العربي بلغ به خياله مبلغًا عظيمًا فأضفى على المرأة من التشبيه أن جعلها هي كالملائكة في سمو المكانة وعلوها وطهرها، وهو لم ير الملائكة إلا أنه يتخيلها كالملائكة عالية المكان، خلقت من نور، تعيش في عالم الطهارة، لذلك قالوا عن النساء "هن بنات الله وصفياته" تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا وتنزه سبحانه عن ذلك، وقد حكى القرآن عنهم ذلك كما في قول الله سبحانه ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[11] بل تمادوا في ذلك وقالوا إن الله اتخذ الملائكة إناثًا فلما سئلوا هل شهدتهم خلق الملائكة؟ وهل رأيتم الملائكة حتى تحكموا هذا الحكم؟ عجزوا عن الإجابة لكن هذا ما جاء على لسانهم وذلك لمنزلة المرأة في نفوسهم وإعزازهم لها وحرصهم عليها وفي بيان هذا جاء قول الله سبحانه ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ

---

(11) سورة النحل آية ٥٧.

أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾[١٢] إن ذلك دليلاً على ما للمرأة من مكانة في نفس الرجل العربي فهو يستهل بها قصيدته أو يجعلها في مكان الطهر والقرب من الله – وحاشا لله فهم يقولون كذبًا لأنهم قوم لايفقهون وذلك يدل بكل وضوح على مكانة المرأة عند الرجل العربي.

حماية المرأة العربية

إذا كان الرجل العربي قد أحاط المرأة العربية بكل رعايته. فهو حريص عليها أشد من حرصه على نفسه يضن بها عن أن تهان ولا يقبل أن يزوجها برجل غير عربي لأنه لا يعرف قدرها ولا قيمتها لأن غير العربي ليس لها كفء مهما كانت منزلته ومكانته. وهذا من حرص الرجل عليها من أن تكون تحت ظل رجل لا يعرف مكانتها السامية ولا منزلتها الكريمة عند قومها. والضن بها لشرفها وعزتها ومكانتها بين قومها. وكان يقدم نفسه فداء لها ويحميها مهما كان الثمن الذي يقدمه. وكان يغالي بها وتغالي هي بنفسها. مهما كان وضعها الاجتماعي أو مكانة قبيلتها فالدم العربي غال جدًا ولا يكون رخيصًا أبدًا, من ذلك أن أحد تجار الفرس العظام بذل كل جهده أن يتزوج بامرأة من قبيلة باهل – وهذه القبيلة من أوضع القبائل العربية يدل على ذلك ما قاله الشاعر:

([١٢]) سورة الزخرف من الآية ١٢-٢٠.

إذا نص الكرام إلى المعالي تنحى الباهلي عن الزحام
إذا ولدت حليلة باهلي غلامًا زيد في عدد اللئام
وعرض الباهلي وإن توقى عليه مثل منديل الطعام

هذه القبيلة التي قيل فيها هذا الكلام، خطب أحد التجار من الفرس بنتًا من بناتها، فأبت أن تتزوج من هذا التاجر لأنه فارسي رغم أن التاجر واسع الثراء ويتمتع بنعومة الحال، وسعة الرزق، وهذه القبيلة كانت فقيرة جدًا[١٣]. ولا يغيب عن بالنا يوم ذي قار. حيث المعركة الشهيرة والتي وقعت بين العرب والفرس. لأن "كسرى أبرويز".. ملك الفرس وسيد ملوك المشرق أرسل إلى "النعمان بن المنذر" وهو عربي والملك يبغى مصاهرته – ولو أن ملكاً عظيماً من عظماء المجتمع الدولي بعث إليه كسرى بمثل هذا الطلب لفرح فرحًا شديدًا بل وجهز ابنته وقدمها إلى الملك لينال رضاه. والنعمان صنيعة كسرى وقائم بأمره "فهو عامل عنده بدرجة محافظ خاضع لسيفه.ومع ذلك رفض هذا الطلب ورد رسول كسرى يحمل الرد بالرفض وشعر النعمان بالراحة النفسية لأنه حمى فتاة عربية أن تكون تحت رجل أعجمي لا يعرف قدرها ولا ينزلها المنزلة اللائقة بها ومع ذلك فهو يعلم أن مصيره سيكون الهلاك, والنعمان ضن بإبنته العربية الأصيلة أن تكون قعيدة بيت رجل أعجمي, مهما كان سلطانه وملكه وماله. وعندما وصلت الرسالة إلى كسرى بالرفض اشتعلت نار الغضب في نفسه وثارت بين جنبيه سورة الملك، فأرسل يستقدم "المنذر" وهو عامله. وكان عليه أن يلبي طلب رئيسه لكنه بذكائه فهم أن شبح الموت يطلع عليه من جهة المدائن. لذلك ذهب إلى صديق عمره ورفيق صباه في حياته "هانئ بن قبيصة" فأودعه ابنته وأفهمه الأمر ولم ضن بها. كذلك سلمه سيوفه ودروعه ومقتنياته من جواهر وأمانات أخرى. وذهب إلى كسرى الذي لم يكلمه ولم يكن

---

(١٣) يراجع الكامل لابن الأثير

هناك أي حديث بينهما استعلاءً من كسرى واستكبارًا واستعلاء على النعمان, لذلك أمر كسرى بطرح النعمان على الأرض ثم أطلقوا عليه الفيلة التي بدأت تدوسه بأقدامها وسويت جثته بالأرض فلم يظهر منها عظم ولا لحم، وسوى جسده بالتراب وتنهد كسرى لأنه شفى غليله من هذا الذي رد طلبه ولم يبعث بابنته إليه. ولما عرف بمكان ابنته عاود فأرسل إلى "هانئ" يطب الفتاة لكنه رفض هو الآخر. فهاج كسرى على هذه الأمة التي استأسدت في وجهه وبعث من حمل إليه هانئ الذي كان نصيبه نصيب المنذر وذهبت الفيلة بلحمه وعظمه ودمه كل مذهب. ثم جهز كسرى جيشاً عظيمًا. ليؤدب العرب، ويوقع بهم الخسف. ويبسط رواق الذل على هذه الأمة ويأخذ من بناتهم ما يشاء، وعلم العرب فأجمعوا أمرهم واتفقوا على – أن يموتوا في حومة الشرف والكرامة والدفاع عن الوطن والحرية خير لهم من أن يموتوا في بسطة من العيشة الواسعة المغلفة بالذل وهتك مشاعرهم وموت أحاسيسهم.. وقد قالوا:

لا تسقني ماء الحياة بذلة　　　بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

لذلك خرج العرب يذودون عن أعراضهم، ويدافعون عن كرامتهم، والتقوا بجحافل الفرس على بطحاء ذي قار. من أرض العراق. وسميت المعركة بأسمها. وكانت موقعة احمر لها وجه الأفق. وارتفع الغبار المثار في الجو حتى محا آية الشمس التي اختفت من أثر الغبار ورأى الناس النجوم في منتصف النهار وبدأ العرب يقطعون نطاق المرأة حتى لا تترك أرض المعركة. وإنما تبقى لتشعل الحماس في قلوب الرجال. لذلك تأججت نار الحقد على الفرس الذين جاءوا من بلادهم ليشعلوا نار الحرب على أرض ليست لهم، لكن نيتهم كسر شوكة العرب وإذلالهم. ونهض العرب وكشروا عن أنيابهم وتحولوا إلى صواعق ساحقة وأسود مهاجمة. ومن خلفهم النساء يحملن السلاح وهن في موقف الدفاع وتقوية عزائم الرجال، وانحسر القتال وقد ضرب العرب الفرس

ضربة أطارت الكثير من رؤوسهم وأدخلت الرعب على من بقي حيًا فنكصوا على أعقابهم خاسرين وفروا هاربين من ميدان المعركة وسيوف العرب في رقابهم تعمل فيهم حتى أدخلوهم المدائن. إن العرب مع قلة مالهم لم يقبلوا تقديم بناتهم لأي شخص أجنبي ولم يفرطوا في عرضهم ولم يمكنوا الغاصب من وطنهم. ذلك يوم له خبره في التاريخ يذكر ولا ينسى لأن العرب انتصفوا من الفرس وأذلوهم وتحرروا من قبضتهم، ولم يفرطوا أبدًا في نسائهم ولقنوا الفرس درسًا لا ينسى. وقد قال شاعر العرب في ذلك:

ما أوقد الناس من نار لمكرمة … إلا اصطلينا بها وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به … للناس أفضل من يوم ذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسة … لما لبسنا لكسرى كل أسوار[١٤]

هؤلاء هم العرب الذين لم يرضخوا لطلب ملك ظالم ولم يستكينوا ولم يقبلوا أن تتزوج ابنتهم من ملك أعجمي. لذلك نقول لشبابنا اليوم عليكم أن تتشبهوا بأجدادكم وآبائكم وأن تكونوا حماة للشرف العربي والكرامة العربية وعندكم غيرة على بنات قومكم وحافظوا على الشرف العربي. والشاب الأصيل الذي ربته أمه. لايتحرش بأي امرأة أياً كان دينها أو وطنها..

لم تقف حماية الرجل العربي للمرأة عند حد معين. بل هو يخوض المعارك وهو موقن بأن دمه قد يسفك دون بلوغ للغاية التي يرتضيها. إلا أنه يفعل ذلك بطيب نفس وهو يدرك أنه يدافع عن أعز شيء لديه. لأنه هو والمرأة جناحان لمجتمع فاضل. فهما يتجاذبان الرأي. ويتبادلان المعونة ويتعاونان على مصاعب الحياة. إن شرف المرأة العربية حلقة مفرغة لا طرف لها. وفي الوقت الذي كانت المرأة العربية في المجتمع الإنساني تتمتع بالحرية والمساواة

---

(١٤) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣

ولها ما للرجل وعليها ما عليه من حقوق وواجبات في الوقت الذي كانت المرأة العربية تتمتع فيه بالكرامة وعلو المكانة وهي محل رعاية الرجل. كانت المرأة الرومانية تدين بالعبادة للرجل وكانت تؤلهه وليس لهـا حـول ولا طـول إلا بالرجل. وكان له الحق في بيعها حتى ولو بثمن بخس ولا رأي لهـا ولا ذمـة مالية وتعد من سقط المتاع. بل إن القانون هناك يمنعها من الجلوس مع الرجل لتأكل معه ولا يجوز لها أن تضحك أمامه بل يكمم فمها. هذا هو قانون المجتمع الدولي يوم ذاك لكن المرأة العربية اعتلت عرش الكامة وحمتها سيوف قبيلتها.

حرص الرجل العربي على كرامة المرأة

كانت المرأة العربية تتمتع بحرية تامة ولها مكانة اجتماعية عظيمة وقد بلغ من حرص الرجل على الحفاظ على كرامة نساء بيته رعاية شديدة وأحاطها بكل كرامة إحاطة عظيمة فما بالك بالأم أو الأخت أو الزوجة أو الأبنة ونسوق بين يدي ذلك هذه القصة – لتوضح لنا مدى حرص العربي على نساء بيتـه – ذكروا – أن عمرو بن هند – قال يومًا لجلسائه هل تعلمون أحدًا مـن العـرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ وكان عمرو – قد بلغ مكانة عظيمة عالية بين قومـه فقالوا – نعم – "ليلى بنت مهلهل بن ربيعة" قال لهم لمـاذا؟ قـالوا لأن أباهـا "مهلهل بن ربيعة" وعمها "كليب بن وائل" وهو أعز العرب – وبعلها – كلثـوم بن مالك – وهو فارس شجاع – وابنها – عمرو بن كلثوم – سيد قومه – وأسد كتيبتهم "هنا تنهد عمرو بن هند وفكر أن ملكه لم يكتمل وأن ما يرجوه لنفسـه من عظمة ووضع اجتماعي مرموق لم يتحقق" لذلك أخذ يفكر وفـي النهايـة توصل إلى حيلة يشبع بها نفسه ويحقق حلمه. فأرسل إلى عمرو بـن كلثـوم يطلب منه أن يزوره ورجاه أن يصحب أمه لتزور أمه. وأهل بيته. واسـتجاب عمرو بن كلثوم لهذه الدعوة. وقد قام عمرو بن هند بوضع الترتيبـات لهـذه

الزيارة ونصب الخيام وجهز الأروقة في مكان بين الجزيرة والفرات. وأرسل إلى وجوه مملكته عدد كبير من رجالات مملكته – وأستقبل عمرو بن هند ضيفه. واصطحبه إلى رواق ضخم فخم يدل على البذخ والترف. بينما اصطحبت أمه هند – ضيفتها ليلى – إلى قبتها التي لا تقل عن قبة أبنها في الفخامة وجمال المنظر – كان عمرو بن هند قد طلب من أمه أن تنحي الخدم – وعندما يطلب تقديم الطعام تطلب من ليلى أن تناولها الطعام. وعندما نادى ولدها بالطعام قالت هند ناوليني يا ليلى هذا الطبق – فردت ليلى لتقم صاحبة البيت فتأخذ ما تريد – فأعادت هند طلبها وكأنها تأمرها فصاحت ليلى – قائلة – واذلاه – يا لتغلب – فسمعها عمرو ابنها فانتفض انتفاض المحموم – وقال أماه لا ذل لتغلب أبدًا وكانت عيناه قد أبصرت سيفًا معلقًا بالرواق وليس هناك غيره. فأخذه وضرب به عمرو بن هند. ثم نادى عمرو بن ليلى على قومه بني تغلب فانتهبوا الرواق وغيره وحملوا ما جمعوه على نجائب الخيل والجمال وفي ذلك يقول عمرو بن ليلى قصيدته وهي من المعلقات:

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

وفيها يقول:

ألا لا يعلم الأقوام أنا ... تضعضعنا وأنا قد هوينا
ألا لا يجهل أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند ... تكون لقيلكم فيها قطينا
تهددنا وأوعدنا زويدا ... متى كنا لمثلك مقتوينا

فهو يقول لخصمه الذي قتله إن ما أنت فيه لا يجعل أمك تستخدم أمي، ثم يا ليت الأمر وقف عند هذا الحد – بل إن "مرة بن كلثوم" وهو شقيق عمرو بن ليلى والذي لم يشهد هذا الموقف مع أخيه ثار الدم العربي فيه واقسم أن

جذوة الغضب في نفسه لن تنطفئ حتى يروى سيفه من دم قبيلة عمرو بن هند – لهذا توجه إلى بلد عمرو بن هند – وقتل ولده النعمان وأخاه. ذلك لأن أباه أوصى أمه أن تستخدم أمه. إن العربي يأنف من أن يوصم بأنه فرط في حريمه ونساء بيته[١٥]

ولعل القارئ قرأ أو سمع عن حرب "الفجار" وهي حرب نشبت بين العرب في سوق عكاظ – وسميت بذلك لأنها وقعت في الأشهر الحرم وهم الذين كانوا وضعوا قواعد تحريم القتال في هذه الأشهر التي هي "رجب ذو القعدة وذو الحجة والمحرم" وسبب هذه الحرب أن شابًا من قبيلة كنانة رأى امرأة من عامة الناس وكانت على جانب كبير من الجمال فجمع بعض قرنائه. فأعجبهم حسنها فطلبوا منها أن تكشف عن وجهها. فرفضت فأخذوا يسمعوها من الكلمات ما يجرح حياء الأنثى. ثم سخروا منها. فرفت صوتها ونادت قائلة "يا آل عامر" وهذه القبيلة وضعها الاجتماعي ضعيف وليس لها كيان اجتماعي ومن هنا قال الشاعر فيهم:

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر   من اللؤم ما دامت عليها جلودها

كانت المرأة من هذه القبيلة الضعيفة. ومع ذلك لبت صيحتها سيوف بني عامر قبيلة هذه المرأة وجاء الناس من كل حدب وصوب يلبون فتاتهم ويغيثونها ووقف بنو كنانة يدافعون عن فتيانهم وكل قبيلة لها حلفاء من قبائل تؤيدها وتنصرها وتحارب معها لذلك تفجرت الدماء وتناثرت الأشلاء. واغبر الجو وتطايرت الرؤوس هنا سارع حرب بن أمية وحاجز بين الفريقين. ولولا أنه احتمل ديات القتلى من الفريقين لاستمرت الحرب وأصبح الخطب أفدح

---

(١٥) يراجع النص في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ٩.

والمصائب عظيمة[١٦]. هنا لنا وقفة لنقول لشبابنا أرأيتم الغيرة على العـرض والدفاع عن الشرف والأنثى هي شرف الأمة, ولعل شبابنا يقرؤن هذا ويعرفون كيف يدافع الإنسان عن شرفه وعرضه ولا يسمح لأحد أن يلمـس كرامـة أي امرأة تدين بدينه أو من قومه وعشيرته أو بلده. أو وطنه ويا ليت من يتحرشون بالأنثى يكون عندهم دم عربي ولا يقبلون التعرض للأنثـى لأنهـا هـي الأم والأخت والزوجة والابنة والخالة والعمة وما لا ترضـاه لأمـك وزوجتـك لا ترضاه لأي أنثى لأن المؤمن العربي الحر الأصيل يحب للناس ما يحبه لنفسه.

(١٦) يراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣.

احترام رأي المرأة

كما كان الرجل العربي يدافع عن المرأة. فقد كان كـذلك يحتـرم رأيهـا ولا يجبرها على أمر لا ترضاه – لمكانتها في نفسه – من ذلك ما حدثوا به أن (مروان القرظ ابن زنباع) أعلن الحرب على "بكر بن وائل" – وهُزم مروان – وتتبع جيش بكر جيش مروان الذي وقع هو كذلك أسيرًا.

ولم يعرف الذي أسره أنه هو مروان بن القرظ فأخذه وذهب به إلى بيته وهو فرح لأنه سيتخذه عبدًا يرعى له غنمه ويقوم على خدمته فلما رأتـه أمـه قالت له: أراك تختال بأسيرك. كأنك أسرت مروان بن القرظ فقال لها مروان. وماذا ترتجين من مروان؟ قالت عظم فدائه. قال لها وكم ترتجين من فدائه؟

قالت مائة بعير فقال لها مروان وهذا لك على أن تحضري لي "جُماعة" بنت عوف بن محلم. أو تذهبي بي إليها. فقالت المرأة ومن لي بمائة من الإبل؟ فأخذ عودًا من الأرض فقال لها. بهذا ستحصلين على المائة من الإبل فمضـت المرأة بمروان إلى عوف بن محلم الذي أخبر ابنته بخبر مـروان وطلبـه أن تجيره فأجارته من كل مكروه. وكان مروان قد أساء إلى عمرو بن هند طاغية الحيرة وملك العرب فلما علم بمكان مروان. أقسم عمرو أن ينتقم من مـروان ولا يعفو عنه أبدًا وقد أرسل عمرو إلى عوف بعض الجند ليحضروا مروان – فرد عوف بأن ابنته أجارته وليس إليه من سبيل. فقال عمرو قد أقسـمت أن لا أعفو عنه حتى يضع يده في يدي. وكانت هذه حيلة للإمساك بمـروان – قـال عوف لرسل عمرو بشرط عند وضع مروان يده في يد عمرو أن تكون يـدي بينهما فأجاب عمرو ذلك – وكانت النتيجة العفـو عـن مـروان لأن امـرأة

أجارته[١٧]. نماذج مشرفة - وتاريخ عظيم للمرأة العربية ودورها الرائد في التربية. كما ذكروا أن سبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف - تزوجت من "مسعد بن مالك الثقفي" سيد ثقيف. وقد نشبت حرب بين - ثقيف - بقيادة زوجها - وبين كنانة - بقيادة حرب بن أمية - وهو أخوها - وقد خرجت "سبيعة" مع زوجها الذي ضرب لها خباء وراء جنده - ولما دخل عليها زوجها وجد الدموع في عينيها فقال لها. ما يبكيك؟ قالت أبكي لما عسى أن يصيب قومي. فقال لها. من دخل خباؤك من كنانة وحلفائهم فهو آمن - فأمرت بتوسعة خبائها حتى يتسع لعدد أكبر من قومها. ودارت رحى الحرب وهزم مسعود زوجها وغلب على أمره فدخل عليها ابن أخيها المنتصر ولكنه أمنها وقال لها من تمسك بأطناب خباؤك فهو آمن فلم يبق أحد من قبيلة زوجها إلا وقد دخل إلى خبائها أو دار حوله [١٨]. فلم يُصَب أحد منهم بسوء. وهذا شرف لو تعلمون عظيم. سببه امرأة.

إن التاريخ لا يكذب أبدًا وها نحن نقلب في صفحاته فيبهرنا ما نقرأ وما سجله التاريخ عن هذه الأمة التي تغني بمجدها الشعراء حتى قال قائلهم:

"أولئك آبائي فجئني بمثلهم"

إن الحديث عن المرأة العربية التي كانت ملئ السمع. وتتمتع بمكانة اجتماعية لم تصل إليها أي امرأة في العالم. لذلك فإن الحديث عنها يملأ القلب روعة لما لها من موفور العقل. وسمو المنزلة. وسماحة الرأي وسنعرض لقصة أخرى مسجلة على جبين الزمن لتكون عبرة أمام من فتنوا بغير المرأة

---

(١٧) يراجع مجمع الأمثال لابن القالي ج٢.

(١٨) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ج ١٩.

العربية. ذكروا أن سيد العرب "الحارث بن عوف المرى" قال يومًا لمن حوله. أترونني أخطب فتاة فأرد؟ قيل له نعم. قال ومن الذي يردني؟ قالوا له "أوس بن حارثة الطائي، فقال الحارث لغلام له ارحل بنا إليه وقد اصطحب معه صديقه "خارجة بن سنان" وتوجهوا إلى أوس بن حارثة في ديار قومه. فوجده في منزله. فرحب بهم. ثم سأل أوس بن حارثة، الحارث بن عوف المرى وقال له. ما جاء بك؟ قال الحارث جئتك خاطبًا قال أوس: ليس لك عندي ما ترجوه. فانصرف الحارث ولم يتكلم بعد ما سمع رأي أوس: ولما دخل أوس بعد ذلك على زوجته وهو في حالة غضب شديد. فلما رأته في هذه الحالة أرادت أن تسري عنه. فسألته: من الرجل الذي وقف معك قليلاً ثم انصرف ولم يتكلم؟ قال لها: ذلك سيد العرب "الحارث بن عوف المرى" قالت لِمَ لَمْ تضيفه؟ قال لها: إنه استحمق – قالت وكيف؟ قال: جاءني خاطبًا، قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال؟ نعم – قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ما كان – قالت له – لا – في إمكانك أن تتدارك الأمر. قال كيف؟ قالت تلحقه فترده. قال: كيف وقد كان مني ما كان؟ قالت: تقول له. إنك لقيتني وأنا كنت في حالة غضب وأنت لم تمهد لطلبك فكان جوابي ما سمعت. فارجع معي ولك عندي ما أحببت. وفعلاً أسرع أوس بالخروج وأدرك الحارث وقال له ما قالته زوجته له. فرجع معه الحارث مسرورًا – ودخل أوس على زوجته. وقال لها أحضري فلانه – ابنته الكبرى – فأتته. فقال يا بنية. هذا الحارث بن عوف. سيد من سادات العرب قد جاءني خاطبًا وأريد أن أزوجك منه فما تقولين؟ قالت لا تفعل يا أبي. فقال لم؟ قالت لأنني فتاة قبيحة الوجه وفي خلقي تسرع. ولست بابنة عمه فيرعى رحمي. وليس بجارك في البلد فيستحي منك ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني. فيكون علي من ذلك ما أكره – قال لها قومي بارك الله فيك. ثم دعى ابنته الوسطى. فعرض عليها ما عرضه على أختها. قالت: إني خرقاء

"لا تحسن صنع أي شيء" وليس بابن عمي فيرعى حقي. ولا جارك فيستحي منك. قال لها قومي بارك الله فيك ثم دعى الثالثة أصغر بناته. وعرض عليها ما عرض على أختيها وأخبرها بما تم. فقالت لأبيها أنت وذاك. فنظر إليها. فقالت: والله إنني الجميلة وجهًا. صاحبة صنعة في يدي – الرفيعة خلقًا. الحسيبة أبًا. فإن طلقني فلا اخلف الله عليه بخير. فقال لها بارك الله عليك. ثم خرج إلى الحارث وصاحبه خارج بن سنان. فقال يا حارث قد زوجتك "بهية" قال قد قبلت. فأمر أمها أن تهيئتها وتصلح شأنها حتى إذا حملت إلى زوجها وبلغ بها مكانًا بين عبس وذبيان وكان بينهما حرب دامت زمنًا طويلاً واشتعلت نار الحرب فلم تذر من شيء إلا جعلته كالرميم. وكل من القبيلتين اكتوى بنار الحرب. هنا أبصرت "بهية" زوجها مرتديًا أردية من الخز لأنه عريس. فقالت له والله لقد ذكرت من الشرف ما لا أراه فيك؟ قال لها: وكيف؟ قالت: أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضًا؟ قال فيكون ماذا؟ قالت: أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم فخرج لساعته إلى صاحبه (خارجة بن سنان) وقص عليه حديث امرأته. فقال (خارجة) والله إني لأرى همة عالية وعقلاً. ولقد قالت قولاً عظيمًا. قال: فاخرج بنا إليهم. فخرج الرجلان فمشيا بين القوم بالصلح واحتملا ديات القتلى وكل المغارم المالية. وبلغ قيمة المبلغ الذي دفعاه (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف بعير وهذه ثروة لا تقدر وأي شخص لا يبذلها وتم الاتفاق على أن تدفع. في ثلاث سنين وهي لعمر أبيك ثروة للأعرابي عظيمة وكبيرة جدًا. وهدأت الحرب التي دامت بينهم سنين برأي امرأة عربية وتوجيهاتها[١٩] وذلك أمل أن نعيد قراءتها لنعرف مدى ما تمتعت به المرأة من حرية. وما تملك من شجاعة في الرأي ورجاحة التفكير.

---

(١٩) الأغاني ج١ ص ١٤٢.

"وها أنتم يا شباب ترون ما يصنعه الغرب من إشعال حــروب داميــة على أرضنا وقتل الملايين من أبناء جلدتكم ومحو بلاد من بلاد العــرب مــن خريطة الوجود. أليس بينهم امرأة رشيدة كتلك المرأة العربية تنصح عقلاءهــم وأرباب الفكر منهم لإيقاف نار الحرب - لكن فاقد الشيء لا يقــدم أي شــيء. ولكم أن تنظروا لما كانت تقدم عليه المرأة العربية وهي التي تربــت التربيــة المؤسسة على تنمية العقل على يد الأستاذة الأولى في حياة أي إنسان وهي الأم وهل في الغرب مثل ذلك؟ لا - وألف لا - لقد كان الرجل العربي. وهو مــن نعلم. قوي الشكيمة. صلب العود. مع رجاحة العقل وفرط الإباء ومع ذلك فقــد كان الرجل ينزل على رأيها وحكمها. ويحقق لها طلبها. ويطمئن لرأيها إذا أنس منها القدرة على حسن القيادة وبعد النظر. وسعة الأفق وإني ملم ببعض أبيــات من الشعر ليتبين لنا مدى تعلق المرأة العربية بحبها لوطنها وأهلها وبيئتها التي عاشت فيها. لم تنسها غرفات قصور دمشق ولا بهجة الحياة ونعومتهــا. عــن وطنها الأول في البادية مع شظف العيش هناك وجفاف الحياة ومع ذلك تحــب الوطن الذي ولدت فيه ونمت على ترابه وترعرعت على أرضه وتحت سمائه لذلك تقول "ميسون بنت بجدل" وقد تزوجها معاوية بن أبي سفيان. ونقلها مــن نجع صغير إلى القصر الأميري. وقد أنجبت يزيد بن معاوية. وقد قالت هــذا الشعر تعبر عن حبها لنجعها وتتمنى الرجوع إليه والعيش في رحابه:

لبيــت تخفــق الأرواح فيــه أحــب إلى مـــن قصــر منيــف
وأكل كسيرة في جنب بيتي أحــب إلى مـن أكـل الرغيـف
ولــبس عبــاءة وتقــر عــيني أحــب إلى مـن لـبس الشـفوف
وأصــوات الريــاح بكــل فــج أحــب إلى مـن نقــر الــدفوف
وكلـب ينـبح الطـراق دونـي أحــب إلى مـــن قــط الــوف
وبكــر يتبــع الأطـلال صـعب أحــب إلى مـــن بغــل زفــوف
وخـرق مـن بنـى عمـى نحيـف أحـب إلى مـــن علــج عنيــف
خشونة عيشتي في البدو أشهى إلى نفسي من العـيش الظريـف
فما أبغــى سوى وطــني بديـلا فحسـبي ذاك من وطـن شريـف

نداء إلى الجنس الناعم – أرأيتن – يا من تجبر زوجها على ترك الأهل والوطن.. وتقطع صلتها بوطنها الأول – وأهل زوجها كأنها لم تقرأ مـــا قالـــه الشاعر:

بـلادي وإن جـارت علـى عزيـزة وأهلـي وإن ضـنوا علـى كـرام

هذا درس على يد جدتك العربية الأصيلة تعلمك حب الوطن والصلة به عند الغربة فحب الوطن من الإيمان.

نموذج فريد

في بادية من بوادي الشام تقع قرية "تدمر" وهي على بُعد ١٥٠ مائـــة وخمسون ميلاً من دمشق – ويقطع المسافر من تدمر إلى الفرات هذه المســافة في خمسة أيام – وكانت تدمر ملتقى الغادين والرائحين من الشام إلــى دمشــق والعراق. وكانت منتجع أهل هذه البلاد لهذا جمعت بين مظاهر مدينتي الفرس والروم وكانت عيشة أهل تدمر مرفهة وشمائلهم رقيقة. فأقاموا الأبنية. وأكبــر

شاهد على ذلك القصر الأعظم الذي بلغ ألف ذراع في مثلها. وهيكل الشـــمس. ومن ضخامتها لا تزال أطلالهما باقية تخشع عند رؤيتهما القلوب. هذه المدينة قامت قاصية بين نطاق الصحراء. فتألق لألاؤها وبدت في الصحراء كنجم شق رداء الظلام في كبد السماء. هذه القرية بسطت سلطانا على المدن من حولهـــا. ونشرت أعلامها على العديد من أمم المجتمع وشعوب الأرض. هذا المجتمـــع كانت تحكمه إمرأة عربية هي "زينب" التي كانت قبل توليهـــا الحكـــم مشـــيرة لزوجها. ثم وصية على ولدها وفي كلا الدورين كانت لها اليد الطولي في إدارة الحكم حيث يعتمد الكل على رأيها. كانت زينب تتمتع بجمال مفرط وعذوبة في منطقها تنتقي ألفاظها لتكون واضحة الدلالة على ما تريد قوله. ومع هذا فهـــي محاربة تجيد فنون الحرب. عزيمتها قوية ومن أشد الناس بأسًـــا. تراهـــا فـــي الميدان وهي لابسة ملابس الجند تشد من أزرهم وتقوي الروح المعنوية لـــديهم وتحثهم على الإقدام. وكانت تكشف ذراعيها كما يفعل أبطال اليونان والرومان. فكان الجند تتعلق أبصارهم بها فتملك عليهم نفوسهم ويعاهدونها على التضحية والإقدام. فإذا بدأت المعركة وقعوا على أعدائهم كالصاعقة. ومن هنا انتصـــر جندها في كل المعارك. كانت هذه الملكة العربية تجيد العديد من اللغات الحيـــة في عصرها. كالفارسية والرومانية. واليونانية. وتفهم اللهجات البدوية. لـــذلك أشادت الأمم بذكرها. وأفسحوا لأخبارها المكان الأول في أحـــاديثهم. ودونـــت سيرتها في تاريخهم.

هذه الملكة العظيمة. ذات التاريخ نكبت نكبة رهيبة حيث لعبت الخيانة دورها في القضاء عليها فانهزمت أمام جند الرومان الذين كانوا لا يصـــمدون أمام جيشها ساعة. ولكن الخيانة لعبت أخطر دور في حياتهـــا حيـــث نشـــرت الأكاذيب بين الجند والجبهة الداخلية عنها والفساد الذي يحيط بها فأحاطت بهـــا النكبات وسرت الإشاعات الكاذبة الملفقة في نفوس بعض المقربين منها فابتعدوا

عنها وحاكوا ضدها المؤامرات، وبعد انهزام جيشها أخذت أسيرة إلى روما. وبعد ذلك أعادوها ذليلة إلى بلدتها لعلمهم بأن العرب لن يتركوها. لهذا عاشت في عزلة حتى ماتت وهذه الأحداث وقعت في الفترة من سنة ٢٨٠م إلى سنة ٢٨٥م.

إن من يقرأ هذه القصة. ثم يقرأ قصة "بلقيس" ملكة سبأ وهي الأخرى عربية. يجد الفرق شاسعًا. لقد بنت بلقيس السد الذي يحجز مياه الأمطار لينتفع به في ري الأرض وهذا من تفكيرها. ورفعت بنيان قصر غمدان وكانت حاكمة عاقلة. ذكرها القرآن الكريم وبين لنا حكمتها وعدم استبدادها بالرأي. وأنها كانت حكيمة لبيبة. ولهذا ترى أن حياة المرأتين أشبه بأساطير الأولين وقصص ألف ليلة وليلة. لكن التاريخ ذكرهما وسجل حياتهما بأحرف من نور. ويكفي حديث القرآن الكريم عن بلقيس ملكة اليمن في حقبة من أزهى تاريخ هذه المرأة – ولهذا المجد العظيم نسيهما كتاب قصص السينما والمسرح لأنهما تلاميذ لأعداء العرب فكيف يكتبون عن أصحاب هذا التاريخ العظيم.

بُعد نظرها

المرأة العربية عاشت في بيئة اجتماعية رجالها من أشد الأمم بأسًا. ومع هذا فقد أحلها الرجل من نفسه أسمى المواطن، لعلمه بأن المرأة إذا أهدرت كرامتها وسلبت نفسها، حرمت نصيبها من الوجود، ووسمت بوسام الذل والهوان، وبهذا لا تكون أبدًا امرأة فاضلة. ولا تلد الأبطال المغاوير. وبالتالي لا تعبر عن أمة فاضلة: لأن المرأة التي استشعرت المهانة في نفسها ومن أهلها. تهون عليها نفسها. ومن هانت عليها نفسها لا يمتنع عن مذلة. ولا يترفع عن منقصة. ولا كرامة له. لكن المرأة العربية نشأت ونشأ معها نصيبها من عزة

الجانب والتمتع بالمكانة الرفيعة حيث نشأت بين أم كريمة وأب فاضـــل. وقــد أحلها أبواها موطن الرعاية، والتربية والتوجيه. وزودتها أمها بزاد مـــن الأدب والنصائح والفضائل ونمت فيها الأخلاق، وحرصت على توجيهها إلـــى الأدب الاجتماعي مع مراعاة العرف السائد في المنطقة، والغرض من ذلك أن يكـــون عندها سعة فكر، وبُعد نظر متسمة بالذكاء، وأن يكون ذكاؤها تراثًا لأبنائها ولك أن تسأل – من أي جامعة تخرجن، وفي أي مدرسة تربين. المدرسة والجامعة خيمة تربين فيها. لاكهرباء ولاماء. ولامكتب ولاكراسي. وفي أحضان الطبيعة نشأن – لكن المربي – الأم التي لم تتعلم فك الخط ولا تقرأ وليس عنـــدها أي وسيلة من وسائل الإعلام. لهذا ذكروا أن امرئ القيس الكندي آلى "أي حلـــف" أن لا يتزوج بامرأة حتى يسألها عن ثمانية، وأربعة، وثنتين. فكان كلما خطب امرأة سألها. فتقول "١٤" أربعة عشر. فبينما هو يسير في جوف الليـــل. قابلـــه رجل معه ابنته كأنها البدر ليلة تمامه فأعجبه حسنها وشده إليها جمالها. فقـــال لها. يا جارية. ما ثمانية وأربعة وثنتان؟ فقالت. أما الثمانية فأطباء الكلبـــة[٢٠]. وأما أربعة فأخلاف الناقة. وأما الاثنتان. فثديا المرأة. فخطبهـــا إلـــى أبيهـــا. فاشترطت هي أن تسأله ليلة بنائه بها عن ثلاثة خصال فوافق. ورضى أبوهـــا بالخطبة على أن يسوق إليها "مهرًا" مائة من الإبل. فلما كان اليوم المتفق عليه استاق الإبل ومعه عبد له. وفي الطريق جلس امرؤ القيس علـــى شـــفير بئـــر يشرب فدفعه العبد في البئر وتركه ليلقى حتفه وساق الإبل وانطلق بها وذهـــب إلى عشيرة الفتاة. فلما رأته قالت والله ما أدري أهو خطيبي أم لا؟ ولكن أنحروا له جذورًا وأطعموه من كرشها وذنبها. ثم قالت لهم. افرشوا له بـــين الفـــرث والدم.. وهي تريد بذلك أن تختبره.هل هو أصيل حـــر أم عبـــد – لأن الحـــر الأصيل ينفر من ذلك أما العبد – فكل هذا عنده ليس فيه شئ وهذا يدل علـــى

---

(٢٠) الأطباء هي حلمات ضرع الحيوان مثلها الأخلاف للبهائم مثلها الأثداء للمرأة.

فطنتها وذكائها وقام العبد فأكل ونام فلما أصبح قالت لقومها إن هذا عبد فعليكم به فشدوا أيديكم عليه فأمسكوا به وربطوه وقد عرفت أنه عبد لأنه أكل من الكرش وقبل النوم بين الفرث والدم. ففهمت أنه ليس أصيلاً كريمًا ولذلك قبل الدنية في النوم. والأكل. وهذا دليل على أنه عبد وليس بسيد. وجاء قوم من المارين على البئر لأخذ الماء فاستخرجوا امرئ القيس. فرجع إلى قبيلته واستاق مائة من الإبل وقصد خطيبته فلما رأته قالت والله ما أدري. هل هو خطيبي أم لا؟ ولكن انحروا له جذورًا فاطعموه من كرشها وذنبها. فلما أتوا بهما قال. وأين الكبد والسنام؟ وهذا أشرف شيء في الذبيحة يقدم للملوك والأشراف وأبى أن يأكل. ثم قالت لقومها. اسقوه لبنًا حامضًا. فأباه. وقال أين الصريف والرئيبة[٢١]. فقالت إفرشوا له بين الفرث والدم فأبى أن ينام. وقال افرشوا لي فوق التعلة الحمراء [٢٢] وأضربوا عليها خباء ثم أرسلت إليه. أقبل لأسألك في المسائل الثلاث فلما حضر سألته – مم تختلج شفتاك؟ قال – لشربي المشعشعات[٢٣]. قالت فمم يختلج كشحاك؟ قال. للبس الحبرات. قالت. فمم يختلج فخذاك؟ قال لركض المطهمات[٢٤]. قالت هذا زوجي أما الأول فهو العبد فاقتلوه[٢٥]. هذه هي المرأة العربية التي كانت موضع احترام الرجل العربي وفخره. ومن هنا تمتعت بقسط من الحرية الشخصية خاصة في مسألة الخطبة والزواج، فقد كان لها حق القبول والرفض. وشبيه بهذا ما حَدَّث به صاحب مجمع الأمثال. من أن رجلاً من دهاة العرب وعقلائهم يسمى "شنا" أقسم أن

---

(٢١) اللبن الذي يحلب على لبن رائب

(٢٢) بجوار مجرى المياه

(٢٣) رعشة في شفتيه بسبب شربه الخمر الممزوج بالماء.

(٢٤) أي لركوب الخيل.

(٢٥) الأغاني ج٨

يطوف في العرب حتى يجد امرأة لها عقل كعقله يتزوجها. فبينما هو يسير يومًا إذ وافقه رجل في الطريق.. وهما يسيران سأله شن أين تريد يا رجل؟ فقال موضع كذا، وكان هو المكان الذي يقصده شن فرافقه. حتى إذا كانا في الطريق سأله شن. أتحملني أم أحملك؟ فقال له الرجل يا جاهل. أنا راكب وأنت راكب. فكيف أحملك أم تحملني؟ فسكت شن حتى قربا من القرية التي يقصدانها. فإذا بزرع آن أوان حصاده. فقال شن. أترى هذا الزرع أُكل أم لا؟ فقال الرجل. يا جاهل نبتًا لم يحصد فتقول أكل أم لا؟ فسكت عنه شن. حتى إذا دخل القرية لقيتهما جنازة فقال شن. أترى صاحب هذا النعش حيًا أم ميتًا؟ فقال الرجل. ما رأيت أجهل منك. ترى جنازة وتسأل – أميت صاحبها أم حي؟ فسكت شن وأراد مفارقته لكن الرجل أصر على أن يصاحبه إلى بيته استضافة.. كان للرجل الذي رافق شنا ابنة يقال لها "طبقة" فدخل عليها أبوها وأخبرها بأن ضيفًا يرافقه وطلب إعداد طعام له وشكا إليها جهله. وحدث ابنته بحديث شن. فقالت يا أبتي ما هذا بجاهل. أما قوله. أتحملني أم أحملك؟ فأراد. أتحدثني أم أحدثك حتى نقطع الطريق. وأما قوله. أترى هذا الزرع أُكل أم لا؟ أراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا؟ وأما قوله في الجنازة. أحي صاحبها أم ميت؟ أراد هل ترك عقبًا وأولادًا يذكر بهم أم لا؟ فخرج الرجل إلى شن فحادثه ساعة. ثم قال له. أتحب أن أفسر لك ما سألتني عنه؟ فقال. نعم. ففسره له. فقال شن. ما هذا من عندك؟ فأخبرني من صاحبه؟ قال. ابنة لي. فخطبها شن فزوجه إياها. ثم حملها إلى قبيلته. فلما رأوها قالوا "وافق شن طبقة" فذهبت مثلاً[٢٦] لقد كانت المرأة العربية. الوتر الحساس في قلب الرجل العربي. فهي إلهامه. وسبب غضبه. وما تمجيد الشعراء لها مفاخرين بحمايتها إلا مظهر يدل على مكانتها. فلم تكن بالشكل الممتهن الذي يصورها به بعض المؤرخين. ودليلنا على ذلك المعلقات

([٢٦]) مجمع الأمثال.

في جوف الكعبة من روائع الشعر الجاهلي الذي لا يخلو من الإشـــادة بـــالمرأة العربية. والغزل بها. ومدحها لإرضائها. ومن ذلك قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكري حبيب ومنـزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ثم يقول:

أفـاطم مهـلا بعــد هــذا التــدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

ثم يقول:

أغــرك مــني أن حبــك قــاتلي وإنك مهمـا تـأمري القلـب يفعـل

وأحيل القارئ للمعلقات السبع ليرى ما تمتعت به المرأة فـــي مجتمـــع العرب لأن الشعر هو سجل تاريخهم والمعلقات هي من روائع الشعر ولا تخلو من الإشادة بالمرأة والغزل بها. والمدح والفخر بها لإرضائها مع الحفاظ علـــى كرامتها – وعدم امتهانها – وفرق بين ما نسمعه في هذه الأيـــام حتـــى فـــي الأغاني خاصة المصورة "كليب" ناهيك عن التمثيليـــات والســـينما – ولا هـــم للرجل إلا المرأة يتخذها لمتعته – ويهينها ويجعلها سلعة رابحة رخيصة مبتذلة – ونسى من يفعلون ذلك بأنهم يسيئون إلينا ويشوهون تاريخنا وتقاليدنا والعرف السائد بيننا.

معالم شخصية المرأة

كان الرجل العربي ينشد في المرأة معالم خاصة في شخصيتها وصفات تميزها في عقلها. وأخلاق تعلى من شأنها وترفع قدرها منها: العفة – الفصاحة – الحياء – الشجاعة – ويتأتى ذلك من حسن تربية الأم لأولادها وعنايتها بهم – لقد أصبح اختيار الأمهات أول ما يفكر فيه الرجل العربي إذا ابتغى النجابة لأبنائه. لأن الأولاد هم ثروة الرجل العربي ومبعث فخره لهذا كان أعظم شيء يفتخر به العربي أمام أبنائه إذا كبروا هو حسن اختياره لأم أبنائه: فقد روى أن السائح الأزدي لقي النبي إلياس عليه السلام في سياحته فأمره النبي أن يتزوج ونهاه عن التبتل: ثم قال له. لا تتزوج أربعًا:

١- **المختلعة:** وهي التي دائمًا تطلب الطلاق من زوجها.
٢- **المبارية:** وهي التي تتباهى بغيرها "كما يقولون في المثل (القرعة تتباهى بشعر بنت أختها) وتفاخر بأسباب الدنيا.
٣- **الناشز:** وهي التي تتعالى على زوجها وتباهى بأهلها وتحط من شأن زوجها وأهله.
٤- **العاهرة:** وهي التي لا ترد يد لامس. وتعرف باتخاذ الخليل والخدن وتردد دا صاحبي يزورني في أي وقت.

لقد كان حسن اختيار الرجل لزوجته يتم بعد حديث بينهما أمام الأهل. هو يخطب فيها كرم المنبت. وحسن السمعة. وجلال الخلال وسيرة أمها في بيت أبيها وبيت زوجها. وهي تختاره لعلو همته. وحسن تصرفه. وشرف عائلته. وكان أبوها الذي أحلها مكانة سامية في نفسه وأحاطها بكل أنواع الرعاية والإكرام يبارك هذه الخطى. وكانت أمها تزودها بزاد من الأدب

والفضائل. فليس من الحق أن تضيع مثل تلك الفتاة عند زوج مستهتر ناقص العقل لا يعرف قدر الفتاة التي ارتبط بها ولا العشيرة التي أصبح ينتسب إليها. إن المرأة زهرة طيبة الغرس. كريمة المنبت. وهي تخرج من دار عز أبيها إلى دار مجد زوجها. لقد كان شباب العرب يخطبون إلى غير عشيرتهم. وحجتهم في ذلك أن الغرائب من النساء أولد للنجباء من الأبناء. فأما بنات العم في زعمهم يلدن ضعاف الأجسام. ولهذا كان من أمثالهم "اغتربوا ولا تضووا" أي تزوجوا الغرائب ليكن نسلكم قويًا. ولا تتزوجوا بنات العم ولا الخال حتى لا ينكشفن عن أولاد ضعاف بسبب الوراثة النفسية والجسدية بين أبناء القبيلة الواحدة.

إن الرجولة العربية والشهامة والكرم والمروءة. وما يتحلى به الرجل من خلق نبيل وأدب عظيم وحسن عشرة مع الناس- ناتج هذا من حسن تربية المرأة التي تحلت بالكثير من الصفات الحميدة وكانت هي تغرس كل أنواع الفضائل في أولادها من ذلك – المروءة – النجدة – الشجاعة – الحياء – الصدق – حسن العلاقات الاجتماعية. علاوة على طهارة نفسها وما تتمتع به من عزة الجانب وعفة وحسن سمعة وما تحرص عليه من نجابة الأبناء. ولقد كان من بين نساء العرب في الجاهلية من اشتهرن بإصابة الرأي ورجاحة العقل والفصل في الخصومات. منهن "هاجر بنت لقمان" كانت العرب تتحاكم إليها وعندها فصل الخطاب فيما شجر بين القوم[٢٧] وعلاوة على ذلك فإن المرأة العربية تقوم بكل ما يتطلبه البيت من عمل – الاهتمام بالمنزل – نظافته – ترتيبه – تنظيمه – الطهي. مشاركة الزوج في بعض الأعمال – رعاية الأولاد. وهناك من انصرفن إلى بعض الأعمال. كصناعة الرماح – فقد برع في ذلك بعض النساء. واشتهر منهن "ردينة" وإليها تنسب الرماح فيقولون "الرماح

([٢٧]) بلوغ الأرب للألوسي ج١.

الردينية" وهي من أحسن الرماح وأقواها وأدقها[٢٨] ومن النساء من اشتغلن بالتجارة وكن سيدات أعمال على أعلى درجات الخبرة الاجتماعية. كهند زوجة أبي سفيان والسيدة الجليلة الفاضلة "خديجة بنت خويلد" فلقد كانت السيدة خديجة ذات شرف ومال كثير وتجارة واسعة وكانت تبعث بتجارتها مع الرجال الذين تستأجرهم وتدفع إليهم المال للمضاربة[٢٩] كما كان بعضهن يقمن بالغزل وصناعة بعض الملبوسات والبعض تذبح الحيوانات وتقوم بدبغ الجلود وغير ذلك من الأعمال والصناعات والتجارة. كما كان هناك من تقوم بالغناء والضرب على المعازف وكان هذا النوع قاصرًا على "القيان" وكن يجلبن من فارس والروم. أما العرب فكانت المرأة العربية لا تعمل أي عمل فيه امتهان لكرامتها.

إن نساء العرب على ما بينهن من تباين في العمل. فهناك عمل اشتركن فيه جميعًا. هو لفت أنظار الرجال وهز لمشاعرهم واقتياد قلوبهم بما لهن من نفاذ في الري وسعة الحيلة. وما يمتلكنه من قوة الأسلوب. فكنت ترى. إذا عصفت عاصفة الشر برؤوس الرجال واستولت على نفوسهم العصبية وغلى الدم في عروقهم. هدأت المرأة نفوسهم. وبردت دماءهم وسكنت ثائرتهم.

فإذا رماهم أحد بشر أو أغارت بعض القبائل عليهم. هيجن أشجانهم وابتعثن الحمية فيهم. لأن العرب رواد غارات. وكان الرجل العربي ينزل ساحة القتال وهو لا يدري أوقع الموت عليه أو وقع هو على الموت. على أن خيال زوجته أو ابنته في خياله وهو يخشى أن يصيبها بعده الحاجة فتذل نفسها أو تمتهن كرامتها فيتمسك بالحياة ويقاتل قتال الأبطال. وفي ذلك يقول قائلهم:

---

(٢٨) يراجع لسان العرب ج ١٣.

(٢٩) الطبقات الكبرى لابن سعد

لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لي مضرب واسع ... في الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشي على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عيني عن الغمض

إن المرأة العربية نشأت بين قوم غلبت عليهم حدة الطبع ودقة الحس. وكان للمرأة في نفوسهم أدق أوتار الحس. وعلامات الشرف الذي يحافظ عليه حتى لا ينثلم – لأن المرأة مثار عاطفته. ومهاج غضبه. فهي نور الوجود في ناظريه ومثار حميتهم. ثم هي موطن ثقة الأب. وفخر الابن. وعز العشيرة. ولهذا ترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم افتخر بأمهاته في الجاهلية فقال "أنا ابن العواتك من سليم" والعواتك أسماء لسيدات فضليات وهن ثلاثة:

١- عاتكة بنت هلال بن فالج بن ذكوان بن عبد مناف بن قصي.

٢- وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالح بن هاشم بن عبد مناف.

٣- وعاتكة بنت قصي بن مرة بن هلال أم وهب بن عبد مناف جد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن بعض الملوك كان ينسب إلى أمه "كعمرو بن هند"وملوك المناذرة جميعًا نسبوا إلى أمهاتهم "ماء السماء" وهي "ماوية بنت عوف بن جشم ملكة العراق وأم ملوكها وإليها ينتهي جمال الجلال وجلال الجمال. وعنها ورث ملوك العراق سناء الشرف وحسن السمعة وبها كان العرب يعتزون. وباسمها يقسمون. وهل بعد ذلك كلام لأحد. ونحن لا نكذب على التاريخ. وإنما ننادي بأعلى أصواتنا "هؤم اقرؤا كتابية" والتاريخ أكبر شاهد ومحال أن يكذب التاريخ أو يحابي أحدًا من الناس.

كانت المرأة العربية ومازالت هي عنوان على بيت يضم في جنباته الشرف والطهر والعفة والحصانة – ففي بيت المرأة العربية تجدها قد هيأته بلمسات جمالية من حيث التنسيق والترتيب. ففي كل ركن من أركانه لمسات جمالية تستريح العين عند رؤيتها وتهدأ النفس. وفي كل يوم تنتقل المرأة العربية من طور إلى طور وهي تحاول أن تبلغ غاية ما أعدت له. وتبرز خصائصها الإنسانية. من كمال النفس. وشرف العاطفة حيث لها من التضحية في أداء الواجب والقيام به ما يقف دونه الرجل عاني الوجه نادي الجبين لأن المرأة ليست بالخلق الضعيف أبدًا. فلقد تحملت عنت الدهر وتجبر الأب. وغرور الزوج. ومحاولة أكل حقها من بعض الأخوة إلى تعب الحمل وألم المخاض. وسهر الليالي رعاية لأولادها وهي راضية النفس. مطمئنة القلب. هادئة الأعصاب سعيدة بما تقدم لأولادها لقد احتملت ذلك منذ فجر التاريخ ومن احتمل هذا لا يكون أبدًا ضعيفًا. وإذا كانت المرأة ليست بالخلق الضعيف. ولا هي حقيرة في نفسها ولا ممتهنة اجتماعيًا. فإنها دعامة هذا الكون الذي يظل ناهضًا ما نهضت به المرأة ومعها عفتها وطهارتها فإذا هي ضعفت أو وهنت وتخاذلت عن أداء الواجب عليها وفرطت في عفتها تهاوت عمد المجتمع وتصدعت جوانبه واندكت أعمدته. لأن المرأة أوكل الله إليها ابتناء هذا الكون وإنشاء الأمم وذلك بتربية الأبناء ورعايتهم وتعليمهم وغرس الفضيلة والأدب والحياء في طبعهم وطبائعهم لأنها هي مصدر الدعامة القوية في بنيان المجتمع. فإن هي ضعفت في أخلاقها – أو وهنت قوتها – فأقم على الأمة مأتمًا وعويلاً. إن المرأة هي التي تضخ دمها النقي الدافئ متدفقًا في شرايين أبنائها ليتمسكوا بالفضائل وإن عصفت بهم الدنيا وتبدل الحال. فلا يفرطون في الفضائل والقيم ولذلك كان من أمثالهم "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها". ثم هي تملك من اسلوب التأسية ما تواسي رجلها إذا ألمت به المصائب وأحاطت به المشاكل فلها

أسلوبها الذي يكون نجدة للمكروب. وغياثًا للمنكوب. لأن قولها أنفذ في قلب الرجل من أي قول آخر . فعباراتها ترد على الرجل قوته. وتحيي عزيمته وكلماتها تشجعه . وليس أدل على ذلك من قول السيدة الفاضلة/ خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها- للنبي العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو الشخصية النبيلة وله في نفسه ثقة لأن قومه لقبوه بالصادق الأمين. وكان يعيش بين قومه يتمتع بقدر كبير من احترامهم لأنه اجتماعي يسهم بعطائه في كل شيء يتطلب المساهمة والمساعدة وكان يتطوع في العمل الاجتماعي. لذلك عندما هبط سيدنا جبريل عليه السلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – وكان ذلك لأول مرة – عندئذ استولى على النبي العظيم الفزع والرعب من رؤية الروح الأمين. ولم يجد النبي صلى الله عليه وسلم من يبثه ما يشعر به من خوف إلا الزوجة الوفية الطاهرة /خديجة رضي الله عنها فلما سمعت منه. قالت وبكل ثقة – كلمات تنم عن بُعد النظر وحصافة الرأي وسعة الأفق "لماذا تخاف؟؟ – والله لن يخزيك الله أبدًا – ثم تعلل هذا بقولها – إنك لتصل الرحم وتحمل الكل – وتكسب المعدوم – وتُعين على نوائب الدهر – ذلك قول المرأة العربية لزوجها. فهل هناك في نساء العالم الآن. وخاصة من تعلمن في الجامعات وحصلن على أعلى الشهادات وجلسن أمام الكمبيوتر وجهاز التلفاز أروني ماذا استفادت من ذلك, علمًا بأن نسبة الطلاق تزيد عن ٤٥% وذلك بسوء تصرف المرأة وحتى يعلم الناس الفرق بين المرأة العربية والتي عاشت على الفطرة في الصحراء والخيام وليس عندها كهرباء ولا ماء ومع ذلك تفاعلت مع المجتمع وأنجبت وربت من بنوا حضارة وعاشوا بالقيم الأخلاقية وقارنوا بينها وبين غيرها في العالم أجمع لتعرفوا الفرق.

الأم العربية

من رحمة الله سبحانه أنه جعل الزواج بين الرجل والمرأة من أعظم نعمه سبحانه على عباده فيقول مبيناً ذلك ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٣٠].

لذا ندرك أن الله سبحانه ما أسبغ على إمرئ نعمة أعظم أثرًا. ولا أجلب للسعادة والسرور ونعيم الحياة من زوجة صالحة. إن نظر إليها الرجل سرته. وإن أمرها أطاعته. وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله – إن الزوجة الصالحة يستمد منها الرجل عزيمته. كما أنها عدته في الشدة ومستشارته في حل المشاكل وأقواهم شكيمة. لذلك نشأت وعندها سمو النفس مما جعلها أدق حسًا وأرسخ من غيرها في المكرمات قدمًا. وأرفع من غيرها شأنًا. لذلك أحلها الرجل العربي أسمى المواطن من نفسه. فلقد نشأت بين قومها ونشأ معها نصيبها من عزة الجانب. لفرط ما جبلت عليه المرأة منذ ولادتها ونشأتها على صفاء الفطرة وسماحة الخلق– وحسن التأديب. لقد اشتملت الزوجة العربية على خير ما اشتملت عليه كرام النساء. من رعاية حق الزوج. والبر به والإخلاص له وحماية شرفه. وإذا كان الزوج يموت دفاعًا عن زوجته. فإن المرأة كذلك، لذلك كان من أمثالهن "المنية ولا الدنية كانت المرأة تردد (تموت الحرة ولا تأكل بثدييها" أي أن المرأة العربية تموت ولا تفرط في شرفها. حفاظًا على كرامة الزوج وشرف أبيها. ورعاية حق أولادها، فقد

---

(٣٠) سورة الروم ٢١

ذكروا – أن فاطمة بنت الخرشب. لما أسرها "حمل بن بدر" رمت نفسها من الهودج منكسة فماتت"[٣١] لأنه سيتخذها أَمَة وسيلحق أهلها وأولادها عار وذل للأبد ففضلت الموت على الهوان. إن المرأة التي تفرط في شرفها توسم بوسام من الذل. ولا تكون امرأة فاضلة. ولا تنكشف عن أمة فاضلة. ولاتؤتمن على رعاية أسرة أو تربية أولاد تلك هي المرأة العربية في ماضي عهدها. وبعيد أمدها. والتي تم تهيئتها وإعدادها رعاية لخدمة زوجها ووفاء له, لا تعرف الكذب ولا ترتضيه. تبعد عن الزور وتلعن من يمارسه. لا تقر الخديعة ولا الخيانة مهما كان الثمن. وتعترف بأن هذه دنايا لا يمارسها إلا السفلة ممن لا أصل لهم ولا حسب. ومن تتخلق بشيء من هذا لا يعرفها أبوها ولا أمها فمثل هذه ضعيفة الإرادة وقد سلبت نفسها وقتلت الفضيلة بداخلها.وقطعت صلتها بالمجتمع وحرمت من الوجود الأدبي. لذلك لا تكون امرأة شريفة ولا فاضلة لا تؤتمن على البيت ولا تنهض بتربية أولاد – لأنها استشعرت المهانة ممن حولها لخستها وإهدار كرامتها ولأنها لا تترفع عن منقصة، لقد كان مرجع الرجل العربي عند اختيار زوجته إلى أصل القبيلة وشرفها وحسب وأصل الأب والأم. حتى يكون على بينة بمن يخطبها وسناء ذكر عائلتها وشرفهم – وليس يعيب الأسرة فقرًا أو قلة مال لأن الغنى غنى النفس. لهذا كان الرجل يطلب في زوجته شرف يملأ قلبها. وكرامة ترفع ذكرها. لذلك نزع (قيس بن زهير) سيد قبيلة عبس وبطلها – وذهب يخطب من بطون ربيعة وذهب إلى زعيم قبيلتهم (النمر بن قاسط) فقال له (نزعت إليكم غريبًا حزينًا فزوجوني امرأة أذلها الفقر. وأدبها الغنى لها حسب وجمال. فزوجوه على هيئة ما طلب فكانت آثر الناس عنده وأذهبهم لبلواه) [٣٢]. قيس بن زهير. كان معروفًا للنمر بن قاسط. لأن من

([٣١]) الأغاني ج١٦.

([٣٢]) العقد الفريد ج ٣.

يأتي لمن يخطب له فتاة لابد أن يكون معروف الهوية. والعائلة. والبلد. أما من يتزوج من فتاة لا يعرفه أهلها وأهله لا يعرفون عنها أي شيء فقد باعوا الفتاة رخيصة حتى ولو دفع لأهلها ملايين من الأموال فإن المال يفنى وتبقى الفتاة تعيسة ذليلة لأن أهلها أذلوها عند عائلة من تزوجته طول حياتها. وينعكس ما في نفسها من ذلك على أولادها – فلا تربية – ولا تعليم وإنما المصير إلى الشارع وهذا خطر كبير وتأخر للمجتمع الذي ينهار على من فيه بسبب بيع الفتاة رخيصة دون معرفة بالفتى وأهله.

رأي الفتاة

كان الرجل العربي لا يكره ابنته على عريس يقدمه. وإنما يترك لها الأمر في الاختيار فمرجع الرأي في أمر زواجها إليها هي. وليس لأهلها أن يزفوها قهرًا إلى رجل لا ترغب فيه مهما كان الأمر. فقد رفضت الخنساء بنت عمرو بن الشريد. أن تزف إلى "دريد بن الصمة" وهو سيد قومه وفارسهم وشاعرهم والسبب ما كان بينهما من تفاوت السن ما يكدر العيشة. فقد كان أكبر منها بكثير. كذلك لم يشفع له أنه سيد قومه وكبيرهم وصاحب الرأي فيهم.

وإذا ذكر للفتاة خطيبها. ووصف لها ما يهجنه. ونفرت منه. ونبى طبعها عنه فلها أن ترد خطبته. فقد ذكر أن "الحارث بن سليل الأسدي" زار "علقمة بن خصفه الطائي" وكلاهما سيد قومه. وكانا صديقين. وكان لعلقمه – فتاة رائعة الحسن ظاهرة الجمال معتدلة القوام فرآها الحارث فخطبها من أبيها. فقال – علقمة للحارث – أنت كفء كريم – يقبل منك الصفو ويؤخذ منك العفو. فأقم ننظر في أمرك ودخل على أمها. فقال لها. إن الحارث بن سليل سيد قومه حسبًا ونسباً وأصلاً وأكرم بيت في قومه. جاء خاطبًا (الزباء) فلا

ينصرف إلا بحاجته – فشاوريها فجلست المرأة مع ابنتها وأنشأت تشاورها – وكان الحارث شيخًا كبيراً في السن متقدمًا في العمر. فكان أول ما تكلمت به معها أن سألتها. أي الرجال أحب إليك – الكهل الجحجاح – يعنى السيد الغني القادر على تلبية طلباتك المالية – الواصل المناح – كثير الهدايا والعطايا – أم الفقير الأصيل الوضاح يعنى المشرق المتطلع إلى الحياة بأمل – القوى الجميل – وجلسا يتجاذبان الحديث ودار حوار في أيهما أحسن للفتاة وأولى بها وكل يؤثر رأيه. ويضرب الأمثال على نفاذ رأيه فكانت الأم قوية في حجتها فنزلت البنت على رأيها – فهل هناك مساحة من الحرية أبعد من هذا[٣٣]. إن الأم فضلت الشاب الفقير على الكهل الغني الذي لا يحصى ماله حتى تسعد ابنتها بشبابها في ظل شاب يقاسمها حلو الحياة ومرها.

كذلك ما نكر من أن "زيد الخيل" وهو بطل من أبطال العرب وسيد من سادات قبيلة طئ وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم وقال فيه "ما وصف إلى أحد من العرب إلا رأيته دون ما وصف لي إلا زيد الخيل فقد رأيته فوق ما وصف لي وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم "زيد الخير" زيد هذا وصديقه "أوس بن حارثة" وحاتم بن عبد الله "وهم من طئ – ذهبوا إلى "مادية إبنة عفرز" إحدى ملكات الحيرة يخطبونها فقالت لهم كل واحد يقدم نفسه لي. فقال "زيد" أنا زيد الخيل تفخر بي قبيلتي طئ على العرب. ولي من كل مرباع غنيمة. وغزوت ثلاثًا وسبعين غزاة. لم تثكل طائية فيها ولدها. ولم تفجع فيها بحليلها. ولم أخب[٣٤] شيء منها. ثم أني لم أرد سائلاً. ولم ألاح جاهلاً[٣٥]. يعني لم يكن بينه وبين سفيه مشادة في قول ولا إفراط في جدل – ولم أنطق

---

(٣٣) مجمع الأمثال للميداني ج١.

(٣٤) لم يختلس ولم يسرق.

(٣٥) الجدل والمشادة في الكلام.

باطلاً – ولم أبت على دغم – يعني لم أفرط في ثأر ولم اقر القهر لأي شخص. ولم أحقد على أحد.

وقال أوس. يقدم نفسه – أول ما أخذت من لحيتي قامت سعدي فالتقطت كل شعرة سقطت منها فأعتقت بها نسمة من معد. ثم قال "حاتم" يقدم نفسه – أنهبت مالي ثلاث عشر مرة – وأحلت لي طئ أموالها. أخذ ما شئت وأدع ما شئت – فقالت لهم.هاتوا بذلك شعرًا فتنازعوا القول – شعرا – فلما انتهوا قالت. أما أنت يا زيد فقد وترت العرب – فمقام الحرة معك قليل. وأما أنت يا أوس فرجل ذو ضرائر والدخول عليهن شديد. وأما أنت يا حاتم. فرجل كريم المنتسب – قريب المنصب وقد رضيت بك وتزوجتك. فتزوجها"[٣٦].

إن المرأة تختار لنفسها وهي في المكانة العالية من الشرف والمجد من قومها. وكانت تختار صاحب الخلق الكريم. الأمين العفيف. تسبقه سمعته الطيبة. في الشجاعة والإقدام وحماية الوطن والدفاع عن العشيرة. من ذلك أن قبيلة بني كنانة توقعت غارة عليها يفاجؤها به بعض القبائل من حولها. فخرجت إحدى كرائم الحي وجلست بين صويحباتها ثم دعت وليدة من ولائدها. وقالت: إدعي لي فلانًا: فدعت لها رجلاً من الحي فقالت له – إن نفسي تحدثني أن خيلاً سوف تُغير على الحي فكيف أنت إن زوجتك نفسي؟ قال أفعل وأفعل. وجعل يطنب في وصف نفسه ويفيض فقالت له انصرف حتى أرى رأيي.

وأقبلت على صويحباتها فقالت لهن ليس عنده غناء. ثم دعت رجلاً آخر. فخاطبته بمثل ما خاطبت به الأول وأجابها بمثل جوابه. فصرفته. ثم أرسلت تدعو "ربيعة بن مكرم" فقالت له مثل قولها للرجلين قبله. فقال لها. إن عجز العجز أن يصف الرجل نفسه. ولكني إن لقيت أعذرت. وحسب المرء

---

(٣٦) الاغاني ج١١ والأمثال لأبي هلال.

غناء أن يعذر. يعني أن الرجل يدافع العدو ولا يقصر ولا يتهاون – فقالت له.. قد زوجتك نفسي. فأحضر غدًا مجلس الحي ليعلموا ذلك. فلما كان الغد تزوجها علنًا وخرج من عندها. ودافع عن قومه وصال وجال ورد كيد المعتدين[٣٧].

إن الفتاة التي نشأت بين أم كريمة. وأب عظيم. ليس عجبًا أن تختار الزوج الكفء الكريم حتى يحلها ما أحلها أبوها فتكون موطن الرعاية والإكرام. وليس من الإنصاف أبدًا أن تتزوج الفتاة برجل يضيعها ويهمل شأنها ويحط من كرامتها ويلطم خدها ولا يرعي حدود الأدب معها.

(٣٧) العقد الفريد ج٣.

العروسة العربية

الفتاة العربية يعتز قومها بها وتعتز هي بنفسها. لذلك كانوا يختـــارون زوجها شخصية كريمة مهذبة له عائلة ينتمي إليها وقبيلة ينتسب إليها ليكون له كبير يرجع إليه إذا اقتضى الأمر، ومن أمثالهم"اللي ملوش كبير ينتســـب إلـــى كبير" وذلك حتى يحل الرجل من يتزوج بها من نفسه أسمى المواطن. ويكـــون لديه القدرة على حمايتها ويبذل دمه دفاعًا عنهـــا. ويتجـــاذب معهـــا الـــرأي. ويتعاونان على اجتياز مشاكل الحياة والتغلب على مصاعبها. لأن العربي رفيق بزوجته عطوف عليها. لذلك لم تطو صفحة من التاريخ على امرأة بلـــغ مـــن الضن بها والإيثار. وبذل المهج رخيصة في سبيلها وحمايتها والدفاع عنها مـــا بلغ بالمرأة العربية لذلك كان يوم عرسها – أعم صفاء – وأكثر ضياء. وأجمع للبهجة والسعادة ففي هذا اليوم يجتمع فتيان القبيلة. يركبون ويتســـابقون علـــى ظهور الخيل. يفرحون ويمرحون يأكلون ويشربون ويطربون. ويزينون جدران البيوت بأقمشة عليها النقوش الجميلة وصور مزينة – وكـــان للنســـاء مجلـــس خاص بهن مفروش بالنمارق المصفوفة. والزرابي المبثوثة وتقوم الفتيات بهز أجسادهن. مرددين الأغاني. ولكن بما عف وظرف من ضروب اللهو وفنـــون المرح. فالأهل كلهم أخذوا زينتهم. واجتمع القاصي والداني. في ساحة حيهم – يتقدم كل هؤلاء رجال القبيلة الكبار أهل العروس والذين يحلون محلاً كريمًـــا. فإذا اجتمع أهل العريس في حي العروسة واختلط رجالها فـــي مـــودة ومحبـــة وفرح وبهجة واطمأن المجلس بالقوم بدأ كبير قبيلة العروس يتكلم بكلام يشـــبه الخطبة. يكشف ما اتفق عليه الطرفان ويذكر المهر الذي ارتضوه – عاجلـــه – وآجله – فيرد ولي العروسة بكلمة يضمنها الرضا بالقوم أصهارًا ويصـــاحبهم زوجًا لابنته وصهرًا لهم. حتى إذا انتهيا وتم الرضا والقبول. نحرت الـــذبائح.

ومدت الموائد. وارتفعت أصوات النساء بالزغاريد والغناء مع التصفيق. وهذه الوليمة يدعى إليها الجميع القريب والغريب والغني والفقير والبعيد – وصيغة العقد أن يقف الخاطب على مكان عال ويقول"خطب" فيرد ولي أمر العروس ويقول "نكح" ويسمي المهر[٣٨] وهو صلة للفتاة وهدية لها يقدمها الخاطب لخطيبته تأخذ الفتاة هذه الهدية كاملة غير منقوصة لا سبيل لأحد عليها ولا يأخذ والدها – أو أهلها – أي شيء منه. والعرب كانوا يعتبرون أن من يأخذ من مهر ابنته أي شيء فهو شخص لئيم الطبع خسيس الأصل وكان بعض الآباء – وهم قلة – يطلبون من العريس هدية لهم وكان أعز ما يقدم للفتاة – الذهب السبيك – أو – الأنيق العشراء وقد يجمع الرجل بينهما – كل واحد يبذل على قدر ما رزق من نعمة العيش, وقد أمهر – عبد المطلب – جد النبي صلى الله عليه وسلم – زوجته فاطمة بنت عمرو – مائة ناقة – ومائة رطل من الذهب – وربما صاد رجل ضبًا فيقدمه مهرًا لزوجته وكانت العروس تفرح بذلك وتعده إفراطًا في العطاء لأنها تخطب الرجل الذكي الشجاع الكريم المعروف بهمة عالية. مع علو نسبه وذيوع ذكره فقد ذكروا أن "لقيط بن زرارة" ذهب إلى "قيس بن خالد" ذي الجديم" وهو من هو – المشهور بكرمه. وأحد ملوك العرب. وأن لقيطا خطب إلى قيس ابنته – ودار بينهما حوار طال وقته. وفهم قيس أن هذا الفتى له قلب كبير. وعنده بُعد نظر. وسعة أفق وسريع الفهم وأن له نسبًا وحسبًا لكنه فقير – والفقر ليس عيبًا – ولقد زوجه ابنته لليلته. وقدم والد الفتاة إلى ابنته مهرها نيابة عنه فساق إلى ابنته مهرها, وحتى لا يحرج الخاطب وقد اختاره لأنه كفء كريم مهذب عفيف – وإنما أكرم ابنته – ورفع رأس خطيبها أمام أهل العروس[٣٩]. ولما سأله أحد أبنائه وقال له – ما حملك على هذا رد

---

(٣٨) أنساب العيون ج١.

(٣٩) جمهرة الأمثال.

قائلاً: "اخطب لابنتك ولا تخطب لولدك، وأنا أخطب لابنتي من يسعدها وأرفع رأسه أمام الناس هذا هو الفهم العظيم في حسن اختيار الزوج الكفء للبنت ليؤمن لها حياة السعادة والسرور. والعرب أسبق الناس في بناء الأسر من الشخصيات التي تتمتع بالخلق والأدب وحتى لا تقع ابنته تحت يد لئيم فاجر خسيس. ليس عنده مروءة. ولا عشيرة له – يلطم خدها ويسب أباها ويلعن أمها وهذا شيء يحطم المرأة ويذلها ويكسر أنفها، ولا يرضى أبوها بذلك أبدًا – لذلك كان اختيار الزوج يتم وفق معايير خُلُقية ترضي الرجل العربي وتجعله يطمئن على ابنته وسعادتها.

حديث البنات عن الزوج الذي تختاره

خرجت أربعة بنات في ليلة مقمرة فجلسن في روضة "حديقة" ندية. وكان الجو جميلاً فقالت إحداهن ما رأيت كالليلة جمالاً وسحرًا. ولا كهذه الروضة نضارة وبهاء فالخضرة تحيط بنا والهواء الطيب ذو الرائحة المنعشة يتحرك من حولنا فينعش نفوسنا. ثم أخذن في الحديث. فقالت إحداهن أي الرجال أفضل وما هي أحسن صفات الرجل الذي تقبله الفتاة الأصيلة زوجًا لها؟ قالت إحداهن خير الرجال – "الخطيّ الرضيّ غير الخطَال ولا التبّال" الخطال هو البخيل الذي يقتر على أهله ويعير أهله بما ينفق عليهم – والتبال – الشديد العداوة الذي يختلق المشاكل مع من يعرف ومن لا يعرف – قالت الثانية – خير الرجال. السيد الكريم ذو الحسب العميم والمجد القديم" وتعني بذلك أن عائلته معروفة بالطيبة والعمل وبناء المجد مع رعايتهم لأولادهم وأهليهم – قالت الثالثة – خير الرجال – السخي الوفي الرضي الذي لا يُعير الحرة ولا يتخذ الضرة" قالت الرابعة – وأين الأب في ذلك – أليست كل فتاة بأبيها معجبة" إن أبي كريم الأخلاق – صدوق عند التلاق والفائز في السباق – إن أبي يكرم

الجار. ولا يطفئ النار – وتعني بأن ناره لا تنطفئ لكثرة الضيوف – ولـذلك فهو – ينحر العشار بعد الحوار. ويحمل الأمور الكبار, فردت أخرى وقالت – أبي – عظيم الحظر. منيع الوتر. عظيم النفر يحمد منه الورد والصدر" وتعني أنه يشرف على الماء ويعود بعد أن يسقى للناس ويأتي لنا بما يكفينـا فقالـت أخرى – إن أبي صدوق اللسان – كثير الأعوان – يروي السنان عند الطعان – قالت الرابعة – إن أبي كريم النزال – منيف المقال – كثير النوال قليل السؤال. كريم الفعال "ثم قالت واحدة منهن – وما خير النساء؟ قالت إحداهن – الخرودة الودود الولود" وتعني بالخرودة – التي عندها حياء – خافضة الصوت. مغطية جسدها طويلة السكوت" قالت الثانية "خير النساء ذات الغناء وطيب الثناء وشدة الحياء" وقالت الثالثة – خير النساء السموع الجموع النفوع غير الممنوع وتعني – أنها التي تنفذ ما توجه إليه من عمل عظيم شريف بكل قوتها لتنفـع نفسـها وغيرها ولا تمنع خيرها عمن يحتاج إليها" قالت الرابعة خير النساء" الجامعـة لأهلها الوادعة الرافعة لا الواضعة، ثم اتفقن على أن يذهبن إلى كاهنة في الحي ليعرضن عليها هذه الأقوال. فذهبن إليها وعرضن عليها تلك الأقـوال فقالـت اسمعن "خير النساء المبقية على بعلها الصابرة على الضراء معـه مخافـة أن ترجع إلى أهلها مطلقة – فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها. فتلك الكريمة الكاملة – وأما خير الرجال فهو الجواد البطل إذا سأله الرجل ألقاه قليل العلـل كثير النقل "تعلى العطاء" ثم قالت – كل واحدة تتمنى أن تجد زوجها كأبيها لأن "كل فتاة بأبيها معجبة" وهذا يبين نفسية الفتاة وتعلقها بأبيها ونشر فضائله, هذه أحلام العذارى وحديث النفس عبرت كل فتاة بذلك عن نفسها.

أسعد يوم

ليس في حياة الشاب أو الفتاة أسعد من يوم الخِطْبة – فهو بدايـة يـوم الارتباط والاتفاق – وتحقيق الأمنية لكل طرف. فهو من الأيام المعدودة عنـد

العرب. هذا اليوم يعم فيه الصفاء- يتبارى فيه شباب العائلتين في ألعاب القوى وإظهار القدرة ويظهرون من براعتهم في اللعب بالعصى والسيوف ويركبون الخيول يرقصونها أو يتسابقون عليها - تكثر فيه الأضواء ويعم الجميع الفرح والسرور والبهجة, والبعض يأخذ في لعب الميسر وهو من أدوات لهوهم. ويشربون ويطربون. وتفرش البسط ويشد بعضها على الجدران وتكون مزينة بالنقوش والصور. وكان للنساء مجالس خاصة فمجلسهن على النمارق المصفوفة. تجلس النساء يتحدثن بحديث يتسم بالظرف مع عفة اللفظ ولهن من ضروب اللهو مع بعضهن ما يدخل السرور على قلوبهن كالرقص والتصفيق وغير ذلك مما يكون في مجلسهن الخاص.

أما العروس فإن أمها تزينها وتلبسها ملابس جميلة وتحليها بالذهب فإن لم يكن عندها ذهب يستعير أهلها من الجيران لتظهر أمام أهل العريس في أجمل زينة ولقد ذكروا أن "عتبة بن ربيعة" وهو من أهل الشرف العظيم بين قومه. استعار ذهبًا لابنته هند والتي تمت خطبتها إلى أبي سفيان. وقد استعار ذلك من أبي العقيق ورهن "عتبة" ولده "الوليد" عند أبي العقيق - وأقام الوليد شهرًا حتى رد أبوه الذهب موفورًا[٤٠] فإذا زينت الفتاة تسير في حشد من زميلاتها وبنات عمومتها وأخوالها وجيرانها حتى يصلن بها إلى فناء البيت الذي تنزل فيه والمكان المعد لها. وهناك ترقص الإماء ويغنين بمآثر قومها. وكل واحدة تقدم التهنئة للعروسة بقولها "باليمن والبركة على خير طائر" وبينما النساء يصفقن - والإماء يرقصن تدخل الأم مع ابنتها إلى الحجرة المعدة لها- وتختلي بها, وذلك ليلة البناء - وتغلق الباب عليهما وتقدم لها هذه النصيحة فتقول لها أي بنية -إن الوصية لو تركت لفضل أدب - تركت لذلك منك. ولكنها تذكرة للغافل. ومعونة للعاقل. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى

---

(٤٠) طبقات ابن سعد ج٧.

أبويها وشدة حاجتهما إليها – كنت أنت أغنى الناس عنه.ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال. أي بنية – إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت وعشك الذي فيه درجت. إلى رجل لا تعرفيه. وقرين لم تألفيه. فكوني له أمة – يكن لك عبدًا. واحفظي له خصالاً عشرًا يكن لك ذخرًا – أما الأولى والثانية – فالخشوع له بالقناعة – وحسن الطاعة. وأما الثالثة والرابعة – فالتفقد لموضع عينيه وأنفه. فلا تقع عينه منك على قبيح. ولا يشم منك إلا أطيب ريح. وأما الخامسة والسادسة التفقد لوقت منامه وطعامه – فإن تواتر الجوع ملهبة – وتنغيص النوم مغضبة وأما السابعة والثامنة. فالاحتراس بماله. والإرعاء على حشمه وعياله. وملاك الأمر في المال حسن التقدير وفي العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرًا ولا تفشين له سرًا. فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره. وإن أفشيت سره لم تأمني غدره. ثم إياك والفرح بين يديه إن كان ترحًا. والترح بين يديه إن كان فرحًا – فإن الخصلة الأولى من التقصير. والثانية من التكدير. وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا. يكن أشد ما يكون لك إكرامًا. وأشد ما تكونين له موافقة يكن أول ما يكون لك مرافقة.. وأعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك.. وهواه على هواك فيما أحببت أو كرهت. والله يخير لك. ومقدمة الوصية هي زوجة الحارث بن عمرو ملك كنده. ويقولون بأن الفتاة تمسكت بهذه التعليمات فعظم موقفها عند زوجها ولقد تمسكت الفتاة بهذه النصائح لذلك ولدت له الملوك السبعة الذين حكموا اليمن بعده[٤١]..

هذه النصيحة التي تقدمها – أم – لأبنتها– أم لم تتعلم. ولم تذهب إلى جامعة ولم يكن عندها تلفاز, وإنما درجت في بيت متواضع خيام وكهوف – ومع ذلك كانت لبيبة فصيحة عندها بعد نظر وخبرة بأسس السعادة الزوجية إن

---

(٤١) العقد الفريد ج٣.

للمرأة العربية في عهد الجاهلية فضائلها المكسوبة ومواهبها الموروثة – ولذلك ضربت بسهم وافر في الرأي. ولقد كانت تتمتع بكرامة لم يصل إليها أحد. ومكانة عالية عند الأب أو الزوج. أو الابن وكانت بحكم تنشئتها – هي عماد البيت – ما من موطن عظيم إلا ولها حضور. ولا مشهد حافل إلا وسمع صوتها. لأنها كانت تزن الرجل في ذكائه. ولهذا تلحظ أن الإسلام قرن بينها وبين الرجل في كثير من المواطن. ولأنها مناط شرف العائلة وأسرتها وموطن عرض الزوج فقد اختصوها بنصيب كبير من الحرمة والكرامة مما لم يظفر به بعض الرجال. ولذلك يعجب الإنسان من شخصيات أباحت لنفسها أن تحكم على الأمة العربية بأنها عزلت المرأة عن الحياة الاجتماعية وأن النساء قعيدات بيوت. لا رأي لهن ولا نصيب لهن من الحرية وهذا رأي فاسد لأن رأيهم ليس عليه دليل – فهو مبنى على خطأ وقائله لم يقرأ التاريخ – ولعل وصية المرأة العربية لإبنتها ليلة البناء ما ينم عن شخصيتها وهذا دليل على حسن تفكيرها وتفاعلها الاجتماعي. وإسهامها في التربية العالية. وتنمية العقل عند أولادها.

وكانت فتيات القبيلة. يخرجن سوافر الوجوه يعزفن على المعازف ويرقصن ويتغنين بمآثر قبيلتهن. ومكارم أخلاقهم. ويرسلن القول عذبًا نديًا في وصف من اجتمعن له ويحتفلن به – وكان فخر الولد – والبنت – بأبيه وأمه. لايسمح لرجل مهما كان أن يقترب من ساحة النساء ولهذا كان الرجل العربي سيرته في نفسه هي الجزء الأكبر فمن لا أمانة له على نفسه – لا يؤتمن على تأسيس أسرة لأن من فرط في شرفه وتردد على أماكن الفحش. ومواطن السوء ضاعت كرامته وفقد هيبته. ويشفق الناس على من يتزوجها أن يصيبها من سيرته شيء، إن الذي يجرح الرجل العربي في شرفه بكلمة أو غمز أو لمز لا يبرأ منه أبدًا – إذا رمى في عفته – وطعن في شرفه خاصة إذا وهنت إرادته وتأثر بالنساء في مشيتهن – وصاحب المهينات منهن.. فينظر إليه

العرب على أنه ساقط الهمة مغموز العرض.. والتاريخ سجل كل شيء فالعرب كان منهم الشريف – والمحافظ على الوطن والبعيد عن كل شيء دنيء منهم – فكانوا يعتبرونه صعلوكًا – وكان وهو يغدو إلى الأمام يتوارى عــن العيــون. ويختبئ بالظلام. ويرخي إزاره ليمحو أثر أقدامه من علــى الرمــال حتــى لا يتعرف على أثره أحد. لأن العرب كانوا يعتبرون أنه من أكبر الكبــائر عنــد العرب ان يلتقي الرجل بأي امرأة فيلقي عليها التحيــة أو يبــدؤها بالســلام – وهؤلاء لا عبرة لهم وليس لهم كيان اجتماعي. ولايسمع لكلامهم– ولكننا نتكلم عن بغاة الشرف وأبناء السادات – وكان من حكم هؤلاء "ليس سيدًا من غلبتــه شهوته". وليس بشريف "من قلد النساء وتزين بمثل ماتلبس النساء".

إن القرآن الكريم – وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديــه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم خبير، كتاب أحكمت آياته ثم فصــلت آياتــه قرانًا عربيًا لقوم يعقلون.. هذا القرآن العظيم أخبرنا. أن الله بقدرته جعل مــن الماء – ماءًا أجاجًا. شديد الملوحة – وماءً عذبًا تستسيغه النفس وهــو طيــب. وخلق البشر من ماءً فجعل منه النسب والمصاهرة – فكما أن الماء بعضه مالح – وبعضه عذب سائغ كذلك الناس – منهم مؤمنون أخيار – ومــنهم كــافرون أشرار.. وكما أن الماء يعرف بالمذاق فكذلك الناس يعرفون بالتعامل – فالناس وإن ظهروا في صورة واحدة هم في حقيقتهم فريقان – مستقيم ومعوج – مهتد وضال. طيب وخبيث. هكذا خلقهم الله بقدرته وجعلهم يتوالدون بعضــهم مــن بعض – فالمؤمنون تظهر ثمار أعمالهم عند الاحتكاك بهم في أي مجــال مــن مجالات الحياة – والكافرون كذلك – يظهر شرهم وخبثهم عند الاحتكاك بهم في أي مجال – ومن المؤكد أن الأخيار في المجتمع الإنساني – قلة – فــي كــل زمان ومكان – ولهــذا أكــد القــرآن علــى ذلــك يقــول الله عــن النــاس

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ
مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [٤٢] ويقول سبحانه
﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [٤٣] ويقـــول
سبحانه ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ
﴿٨﴾ ﴾ [٤٤] ويقول سبحانه ﴿ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ
كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾
[٤٥] إننا بيّنا ذلك لنبين أن العرب كان منهم قلة هم السـادة الأشـراف الـذين سيطروا على زمام الأمور ونظموها ووضعوا ضوابط لبناء أمة فكانوا سـادة قادة والحق سبحانه يقـول ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [٤٦] فـالله سبحانه يخرج الصالح من الطالح ويخرج من الطالح صالح ومـن فضـل الله

---

[٤٢] سورة آل عمران ١١٠.

[٤٣] سورة يوسف ١٠٣.

[٤٤] سورة الروم ٨.

[٤٥] سورة ص ٢٤.

[٤٦] سورة الأنعام ٩٥.

وكرمه – أن المؤمنين الأخيار هم في المجتمع الإنساني مادة الحيـــاة – وهـــم الروح التي تسري في شرايين كل ما هو نافع لأفراد المجتمع الإنساني لكل بناء وتعمير ليس فيه خير خالص. ولا شر محض – فالإنسان الخير كالماء العـــذب – والشرير كالماء المالح– والله سبحانه خلق من المـــاء بشـــرًا فجعلـــه نســـبًا وصهرًا. فالنسب هو صلة القرابة التي تربط الناس ببعضهم والصهر– هم أهل بيت الزوجة – وهذه المصاهرة أدمجت عائلة الزوج وعائلة الزوجة في بوتقة الحب والتآلف والتآزر – ولذلك على الزوج أن يحب أصهاره – والزوجة هي الأخرى تحب أهل بيت الزوج وتتآلف معهم في مودة وتسامح وحسن العشرة. لأن الماء العذب إذا وقع على الأرض – أزهرت الأشجار. ونبت شجر جديـــد وجادت الأرض بالخير – وإذا وقع في البحر ولد اللؤلؤ والمرجـــان – فلـــتكن المرأة ماءً عذبًا ليكون منها الخير والأبطال والقادة والعلماء – والمـــرأة التـــي سلبت نفسها فاتسمت بوسام الذل والهوان لأنها هي التي فرطت فـــي شـــرفها وباعت كرامتها فهي كالماء المالح الأجاج يفسد الأرض ويدمر الزرع ولا ينبت شجرًا حتى إذا أنبت فلاثمر فيه ولاخير من ورائه. كل ذلك أدركه العرب منـــذ التاريخ القديم لذلك كانت المرأة دائمًا – قوة في مضاء – وذكاء في صـــفاء – ووعيًا ووفاءً وصبرًا على المعيشة في كنف الزوج. وحدب على الأولاد وتدبير المعيشة – والتعاون. والمودة مع الأهل والجيران. بكرامة. وعزة . ومروءة . وحياء. وكانت تمنع زوجها عن المشاركة في أي غارة على قبيلـــة أخـــرى. وإنما تدفع به وتحثه على الدفاع عن الوطن والوقوف مع المظلوم حتى يأخـــذ حقه.

إلى بيت الزوج

بعد الأفراح والليالي الملاح – تنتقل الفتاة من دار أبيها – إلى دار زوجها – ربما تكون قريبة – أو بعيدة – وفي بلد واحد أو تنتقل إلى بلد آخر – وآخر كلام في أذنها وصية أمها لها – وقد مر ذلك – والقرآن الكريم ذكرنا يقول الله سبحانه ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ ﴾[47] وفي أول ليلة يتم اللقاء بين الزوج وزوجته – ويغلق عليهما باب واحد. من الأفضل أن يقوم الرجل فيتوضأ ويصلي ركعتين لله أن وفقه إلى إتمام حياته بزوجة تعاشره وترعى أموره وتنجب له الأطفال يملئون عليه حياته. ويصبحون مصدر سعادته. وهذه نعمة عظيمة تستحق شكر من أنعم بها. ووفق إلى هذا الاختيار. ويوجه الشكر كله – لله – الخالق – الموفق – المنعم – ثم يمد الرجل يده إلى ناحية زوجته ويمسح على شعر رأسها – ويقول الحمد لله – اللهم ارزقني خيرها – وخير ما جبلت عليه – واكفني شرها وشر ما جبلت عليه – وبهذا يوفق الله بينهما – يقولون بأن "الحجاج بن يوسف الثقفي" كتب إلى "الحكم بن أيوب" أن أخطب لـــ "عبد الله بن مروان" امرأة تكون أجمل النساء "جميلة من بعيد. مليحة من قريب – شريفة

([47]) سورة النساء ٣٤.

في قومها. ذليلة في نفسها – مواتية لبعلها – ومثل هذه الزوجة. ترضي نفسية الرجل فيأنس بها. ويميل إليها. ويقضي وقت فراغه معها – يتجاذبان الحديث. ويرتبان أمر المعيشة لحياة مستقرة هادئة آمنة. أما المرأة الأخرى فقد وجدوا في "حكم سيدنا داود عليه السلام" إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضى الله عنه – لأن المرأة غل يلقيه الله في عنق من يشاء من عباده "وقيل لأعرابي كان ذا تجربة بالنساء – صف لنا شر النساء فقال. شرهن – النحيفة الجسم القليلة اللحم – التي تدعي المرض – وتتبطر على النعمة .. والتي تنفر من زوجها – السريعة الوثبة. كأن لسانها حية. تضحك من غير سبب يستوجب ضحكها – وتبكي من غير سبب. تدعو على زوجها من غير سبب. لسانها حربة. أنفها في السماء. عرقوبها حديد. منتفخة الوريد. كلامها وعيد. وصوتها شديد تدفن الحسنات.وتنشر السيئات. تعين الزمان على زوجها – ولا تعين زوجها على الزمان. ليس في قلبها عليه رأفة – إن دخل الزوج إلى البيت خرجت. وإن ضحك بكت. وإن بكى ضحكت. ضيقة البال – صبيها هزيل. وبيتها مزبول – نباحة عند بابها – تبكي وهي ظالمة – وتشهد وهي غائبة – وقد لخص أحد الشعراء من تستحق أن يخطبها الإنسان فقالوا:

صفات من يستحب الشرع خِطبتها — جلوتها لأولي الألباب مختصرا
صبية ذات دين زانه أدب — بكر ولود حكت في نفسها القمرا
غريبة لم تكن من أهل خاطبها — تلك الصفات التي أجلو لمن نظرا
فيها أحاديث جاءت وهي ثابته — أحاط علما بها من في العلوم قرا

لذلك قال سيدنا سليمان عليه السلام "المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها – والمرأة السفيهة تهدمه" وقيل أن "جعفر بن سليمان" عاب يومًا على أولاده لأنهم ليسوا بنجباء ولا أذكياء – فقال له أحد أبنائه – أنت السبب يا أبي – لأنك

عمدت إلى فاسقات البلد – وإماء المجتمع – والساقطات – فأوعيت فيهن ماءك ثم تريد أن نكون أذكياء – يا ليتك فعلت في ولدك ما فعل فيك أبوك فقد قيل:

وأول خبث الماء خبث ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح

لكل هذه المعاني نبه الإسلام. وكان العرب قبل ذلك يختارون الأم لأنها منبت الفتيان والفتيات – ومعقد فخرهم – والله سبحانه أبر بمن يختار الدين والعقل والأدب والعلم عند اختيار النساء – وحتى لا يخرج أولادهم مخرجًا سيئًا – أو يضمهم إلى صدور واهية – وقلوب سقيمة كان يتخير المرأة من ذوات الشرف والأسر الطيبة القوية – ولهذا على الزوج أن يجلس مع زوجته في أول ليلة – يذكر لها ما يحب وما يكره – ومن يرغب في عشرته ومن لا يرغب ونختم حديثنا بهذه القصة لتكون نبراسًا أمام أعيننا ويتبين لنا بها ميزة هذا اللقاء في أول العهد ببناء الأسرة.

ذكروا أن شريحا القاضي – مر على دار تقف على بابها جارية في روعة الجمال والحسن وبجوارها امرأة عجوز – قال – فطلبت ماء – وما كان بي عطش – فقالت له الفتاة أي الشراب أحب إليك؟ قلت ما تيسر – قالت العجوز. ويحك. إئتيه بلبن, فإني أظن الرجل غريبًا, فقال – للعجوز – ومن تكون هذه الفتاة منك؟ قالت العجوز هي زينب إبنة جرير من بني حنظلة فسألها – أفارغة هي – أم مشغولة؟ يعني متزوجة أم لا قالت العجوز – بل هي فارغة – قال أتزوجيني إياها – قالت إن كنت كفؤًا – فتركتها ومضيت إلى منزلي – فامتنع النوم علي – وبعد صلاة الظهر أخذت بعض الرجال معي من سادات الناس وأشرافهم – لأخطبها من عمها – لأن أباها متوفى – فاستقبل العم الوفد – وسأل من نريد؟ قال زينب – فاستشارها العم. وتمت الموافقة وبعد أن انتقلت إلى بيتي ندمت لأني تركت بنات قبيلتي وتزوجت من قبيلة أخرى فلما صرنا

وحدنا وانصرف النسوة عنها – وغاب الرجال – قلت لها من السنة النبوية أن أصلي ركعتين شكرًا لله إن وفقني إلى ما أحب – وهذه نعمة تستحق شكر المنعم – ثم أسأل الله خيرها. وأتعوذ بالله من شرها – فتوضأت – فرأيتها هي الأخرى تتوضأ – فصليت فإذا هي تصلي ثم غيرت ملابسي – فلما دنوت منها – قالت على رسلك – ثم وقفت – وقالت – الحمد لله – أحمده واستعينه وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وآله – أما بعد – فإنني امرأة غريبة – عن هذه المنطقة – لا علم لي بأخلاقك فبين لي ما تحب وما تكره – لأتجنبه. فإنه قد كان لك منكح في قومك – ولي في قومي مثل ذلك ولكن إذا قضي الله أمرًا كان مفعولاً – وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به – (إمساك بمعروف – أو تسريح بإحسان) أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين – ولقد أحوجتني أن أرد عليها – قمت واقفًا وقلت – الحمد لله أحمده وأستعينه. وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وآله – أما بعد – فإنك قلت كلامًا إن ثبتٍّ عليه يكن ذلك حظي – وإن تتركيه يكن حجة عليك – وأنا أحب كذا وأكره كذا – وما رأيت من حسنة فانشريها – وأذا رأيت سيئة فاستريها – فقالت كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت ما أحب أن يملني أصهاري – قلت فمن تحب من جيرانك يدخل بيتك آذن لهم – ومن تكرهه أكرهه؟ قلت. قوم فلان – صالحون وبنو فلان قوم سوء – يقول شريح – فبتنا أسعد ليلة – ومضت الأيام ولا أرى منها إلا كل خير أحبه.

وبعد سنة – دخلت بيتي فوجدت العجوز تأمر وتنهي – فقلت من هذه؟ قالت. أم حليلتك فقلت أهلاً وسهلاً. قالت كيف رأيت زوجتك؟ قلت خير زوجة. وأوفق قرينة. لقد أدبت فأحسنت الأدب وربيت أحسن تربية فجزاك الله خيرًا. قالت لي. إن المرأة لا يرى أسوأ منها حالاً إلا في موضعين. قلت وما هما. قالت – إذا ولدت غلامًا – أو حظيت عند زوجها. فإن رأيت منها ما يريبك

فعليك بالسوط. فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشر من الروعاء المدللة – فقلت لها. والله لقد ربيت فأحسنت التربية – قالت. كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت ما شاؤا فكانت تزورنا على رأس الحول وتوصيني بتلك الوصية ولقد عشت أكثر من عشرين سنة لم أعب عليها شيئًا. وكان لي جار يتشاجر مع امراته ونسمع أصواتهما ويضربها وهي تصرخ – لذلك قلت:

رأيت رجالا يضربون نساءهم — فشلت يميني يوم أضرب زينب
أأضربها من غير ذنب أتت به — فما العدل من ضرب من لا تذنب
فزينب شمس والنساء كواكب — إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

إن المرأة العربية وهي التي لم تتخرج من جامعة – ولا أكاديمية – ولا حتى مدرسة ابتدائية ومع ذلك كانت لا تدس أنفها في عيشة ابنتها حتى لا تنكد على زوجها وتقول لابنتها لا تخافي – العرسان واقفون على الباب – أطلقي وأنا أزوجك أحسن منه – تخرب بيتها وتشتت شملها – وتجعلها تحمل لقب مطلقة – بسوء تدبيرها ونحن نقص عليك سيرة أمة كانت نسبة الطلاق فيها ١% أما اليوم فلقد وصلت النسبة إلى ٤٥% – علاوة على العوانس والأرامل . ومعظمهن تخرجن من الجامعة وتحمل أعلى الشهادات ومع ذلك لم تستطع أن تحافظ على بيتها – إن الفتاة العربية قدمت أمها لها النصيحة خالصة. وهي التي تربت في الخيام – كانت سكنًا ومدرسة تعلمن فيها الأدب الاجتماعي والعلاقات الإنسانية وبناء البيوت. نسوة أقامهن الله على نشء صغير.واستخلفهن الله على صنائعه. فحفظن الأمانة. وأوكل إليهن رعاية أشبال فكن الناصحات الأمينات. فهل لبناتنا وهن يتطلعن إلى بنات أوروبا وأمريكا – أن يتطلعن إلى تاريخ المرأة العربية ففيهن غناء لأن دماءهن تترقرق بين جوانحنا. وعلينا أن ندرك أنه من فساد الرأي أن ندع نساءنا يتخذن من المرأة

الأوروبية مثالاً يحتذى. أو قدوة لأي فتاة فهذا ضلال مبين. لأن الأدب فضلوه على العلم – وأجمل النساء من تحلت بالخلق. والأدب – والعفة والفضيلة.

الخطبة والمهر

المرأة العربية نشأت في قوم لهم من دقة الحس ما جعلهم يبذلون المهج في سبيل المرأة – رخيصة – فخاضوا المعارك الحربية – خوفًا من أن يمتد أيدي أعدائهم إلى أي امرأة من القبيلة – يعني البلد الآن – أو الوطن كله – ولهذا أصبح العرب رواد غارات وكان الواحد منهم يدخل إلى المعركة – وخيال – زوجته – أو أمه – أوابنته – أمام عينيه – وما عسى أن يصيبها بعده من حاجة إلى الغير – فكان يحب الحياة – حفاظًا على النساء وفي غمرة المعركة إذا هتفت المرأة بالرجل قوي عزمه – واسترد قوته – ويضرب الأعداء بشدة وهو لا يدري أوقع على الموت أم وقع الموت عليه – وإذا كانت المرأة مطلع قصيدة الشاعر. ومشرق وحيه – وسر إلهامه – فهي مثار عاطفة الرجل – وسر حياته – ومهاج غضبه – ولما كانت المرأة هي منبت فتيان العرب – ومعقد فخرهم – فإنهم يحافظون عليها ويمنعون عنها كل شيء يكدر صفو عيشها لهذا كان العربي إذا هم بالزواج – أو تقدم إليه أحد لخطبة ابنته – فكان يتخير في من يتقدم إليه شرف الحسب وعلو الهمة. وسناء الذكر – ولا ينظر إلى الغنى أو الفقر – ولكن ينظر إلى الفتاة وما تتحلى به من خلق. وسعة حيلة – ليرث أبناؤها منها الذكاء والفطنة – وقد أسلفنا الحديث عن نماذج من ذلك – ونذكر أن الفتاة قد تختار لنفسها وهي من أسرة شريفة لها مجد عظيم – ولا تلام على ذلك أبدًا – لأن حسن الاختيار أدوم لبقاء العشرة – فالفتاة التي نشأة بين أبوين كبيرين كريمين – لابد أن تنتقي العشير الكريم وهو يخطب فيها كرم المنبت. وشرف القبيلة – إن الفتاة التي أحلها أبوها موطن الرعاية

والإكرام – واعتنت بها أمها وزودتها بزاد من الأخلاق. والأدب والفضائل – فمن الخطأ أن يضيع كل ذلك عند زوج لئيم خسيس وضيع لهذا كانت الفتاة تجلس إلى خطيبها ويتجاذبان أطراف الأحاديث[٤٨] زيادة في التعرف على فكر كل منهما لدى الآخر ويتم ذلك بحضرة الأهل وفي خيام العشيرة إن بعض العرب يؤثر بنات العم والخال – وبنات العشيرة – لأنهن يتحملن ما في خلق الزوج من حدة – أو – في أهله وبيته من سوء في التصرف – وكان بنو عبس يؤثرون بنات العم ولما سئلوا عن ذلك قالوا هن أصبر علينا لعلمهن بنا[٤٩].

وكان الكثير من العرب يخطب إلى غير عشيرته – وحجتهم في ذلك أن الغرائب من النساء أولد للنجباء من البنين والبنات – أما بنات العم فلا يلدن – فيما زعموا إلا ضعاف الأجسام قليلوا الذكاء. وروى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه – نظر إلى قبيلة بني عبس وأولادهم صغار الأجسام – فقال لهم – ما لكم صغرتم؟ قالوا – قرب أمهاتنا من آبائنا – قال صدقتم فتزوجوا من البعداء تنجبوا الأقوياء[٥٠]– ومن قوله أيضًا – اغتربوا ولا تضووا[٥١] أي تزوجوا الغرائب ولا تتزوجوا الأقارب فتنجبوا الضعفاء – وبعد الخطبة يقدم أهل الزوج – المهر – الصداق – للمخطوبة – فتأخذه كاملاً – لا يأخذ منه ولي أمرها أي شيء ولا سلطان لأحد عليه – وكان العرب يعدون من اللؤم أن يأخذ الأب أي شيء من مهر ابنته – و كانوا يعتبرون المهر هدية يتقدم بها الزوج – قل أو كثر وحسب الرجل أن يتقدم بشيء من قدر ما يملك –

---

(٤٨) العقد الفريد ج٣ بتصرف.

(٤٩) محاضرات الأدباء ج١ بتصرف.

(٥٠) محاضرات الأدباء ج١ بتصرف.

(٥١) تاج العروس ج ١٠.

فهو يقدم على قدر ماالديه. وعلى ما هو فيه من العيش وبسط الغنى – وأعز شيء يقدمه الرجل – مهرًا – الذهب – أو النوق العشراء – ولقد قدم (عمرو بن حُجر) – يوم خطب إلى – عوف بن محلم – ابنته – قدم مهرها ضيعة في كندة – وأضاف – أن أي حاجة لقومها – يطلبوها مني – لا ترد مهما كانت – وأحيانًا – يدفع الرجل مهر ابنته نيابة عن خطيبها لحرصه على خطيب ابنته لما يتمتع به من ذكاء – وخلق – وأدب. وشرف أسرة – إن البنت جوهرة لا تباع ولا تشترى. وإنما تكون عند رجل يصون كرامتها – ولا يجرح مشاعرها ولا يهز كيانها ولايسفه أحلامها – وإنما تكون معززة مكرمة: والعرب يقولون – الأزواج ثلاثة – زوج مهر – وزوج بهر – وزوج دهر – فالزوج المهر هو الرجل الذي لا شرف له ويقدم الغالي والنفيس ليرغب فيه أهل العروس وهو وضيع لئيم خسيس سوف يذلها ويذل أهلها – والزوج البهر هو الرجل الشريف قليل المال تتزوجه المرأة لتفتخر به لأنه مهذب يحافظ على مشاعر زوجته وأهلها – وأما الزوج الدهر – فالرجل الكفء الذي لا عيب فيه – فهو على خلق – ودين – وعلاقات اجتماعية – على أعلى مستوى – عف اللسان – كريم اليد سخي النفس.

يوم الزفة والبناء

ليس في حياة العربي من يوم سعيد كيوم زفافه وبنائه بزوجته وهي كذلك يكون فيه الفرح والسرور. فهو يوم أتم بهاء. وأعم صفاء يظهر فيه الفرح – ولذلك قالوا – يا ليلة ما ليلة العرس – إنه يوم الزفاف – أو يوم البناء فترى الفتيان يلعبون بالرماح – ويستبقون على متون الخيل – تعلو البسمة وجوههم وفتيات القبيلة يخرجن سوافر الوجوه – بينهن من تعزف على المعازف. ويرقصن على المزاهر – ويتغنين بمآثر قومهن ومفاخرهم. وكانت العروس

تخرج من بيت أبيها في زيها البهي وزينتها وتسير الفتاة في حشد من صديقاتها وأترابها حتى يصلن إلى فناء الدار – فتجلس على مكان عال– والإماء حولها يرقصن بين يديها – ويغنينها بمآثر قومها – وعز عشيرتها – والغر الميامين من قومها – ثم تنتقل إلى بيت الزوج وقد زودتها أمها بالنصائح ومنها ما قدمناه – وكان العرب يعتبرون أن أجمل شيء تتزين به المرأة – الماء, فمن جوامع كلامهن "أطيب الطيب الماء" وتتزين بالحناء– تختضب به المرأة في يديها ورجليها – كما كان عندهن خليط من الطيب يدهن به فيكسب وجوه النساء حمرة وإشراقًا. وذكروا أن النعمان بن المنذر تزوج أربعًا من النساء من أربع قبائل تثبيتًا لملكه – وتأييدًا لعرشه. وكان يسأل كل زوجة بما أوصتها به أمها.

فسأل الأولى: وكانت من قبيلة سليم – وقال لها – بم أوصتك أمك؟ قالت لي, عطري جلدك – وأطيعي زوجك. واجعلي الماء آخر طيبك.. وسأل الثانية: وكانت من قبيلة كنده – وقال لها بم أوصتك أمك؟ قالت لي لا تجلسي بالفناء. ولا تكثري المراء واعلمي أن أطيب الطيب الماء.. وسأل الثالثة: وكانت من قبيلة الأنمار – وسألها – بم أوصتك أمك؟ قالت لي لا تطاوعي زوجك على الدوام فتمليه. ولا تعاصيه فتشكيه واصدقيه الصفاء واعلمي أن أطيب الطيب الماء.. وسأل الرابعة: وكانت من قبيلة بني أسد بم أوصتك به أمك. قالت لي – أدنى سترك – واكرمي زوجك واجتنبي المراء – واستنظفي بالماء[٥٢].

نصائح غالية – قالتها نساء من قبائل متفرقة لم يتعلمن وليس معهن مؤهل. وليس عندهن ماء في حنفية – أو كهرباء – وإنما ماؤها من البئر. وطبيخها على "الكانون"ومع ذلك أنجبت – وعلمت. وهذبت. هذه جدتك العربية

---

(٥٢) بلاغات النساء.

– تعلمي منها فهي مدرسة عظيمة والماء منظف يحفظ البشرة. أما مساحيق اليوم فتضر البشرة وتجلب الأمراض. ولذلك لم يكن لأي رجل من العرب أن يبعد زوجته عن القيام بتربية أبنائها والإشراف على تهذيبهم وتأديبهم. فكل ذلك إليها مرجعه لأنه الحصيفة اللبيبة وليس هناك من شيء أوجع لقلب الرجل إلا أن يقال له "لا أم لك" أي أن أمه لم تعلمه – فهي المعلمة الاولى لأطفالها وهم يشربون اللبن من صدرها تناغيهم وتعلمهم الآداب العامة والأخلاق العالية. وعلو الهمة والشجاعة والكرم. ونجدة الغير. ومن اعتزاز الكثير منهم بأمه أن نسب إليها – كعمرو بن هند – وغيره كثير. وكان ذلك فخرًا له ومكانة سامية يعتز به. لأن أمه أنجبت. وعلمت – وربت. وهذبت.

الغناء

كانت أفراح العرب تزين باللهو – و الضرب على الدفوف – والمعازف. والطبل وغير ذلك من أدوات "الموسيقى" وكان الغناء يصاحب فرقة الموسيقى – وبعض المغنيات – وممن برع في الغناء "ماوية ابنة عفزر" وكانت من أسرة لها مكانتها الاجتماعية العالية "ابنة ملك الحيرة" وقد تركت الغناء بعد ذلك وتزوجت من "حاتم الطائي" أجود شخصية في الجزيرة العربية. ويضرب به المثل في الجود والكرم وكانت تستقبل الشعراء وتناقشهم وتأخذ من شعرهم فتغنيه. ومن غنائها:

تعلم أبيت اللعن أني قاتلك ... من اليوم أو من بعده يابن جعفر
أخالد قد نبهتني غير نائم ... فلا تأمن فتكي يد الدهر واحذر
أعيرتني أنك نلت منا فوارسا ... غداة حراض مثل جنات عبقر
أصابهم الدهر الخنور بختره ... ومن لا يق الله الحوادث يعثر

وذكروا أن "الحارث بن الحارث" كان قد أساء إليه "خالد بن جعفر" بين يدي "النعمان بن المنذر" فخرج الحارث يهدر غضبًا حتى انتهى إلى "ماوية"

فاقترح عليها أن تغني هذه الأبيات – ولقد تأثرت نفسه لفعل الصوت ونفذ الإيقاع إلى قلبه – وصار يبحث عن خالد حتى قتله – وأخذ بثأره – وكان العرب يلهون في أفنيتهم ومجالس اجتماعهم يأتون بالمغنيات وفرق الموسيقى لإضفاء الفرح والسرور على المنطقة. ويتم ذلك أيضًا عند قدوم عزيز – من رحلة – أو ظهور شاعر في القبيلة – ولعلنا نذكر أن بنات بني النجار وجيرانهن خرجن لملاقات النبي صلى الله عليه وسلم عند وصوله إلى "يثرب" وكان معهن المزاهر والطبول وهن يرددن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعى لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة مرحبا يا خير داع[٥٣]

وإذا كان الغناء فن ووسيلة ارتزاق. لم تمارسه نساء العرب الشريفات إلا النوادر جداً وهن قلة. وإنما كان الغناء صناعة موقوفة على القيان – وهن إماء يجتلبن من بلاد فارس والروم – إن العرب كانوا يتمتعون بالذوق – وتطربهم الكلمة الجميلة خاصة لو صدرت بصوت عذب رخو يصاحب ذلك موسيقى جميلة ليس فيها نشاز.

إن الغرض من كل ذلك الإعلان عن زواج فلانه – بفلان – لأن الإعلان مهم جدًا – والعرب يجرمون الزواج السري – ويشنعون على من يفعله – ويعتبرونه من الشخصيات التي لا كيان لها ولا أصل. وهو إنسان تافه لا يجالس. ولا يصاحب ولا يدخل بيوت الشرفاء. كل ذلك من باب الحفاظ على نسب الأولاد.. إن العرب مع إنهم رواد غارات وموقدوا نيران الحروب.

---

(٥٣) بلاغات النساء.

إلا أنه كان لهم أعياد. وأعراس. وأفراح واجتماع إذا قدم جيش قبيلتهم منتصرًا. أو نبغ شاعر وظهر قوله وتغنى به أفراد القبيلة.

الأم العربية

هي نتاج أم أصيلة – ربت – وهذبت – وعلمت – وأدبت – وغرست الحياء في ابنتها – والصدق في كلامها – و الأمانة في علاقاتها – وعلمتها علو همتها ونبهتها على منزلتها في المجتمع – فعليها أن تلتزم بحسن تصرفها – وبُعد نظرها – وقدرتها على حل المشاكل مع ثبات القلب. وقوة العزيمة. لذلك كان هناك قبائل من العرب ينتسبون إلى أمهاتهم ويؤثرون النسبة إليها ومن هذه القبائل – بجلية – ومزينة – وعفراء وباهلة – وبنورقاش – وبنوطهية – ومن الملوك من ينسب نفسه إلى أمه "كعمرو بن هند" – والمناذرة جميعًا ينسبون أنفسهم إلى أمهم "ماء السماء" وهي "ماوية بنت عوف بن جشم "ملكة العراق" وأم ملوكها – وإليها ينته الجمال – وجمال الأخلاق – وعنها ورث ملوك اليمن– سناء الشرف وباسمها يقسمون, إننا في هذا الزمان الذي انقلبت فيه الأوضاع – إذا قيل لأي شاب – أنت تربية امرأة يحزن – ويغضب لأن الفهم قاصر والمعايير مقلوبة– والنبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو أكرم العالمين ينزع إلى أمهاته من نساء الجاهلية فيقول "أنا ابن العواتك من سليم"[٥٤] لأن الله هيأ له من أزل أرحام الأمهات الطاهرات– وجمع عليهن الأزواج الكرام– ولهذا قال الله سبحانه ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ

(٥٤) الميداني ج٢.

﴿فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾[٥٥] وهذا تأكيد للنبي صلى الله عليه وسلم بأن الله يرعاه – وهو سبحانه مطلع عليه في كل مراحل حياته – في سره وجهره – في نومه ويقظته – في الأصلاب الزكية إلى الأرحام الطاهرة منذ – آدم – عليه السلام – إلى مولده صلى الله عليه وسلم – وسبحانه من اختص النبي العظيم بهذه الميزة العظيمة – لهذا كانت المرأة العربية تتطلع ببصرها وبصيرتها إلى أبنائها لإدراكها بأن الأولاد أعظم ثروة تعتز بها. وهم زينة الحياة – وقرة عيون الآباء وتعتبر أم الأولاد – أنها جمعت بين يديها أكبر ثروة – وأعظم كنز تدخره لها في حياتها وامتداداً لعمرها – لأنه كما تردد على لسان بعضهن "من أنجب لم يمت" زد على ذلك – الأدب – والعلم – والشجاعة.

بيتها

المرأة العربية تعيش مع الزوج في بيت مبني أوخيمة تشاركه الحياة فيها– وتعينه بكل قدرتها على القيام بواجباته الاجتماعية – والسعي على المعاش – ونظام العرب في بناء البيوت تختلف من بيئة إلى بيئة – فتجد أن أهل البادية – قوم رحل – لأنهم يبحثون عن الكلأ – ومساقط المطر. وبيوتهم من الخيام – ينصبونها في المكان الذي فيه الطعام – لإبلهم وأغنامهم– وكانت الخيمة تدل على فقر صاحبها أو غناه – فهناك – الخيمة من الصوف – وأخرى من القطن – وثالثة من الشعر وغير ذلك – أما أشراف الناس فكانوا يتأنقون في خيامهم ويضعون فيها كل ما في وسعهم من المظاهر التي تتفق وطبائعهم – وكان العربي يحرص أن يتخذ خيمة أهله بالقرب من خيمته لضيوفه – ومن يأوى إليه من عشيرته. كما كانت هناك حظائر للماشية. ولابد

---

(٥٥) سورة الشعراء ٢١٨– ٢١٩.

أن يكون للرجال مجلس- وأخر للنساء يجتمعن فيه فيتجاذبن أطراف الأحاديث. والرجال في مجلسهم يتسامرون ويتشاورون، وكان من وصية عمرو بن كلثوم لأولاده "أبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال - فإنه أغض للبصر" أما البيوت في المدن - أو القرى المستقرة - فهي بيوت من أبـدع مـا أثمرتـه عقـول المبدعين - والفنانين- والعمال- فهناك قصور مشيدة تشهد بقدرة ما أنفق عليها من مال - والأيدي العاملة التي أبدعت - مثل قوم عاد إرم ذات العماد التـي لم يخلق مثلها في البلاد - وكذلك قوم ثمود الذين كانو ينحتون من الجبال بيوتاً فارهة ويتخذون مصانع كأنهم مخلدون ويبنون بكل ربع بيوتًا غاية في الجمال. وكانت المرأة العربية تتخذ السراج في بيتها. وتزين بيتها بكل ما في وسـعها وتحرص على النظافة - وترتيب الفرش بنظام ودقة لتستريح العين عند رؤيته، إن بلاد العرب كانت - ومازالت - لها نظام يتسم بالجمال في بيوتهم لا تقـل عن أي بلد في الشرق أو الغرب - وكان البيت يفـرش بالحصـير المنمـق المنقوش - وكان هناك البساط - وكان هناك الحشايا - وهي كالمسند - منه ما هو محشو بريش النعام ويوضع بجوار الحائط - أو فوق السـرير - وكانـت غرفة العروس تزين بالفرش والأسرة والستور- والأرائـك إن بيـت المـرأة العربية لم يقصر الرجل في شيء يحتاجه ويكون في أي بيـت - والبيـت لا يساوي أي شيء في نظر المرأة العربية - وإنما هي تفتخر بزوجها - وأبيها - وأخيها - وابنها- وخالها- وعمها - وفي نفس الوقت ترتحل مع زوجها أينما ذهب وهي راضية - مقتنعة أنه هو كل شيء لها في الحياة- والعلاقة بينهمـا علاقة دائمة لا يكدرها شيء- وإن حدث شيء سرعان ما يتم حوار - وتفاهم وتسامح - وبعد ذلك يسود البيت عيشة راضية - فهل لبناتنا أن يتعلمن - فن الحياة - وصناعتها فهي ليست عفشاً يملأ أركان البيت - وإنما فن الحيـاة - كيف نبني حياة سعيدة - ونذكر قول القائل "سم الخياط مع الأحباب ميدان". لأن

الحياة ليست شقة واسعة. وعفش يملؤها. وإنما الحياة السعيدة. الرضا والمشاركة بود واحترام كل واحد للآخر ومقاسمة الحياة حلوها ومرها.

الحياة السعيدة مع ضيق المكان - يكون أوسع مكان في العالم - لأن السعة في القلوب والصدور - وليست في الأرض ولا في الخيام ولا في القصور - فلنحسن الاختيار - لأنفسنا - ولأولادنا - وبناتنا - حتى تكون حياتنا من أسعد الأيام ونشعر فيها بالأمن والأمان - والسلامة والاستقرار والرفاهية - والسعة والخير الدائم.

الحمـــل

أسعد لحظة في حياة أي أنثى أن تشعر بالحمل- ومايكاد يتحرك الجنين في أحشائها إلا وتغمرها السعادة- وبطبيعة المرأة العربية - أنها تهتم بجنينها عندما تشعر بالحمل فكان من حسن رأيها ووثوق الصلة بينها وبين مولودها ما جعلها تعتني به - وتجتهد على إعداد الطفل نفسيًا منذ اللحظة الأولى. فكانـــت تضبط أحاسيسها حتى لاتنفعل وتمسك نفسها حتى لاتغضب. وتختار الأطعمـــة المغذية ولاتملأ معدتها حتى لاتؤذي الجنين وتحاول أن تبتعد عن المنغصــــات حتى لايتعكر مزاجها ويفسد دمها. ولاتحمل أي شيء ثقيل حتى لاتضغط على أعصابها فيتأثر الجنين الذي ملأ عليها خيالها وأشعرها بقيمتها في الحياة.

نموذج تقتدي به المرأة في إرضاع ولدها:

رضاعة الأطفال من صدر الأمهات له أصول وقواعد. تحرص عليها الأم العظيمة ونضرب لذلك مثلاً يجب أن نحتذي به ليكون لأولادنا الســـلامة. فمثلاً "أميمة أم تأبط شرا" وقد سئلت عن أمر تربيتها لولدها فقالـــت والله مـــا حملته تُضعا - ولا وُضعا - ولا ولدته يتنا - ولا أرضعته غيلا ولا أبته متقا. ولا أنمته تئدا - ولا سقيته هدبدا - ولا أطعمته قبل رئة كبدا.

ولكي نحلل هذه الكلمات - علينا أن نرجع إلى كتاب "لسان العرب" في أجزاء متفرقة عند الكلام على تلك الألفاظ.

الحمل التضع: أن تحمل المرأة قبل الحيض مباشـــرة - ولا وضـــعا - يعني لم تحمل به كذلك في أعقاب الحيض مباشرة - لأنه في الحالتين ينضـــح الرحم سائلاً يؤذي النطفة فيضعفها. وهي في أول مراحلها. ومقتبل عمرهـــا -

وبداية عهدها بالحياة. فيصاب المولود بسوء النشأة. ويكون ذلك سببًا في ضعف تركيب الإنسان ويلازمه الضعف مدى حياتـه- ضـعف الـذاكرة – ضـعف الإبصار – السمع – ضعف الأعصاب- إلى غير ذلك – لهذا كانـت المـرأة العربية – ناضجة فكريًا – فحافظت على ولدها منذ البداية فهل تـتعلم فتيـات اليوم من جدتنا العربية؟.

ولادة الطفل يتنا: فإن الطفل يولد منكسًا – رجلاه قبل رأسه ويتسـبب ذلك في إصابة عظام الطفل بالضغط على بعضها – ولا يسـتطيع الطـب أن يتلاشى ذلك وتكون الشكوى من أوجاع العظام والعمود الفقري مدى حياته. وقد يصاب بشلل الأطفال – وضعف الذاكرة – والإصابة بالنسيان.

والإرضاع غيلا: هو أن ترضع طفلها وهي حامل – وهذا فيـه خطـر على أحد الطفلين أو عليهما معًا – ذلك أن الجنين في بطن الأم يمتص من لبن الطفل الرضيع – فيكون الغذاء من لبن صدر الأم قليلاً – ومن كثرة مص اللبن من الصدر لأن غذاء طفلين منه فتضعف المناعة عندئذ تتحرك الميكروبات في جسم المرأة ومن هنا يكون الضعف للأم ثم الموت البطئ للأطفال.

ولا منعته قيلا: أي أنها لم تمنع ولدها الرضاع من صـدرها – وقـت القيلولة – وهو وقت الظهر – واشتداد الحر – لأن إرضاع الطفل فـي هـذا الوقت – ينقع غُلة الجسم – ويطفئ الحر – فلبن الأم للرضيع في هذه اللحظـة أنفع – أما إذا منعت الأم إرضاع ولدها من صدرها وسقته ماء فقد يؤذيه.

والمبيت مئقا: فهو أن يضرب الطفل قبل النوم – فينـام حزينًـا – أو غضبانًا كئيبًا وذلك يؤثر على الطفل ونفسيته – وينام نومًا مقطعًـا منزعجًـا متوتر الأعصاب فتتأثر نفسيته بالاضطراب والاكتئاب- لذلك كانت الأم العربية – تعمل على إسعاد طفلها. وإضحاكه. وإدخال السرور عليه خاصة قبل نومه.

فذلك أذكى لنفسه – وتقوية لعقله. وأصفى لدمه وبذلك يكون تـوازن قـواه – وكانت تغير له ملابسه بين الحين والحين ليظل مبتهجًا مسـرورًا فـي نومـه ويقظته. وتحكي له قصة تتلاءم مع فكره قبل نومه "حدوتة قبل النوم".

والنوم تئدا: أن تضع المرأة ولدها في مكان رائحته كريهة – وهـواؤه فاسد ليس تحت الطفل شيء لين يحمي جسده من صلابة المكان. فيـؤثر ذلـك على الطفل – فتراه ينمو ببطء وتتأثر صحته ويصاب بكثير من الآلام.

والهُدبدا – فهو لبن يجف بعضه – ويتلبد بعضه – بسبب حـالات الأم النفسية بسبب علاقة الزوج معها – إذ يضربها – أو يشتمها – فإن ذلك يهـز أعصابها – وتصاب بحزن وغم واكتئاب فيتأثر لبنها وترضع طفلها فيكون لبنها كالسم البطئ. فيذوي عود الطفل وتضعف قـواه. ويهـزل جسـمه ويصـاب بأمراض – يكون الموت ارحم منها. لهذا كان الرجل العربي من لحظة زواجه وهو يعمل على إسعاد زوجه – لا يعكر صفوها. ولا ينكد عليهـا – وشـعاره "فإمساك بمعروف – أو تسريح بإحسان" أدب فطري وخلق عظيم.

وأما الرئة والكبد: فالأم لا تطعـم طفلهـا الكبـد – أو القلـب – لأن هضمهما يحتاجان إلى لعاب الأسنان – والأطفال الرضع ليس لهـم أسـنان – فتكون الرئة والكبد طعاماً ثقيلاً – لا تستطيع معدة الطفل هضمه – فيكون ثقيلاً على أمعاء الطفل. فيصاب بإسهال شديد – أو – إمساك رهيب يعقبه ضـعف شديد. وموت بطئ – ولا يستفيد الجسم من ذلك أي شيء إلا الهزال.

هذا ما تواصى به نساء العرب في جاهليتهن – وقد مضى على ذلك ما يزيد عن (٢٠٥٠) ألفي سنة وخمسين – إن تربية الأولاد – فن – يحتاج إلى أم حريصة وعقل فاهم – وقلب واع – لذلك من كان يصاب بمرض – أو ضعف في الإبصار أو وجع في العظام – تعير أسرته – لأن أمه قصرت في رعايـة

الوليد قبل الحمل به وبعد الحمل - هذه دروس عظيمة مستفادة من الواقع المعاش فهل لنا أن نستفيد من هذا التاريخ نأخذ خيره - ونطمس شره ونتجه إلى تاريخنا نقرؤه ونستفيد منه - وهنا نصل حاضرنا بماضينا والعاقل من اتعظ بعمل غيره - ونبذ شره "إن في ذلك لعبرة - لمن يعتبر واستعمل عقله وفكره واستوعب تاريخ الآباء والأجداد" وصدق الله العظيم ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾. (٥٦)

هواتف النساء

بعض النساء عندما حملن - كانت الواحدة منهن وهي تسبح في خيالها تفكر بمن هو في بطنها وتتخيله بين يديها تلاعبه وتشعر بالنشوة وهي تراه يبتسم من مداعبتها فينبعث من أعماق صدرها تنهيدة تنم عن سعادتها وتسمع صوتًا - تنصت إليه ترهف له حسها - يسوق لها البشري ويهتف بها - وربما هذا الهاتف يسمى لها المولود - أنثى أم ذكر - من ذلك:

١) عتبة بنت عفيفي - أم حاتم الطائي - سيد سمحاء العرب وإمام أجوادهم هتف بها هاتف - سمعت صوته - ووعت أذنها ما قيل لها - قال

---

(٥٦) سورة يوسف ١١١.

لها الهاتف "أغلام سمح يقال له حاتم – أحب إليك – أم عشرة غلمة كالناس. ليوث ساعة الباس. ليسوا بأوغاد ولا أنكاس – فقالت – حاتم"[٥٧].

٢) وممن سمعن الهاتف كذلك "ليلى بنت مهلهل" أم عمرو بن كلثوم – حين حملت – سمعت هاتفًا يقول لها:

يا لك ليلى من ولد ... يقدم إقدام الأسد
من خشم فيه العدد ... أقول قولا لا فند

فلما ولدت وليدها واستكمل من عمرة سنة أتاها ذلك الآتي في ظلام الليل وأشار إلى الطفل وقال:

إني زعيم لك أم عمرو ... بماجد الجد الكريم كريم
أشجع من ذي لبد هزبر ... وقاص أعناق شديد الأسر[٥٨]

يسودهم في خمسة وعشر

وقد روى كتاب التاريخ أنه ساد قومه ولم يكن سنه قد بلغ خمسة عشر سنة ومن المعلوم – أن العرب كانت تؤمن بوجود الجن وكانوا يتخليونه – أن وجهه ملئ بالشر وأن فيه بعض الخير – وكانوا يسمون الهواتف شياطين ولذلك قال شاعرهم:

أتوا ناري فقلت منون أنتم ... فقالوا الجن قلت عموا مساء

---

(٥٧) الأغاني ج٩

(٥٨) وقاص قاطع

ميلاد الطفل

كلما تقدمت أيام الحمل واقترب تاريخ وضع الطفل. وخروجه من بطن أمه إلى الحياة والمجتمع كلما ازدادت سعادة الأم. والملاحظ أن الطفل عنـــدما يخرج من بطن أمه فإنه يستهل حياته لحظة خروجـــه مـــن رحـــم الأم بـــــ "صرخة". وكأنه يخبر من سمعه بتشريفه ولذلك قال القائل:

ولـدتك أمـك يـا ابـن آدم باكيـا والناس حولك يضحكون سرورا
فأعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يـوم موتـك ضاحكا مسرورا

وعندما يولد المولود يتم اختيار اسمه – والأسرة كلها تشارك في اختيار الاسم. ومن عاداتهم قولهم – نسمى بناتنا لنا – فيسمون – ليلى – ياســمين – وردة – هناء – وهكذا ونسمي أولادنا لأعدائنا. فيسمون الولد – أســد. فهــد. سبع.

وكان العرب يفرحون بالمولود – ايًا كان – أما عملية الوأد للبنات فله حديث آخر إن شاء الله.

الرضـــــــاع

ليس للطفل غذاء أحسن وأفضل من لبن الأم الذي أجراه الله في صدرها ويمتصه الطفل من ثديها – فهو يتناسب مع معدته. وهو غذاء كامل – دســمه يتناسب مع حاجة جسمه. وكانت الأم العربية تحرص على إرضاع ولدها مـــن سبعة أيام إلى عشرة – ثم تدفع بوليدها إلى مرضعة مقيمة بالصحراء وكانـــت أسرة الطفل تختار المرضعة بحيث تكون:

١) سليمة الجسد قوية.

٢) لها عشيرة.

٣) تتميز بالأخلاق النبيلة والصفات الحسنة.

٤) نطقها سليم فصيحة.

٥) لديها معرفة بتاريخ المنطقة التي تعيش فيها.

٦) تحرص أن لا يسمع الطفل كلمات نابية أو ألفاظ مستهجنة.

٧) تلقنه ألفاظ المجد والشرف والسيادة.

والغرض من ذلك أن يتعلم الطفل – الفصاحة – والنجابة – ويكون الطفل عنده أمل في المستقبل – سليم الجسد لنقاء الهواء – وجو الصحراء فيرى النجوم. ويستمتع بشروق الشمس وغروبها فيكون لديه إحساس بالجمال – والذوق وحسن المعاملة في صفاء ونقاء – وكان هدفهم من إرضاع الطفل بعيدًا عن أمه ما يأتي:

١) أن تتفرغ المرأة لزوجها.

٢) لينشأ الطفل بين العرب الخلص ليكون من أفصح الناس لسانًا.

٣) عنده جلد وقوة تجعله قوياً في تحمل الصعاب.

٤) وأن يكون عنده قدرة على مواجهة المشاكل وحل الصراعات والقدرة على التغلب على الأزمات.

٥) يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه " تمعددوا[٥٩] وتمعززوا[٦٠] واخشوشنوا "قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله – ما رأيت أفصح منك – فقال وما يمنعنى وأنا من قريش وأرضعت في

---

(٥٩) نسبة إلى معد – قبيلة وكانت قوية جدًا.

(٦٠) دربوا أطفالكم على العزة والكرامة.

بني سعد[٦١] إن نساء البادية كن ينزلن بين الحين والحين إلى المدن والقرى الكبيرة ويعرضن أنفسهن على أهل الوليد ليأخذنه – ويأخذن عليه الأجر – لينشأ في البادية – يلعب ويمرح ويألف الجد والنوم مبكرًا والاستيقاظ مبكرًا وكانت السيدة الفاضلة عائشة – أم المؤمنين رضي الله عنها تقول "لا تسترضعوا الحمقى – فإن اللبن يورث" يعنى المرأة فاقدة الأحاسيس ميتة العواطف متبلدة المشاعر – يرث من يرضع منها هذه الصفات. لهذا علينا أن نهتم بإرضاع الطفل لمدة سنتين من صدر أمه أو من مرضعة ليكون قوي الجسد – متين التركيب – حسن الهيئة سليم الحواس – معتدل المزاج – سليم العقل – ذكي.

طرفة

عندما يولد الطفل يختار أهله الاسم الحسن الذي يفتخر به بين أقرانه ومن طريف أمر "تسمية الأولاد" أن السيدة/ أسماء بنت دريم خرجت مع أولادها إلى الصحراء لرعي الغنم والإبل – ونصب لها أولادها خباء – فجلست على باب الخباء – فمر وائل بن قاسط فنظر إليها نظرة مريبة – ووقف ينظر يمينًا وشمالاً فلم يجد أحداً فتقدم نحو الخباء ونظرته ملتهبة – فقالت له – لعلك أسررت في نفسك شيئًا؟ قال – نعم قالت ابتعد – وإلا استصرخت عليك أسبعي – فقال لها – أو تفهم السباع؟ ووالله ما أرى بالوادي أي شيء. فلما هم بالاقتراب من الخباء رفعت صوتها – يا كلب – يا دب – يا سرحان – يا فهد – يا ذئب – يا أسد وإذا بأولادها يأتون من كل جهة يرفعون أصواتهم– كل واحد يعوي بما هو على اسمه فقالوا ما خبرك يا أماه – فنظرت إلى الرجل –

---

(٦١) الروض الأنف ج١ وأن يتعلم الأطفال بعض ألعاب القوى والفروسية.

وقد اصفر لونه وامتقع. فأشارت إليه وقالت لهم – ضيفكم هذا أحسنوا قـراه – ولم تشأ أن تذكر لهم نظرته المريبة والشر الذي كان في عينيه – حفاظًا علـى سمعتها وحتى لا تشكك أولادها فيها – وقام الأولاد وذبحوا لضيفهم وأطعموه. وانصرف وهو مشدوه عجبًا مأخوذ بما رأى – وهذا الـوادي يسـمى بـوادي السباع[٦٢]– بتصرف– ولنا أن نتأمل هذا التصرف من المرأة العاقلة الرشـيدة. حافظت على سمعتها. ولم تخلق عداوة – بين أولادها ورجل يجـاورهم فـي القرية – وترتبط بينهم المصالح ثم إنها لقنت الرجل درسًا لن ينساه. وعرفتـه بأنه "مش كل طير يؤكل لحمه" وهكذا يكون التصرف بعقل وحكمه. حفاظًا على العلاقات الاجتماعية . ومنعًا من التشاجر والتطاحن والخصام.

الغناء للمولود

كانت المرأة العربية تحرص على مولودها. وتجتهد بأن لا يصل إلـى سمع المولود أي كلمة نابية – أو لفظ مستهجن. بل هي تسمعه ألفاظ الشرف – والمجد– والكرم. وكانت المرأة العربية وهي تداعب الطفل. وترقصه – تغنـي له أناشيد قصيرة. تعبر عما في ضميرها من ذكر آبائهـا الغـر الميـامين – وتسمعه الألفاظ العذبة – وتسمعه ما تتمناه له من مجد – ورقي. وقيادة وريادة – من ذلك.

١) قول– فاطمة بنت أسد – كانت ترقص طفلها عقيل بن أبي طالب وهي تغني وتقول:

أنت تكـون ماجد نبيـل　　　إذا تهـب شمـأل بليـل

---

(٦٢) خزانة الأدب ج٣.

٢) إن عهد الأم بولدها في أيامه الأولي أن تسوق إليه ما يشجعه ويجعلـــه يتفوق على أقرانه – مثل قول – أم الفضل بنت الحـــارث – وهـــي ترقص ولدها – عبد الله بن عباس – وتردد على مسامعه:

ثكلت نفسي وثكلت بكري إن لم يسد فهد أو غير فهد

بالحسب الوافي وبذل الوفر

٣) كذلك قول منفوسة بنت زيد الخيل وهي ترقص طفلها وتسمعه قولها:

اشبه أخي أو اشبهن أباكا أما أبي فلن تنال ذاكا

تقصر عن مناله يداكا

وهذا مبالغة منها في الإغراء – وتشويق للطفل ليتعرف على عمل جده – لأنه عند سماعه ذلك يفكر في منزلة الجد – إن نساء اليوم تقول الأم لولدها – يا تسكت يا هجيب لك أبو رجل مسلوخة – نام لأن العفاريت؟ إن منمـــتش هتخطفك. وهكذا تخوفه وتنمي فيه التخاذل والجبن – فهل نتعلم مـــن جـــدتنا- المرأة العربية التي ربت الأبطال المغاوير – أمثال عمر – وأبـــو عبيـــدة بـــن الجراح – وخالد بن الوليد وغير هؤلاء ملايين الأبطال – من رجال ونساء.

إن الأم العربية – وطفلها – يدرج بين يديها – وحديثها إليه – عـــن – مكارم الأخلاق وحسن العلاقات – والمروءة – والشجاعة – وبـــذل النـــوال – واصطناع الرجال وترقى معه في الحديث وتنشر بين يديه – كتابًا – من فكرها ولمساتها – وعظائم الأمور وتبعد عن سمعه كل لفظ يوهن إرادته – ويضعف عزيمته – ويميت همته – فمثل الأم – كمثل الزارع الخبير – يتتبع الزرع يبعد عنه ما يوقف نموه – أو يضعف ساقه – أو يقلل إنتاجه – كذلك الأم العربية –

إن احتكمت بولدها – نزوة شر وتملكه الحقد على أحد – عطفت صدره – وألانت جانبه – ووضحت له نهج الخير وتأمره – أن لا يحمل – على من لم يحمل عليه – وتنصحه. أن لا يتطاول على من لم يتطاول عليه – وتقول له – إن دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك – وتعامل مع خصمك بلغته – وأن تعفوا أقرب للتقوى– لأنك لا تدري يا ولدي ما تفعل بك حوادث الدهر ولعل من صيرك إلى هذا اليوم يصيرك إلى غيره غدا – لأن الأيام دول – يوم لك ويوم عليك– وقد ينتقم منك من انتقمت منه بالأمس بل وأكثر مما انتقمت منه – ثم تنشد:

لا تعادي الفقير علك أن تركع يومًا والدهر قد رفعه

إن المرأة العربية تملك أن تصنع أفراد المجتمع من ذوي الهمة العالية والأدب العالي وحسن التعامل بالعدل. فالأولاد بين يدي الآباء – عجينة سهلة التشكيل فلتشكل أبناءها على كرم النفس. وسماحة الخلق – والتعايش السلمي بين أفراد المجتمع الإنساني.

نموذج فريد

إن قدرة المرأة العربية في ابتعاث همم الرجال شيء سهل عليها جدًا. لا يكلفها أمرًا صعبًا. ولهذا كانت تقذف بولدها في حومة الوغا. وما به من هوان عليها – ولا غناء عنه – لكنها تؤثر حياة الخلود – حياة المجد – والذكر الحسن. وأشد ما يملك نفس الإنسان من مواقف هؤلاء النساء أن يدفعن بأبنائهن لأداء الواجب – وهن يعلمن أن الموت يترصد طريقهم – لأن العربية تشعر. أن الموت في سبيل الواجب – أعز – ونذكر هذه القصة ليتبين لنا أي مجد بناه العرب، فقد ذكروا – أن ظغائن من بني كنانة خرجن في ركب يحرسه ثلاثة من رجال القبيلة – أحدهم – ربيعة بن مكدم – وكان غلامًا فتيًا له ذؤابتان –

فبينما هم يسيرون – أبصروا بنفر من بني سليم – يعترضون طريقهم – وبين القبيلتين – خصومات – وخلافات. وثارات. فقال – ربيعة – وهو شاب لا يزيد عن العشرين سنة – لمن معه – أنا أتيكم بخبر القوم فلما هم بالانطلاق – قالت. امرأة – هرب ربيعة – فقالت أخته وكانت بين النساء – إلى أين نهاية سيرك يا فتى؟ فرجف جسمه بما سمع من أخته – ولا شك أنها تعبر عن رأي بقية النسوة. فعطف عليهن وأنشد:

لقد علمت أنني غير فرق لأطعن طعنة واعتنق
أصبحهم صاحي بمحمر الحدق عضبا حساما وسنانا يأتلق

إنه يقول لأخته ومن معها تعلمون أنني لست جبانًا ولكنى اعتنق السيف أحمي به من معي وأذود به عن عشيرتي – ثم انطلق به فرسه – فوجد رجلاً من أعداء قبيلته يتقدم فرماه فقتله – وإذا بسهم يأتي من قبل الأعداء فيصيب ربيعة – في ذراعه – فتنزف دمه – فتوجه إلى ركب النساء فقامت أخته– بأمر أمها – وكانت بين النساء كذلك وربطت جرحه وشدت عليه عصابة – فتنهد ونظر إلى أمه وهي رابطة الجأش ولم يذهب بلبها ما رأت من إصابة ولدها – فترنم ولدها وأنشد:

شدي على العصب أم سيار فقد رزئت بفارس كالدينار

يطعن بالرمح أمام الأدبار

فردت عليه أمه قائلة:

أنا بنو ثعلبة بن مالك مرزأ أخيارنا كذلك
ما بين مقتول وبين هالك ولا يكون لرزء إلا ذلك

ثم وضعت الأم يدها على العصابة: فاستسقاها. فقالت – يا ولـــدي إن شربت الماء – مت – ولكن – كر على القوم – فأسرع بفرسه. وهو جريح – دمه ينزف تحت العصابة – ثم هو ظمآن – وقال – وهو متوجه – إلى العدو – أعددن رمالكن – وسرن حتى تنتهين إلى أدنى بيوتكن فإني إذا مت – ســوف أقف دونكن – وبين الأعداء – وسوف أقف واعتمد على رمحـــي – فيخـــافني الأعداء فلا يقدمون عليكن. وأخذ يصول ويجول فهابه الأعـــداء. فلمـــا شـــعر بالضعف والوهن. نزل من على الفرس وغرس رمحه فـــي الأرض وارتكـــز عليه – وفاضت روحه – والأعداء لا يتقدمون خوفًا منه – وهيبـــة ورعبًـــا. لشجاعته – فلما طالت وقفته وهو رابض كالأسد المتحفز. ارتاب القوم – لذلك استجمعوا أمرهم ورموه بنبالهم فوقع على الأرض جثة هامدة – فهـــم القـــوم ليلحقوا بالنساء ويأخذهن أسرى إلا أن النساء كن قد وصلن إلى قومهن في أمان وحراسة شاب مجروح ميت – وسمي ربيعة من يوم هذا الحدث "حامي الظعن – حيًا وميتًا"(٦٣).

كانت الأم تدفع بولدها إلى حومة الوغى – وما به من هوان عليها ولا هي في غنى عنه – فهو قطعة منها تتنسمه – ونور عينيها تتبع شعاعه – وأمل المستقبل تغذيه وتحافظ عليه. ومع ذلك تقذف به إلى حياة الخلود – المفـــروش بالمجد والذكر الحسن – وهو الموت في عز وشرف إلا أن أنصاف المتعلمـــين يظلمون التاريخ. ويتهمون العرب بالتخلف وأن نساءهم قواعد بيوت. عقـــولهن مظلمة – وصدورهن ضيقة. ومتخلفة عن ركب الحضارة. ولو أنصف هؤلاء لقالوا – إن تقدم الإنسانية. كان نتاج عقول ربتهم هؤلاء النسوة الذين استضـــاء الكون بعقولهن التي هي ميراث الأمهات التي عاشت على سجيتها. ذلك أمـــر المرأة العربية في بنيها – أما بناتها – فهي بهن ألصق – وأطول مقامًا معها – وأكثر لزامًا لها ومن أجل ذلك كانت البنت أشبه بأمها – وقد ورثت منها فكـــرًا صائبًا – وأدبًا عمليًا صبته في أذن ابنتها "وزهر الروض" أشبه ببعض.

---

(٦٣) الأغاني ج ١٤.

اقتياد مشاعر الرجال

ما كان على المرأة من حرج أن تظهر في مجالس الرجال – وتجلس في أنديتهم تخطب في محافل القوم – وتشارك بالرأي في كل ما يهم البيئة – والأمر المهم – وكان لأولئك النساء على ما بينهن من تباين في الفكر حضور – لكن هناك شيء كل النساء يشتركن فيه – ذلك هو اقتياد مشاعر الرجال. بما لهن من سعة الحيلة. وما أوتين من نفاذ الرأي. وقوة الأسلوب لا لرجالهن وأبنائهن فقط. بل الناس جمعا. إن عصفت برؤسهم عاصفة شر. أو احتكمت بنفوسهم حمية الجاهلية فهنا تظهر حكمتهن وتتجلى سعة حيلتهن – كذلك إن بردت دماء الرجال. وخمدت عزائمهم. هيجت المرأة العزائم – وأسمعت الرجال بكلمات دونها فصل الرؤوس عن الأجسام – إن المرأة جناح الأمة الناهض. وعماد البلاد – إذا زلزلت الأرض بهم أو هجع الناس وتكاسلوا – وهانت شوكتهم ورضوا بالذل والهوان – وأكلوا من يد غيرهم. ولبسوا من غير إنتاجهم. صاحت المرأة فيهم فحركت عزائمهم وأشعلت حميتهم، من ذلك قول "عفيرة بنت عفان" تقول لقومها:

وإن انتموا لم تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تعاب من الكحل
وإن نكحوا طيب العروس فإنما ... خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعدا وسحقا للذين ليس دافعا ... ويختال يمشي بيننا مشية الفحل

أي جبان يسمع هذا ثم يتكاسل أو يتخاذل عن الدفاع عن وطنه وأهله وعشيرته – خاصة وأن الذي يقول هذا امرأة وما زالت تردد "ألا أن خضاب النساء الحناء – وخضاب الرجال الدماء".. وما صاحت به بنت حكيم بن عمرو العبدي بقولها:

فإن لم تنالوا نبلكم بسيوفكم فكونوا نساء في الملاء المخلق[٦٤]

وتأمل قول "فاطمة أم الربيع" عرض لها قيس بن زهير العبسي – وهي على راحلتها. فأراد أن يتخذها رهينة – ولو أخذ رهينة لقامت الدنيا ولم تقعد. وقد يكون السبب في حرب لا تبقى ولا تذر. وقد تمتد الحرب سنوات وتتوارث القبائل العداوات. لذلك قالت "فاطمة" لقيس. أغاب عقلك يا قيس – أترى بني زياد مصالحيك. وقد أخذت أمهم وذهبت بها يمينًا وشمالاً – وقال الناس ما قالوا – وإن حسبك من شر سماعه.. فأخجل القول قيسا وهو يفكر في موقفه المخجل. وكيف غاب عقله؟ فهل لشبابنا أن يستوعبوا ذلك الدرس من سيدة نبيلة. حلت أزمة بهدوء وروية.

وموقف عظيم لامرأة عظيمة هي "جمانة بين قيس" فقد حدث خلاف بين أبيها وبين والد زوجها – وكاد الأب "الربيع" أن يرفع السيف في وجه أبي زوجة ولده – وكل واحد ورائه مئات السيوف – إلا أن "جمانة" قالت لأبيها دعنى أناظر جدي "والد زوجها"– فإن تم الصلح بينكما – وإلا كنت معك بسيفي فأذن لها – فأتت جدها "الربيع" وقالت له – إذا كان "قيس" أبي – فأنت جدي – وما يجب له من حق الأبوة علي. إلا كالذي يجب عليك من حق البنوة لي – والرأي عندي أنك ظلمت زوج ابنتك حيث أخذت درعه ثم أن البادي أظلم – وليس قيس ممن يخوف بالوعيد. ولا يردعه التهديد. فلا تنابذه – فالحزم في متاركته – والحرب متلفة للعباد – مفرقة للجماعة تتيتم الأطفال – وترمل النساء. لكن السلم أهدأ البال وأبقى لأنفس الرجال – وقد قلت قولي – ثم أنشدت:

---

(٦٤) اللباس المزركش المطيب المعطر وهذا هو لبس النساء.

أبي لا يرى أن يترك الدهر درعه وجدي يرى أن يأخذ الدرع من أبي[65]
فرأى أبي رأي البخيل بما له وشيمة جدي شيمة الخائف الأبي

فصدع الرجل بقول ابنته وتوقفت الحروب. هذه مواقف لها قدرها مما يدل على بُعد الرأي. وقول الفصل. ورجاحة العقل. والمواقف الرائدة للمرأة العربية، لذلك نشير إليهن ونقول لبنات وقتنا – اتخذهن قدوة. ومنهن تعلمن. فهن مفيض الخير– وعندهن بعد نظر. وهن عماد البيت. وعدة المستقبل – ومصدر السعادة.

(65) الميداني ج ١.

يوم حليمة

قلنا بأن في قدرة المرأة أن تقود الرجل وتدفع به إلى ما تشاء. ونزيد على ما قدمناه – لقد استحكمت الجفوة – وتأزمت المواقف بين "المنذر بن ماء السماء "ملك الحيرة – وبين "الحارث بن أبي شمر الغساني" ملك الشام – لأن كل واحد طمع في الاستيلاء على وطن الآخر. وقد خرج الحارث بجيش كبير متوجهًا إلى العراق – وفي الطريق التقى به شخص من الحيرة – وله نسب في الغساسنة. وقال للحارث إني رأيت المنذر يقود جيشًا كثير العدد – لذلك اختار الحارث مائة من فتيان الجيش – كلهم شديد البأس – قوي الشكيمة. وأمرهم أن يذهبوا إلى المنذر ويخبروه بأنهم انشقوا علينا وانضموا إليه – حتى إذا أنس إليهم – يترقبوه ثم يأخذوه على غرة ويفتكوا به – هنا نهضت ابنة الحارث واسمها "حليمة" فطافت على مائة جندي ورشت عليهم المسك وسلمت عليهم وأمرتهم أن يأخذوا حذرهم وأن يكونوا على استعداد تام – وكان هذا من حليمة تشجيعًا لهم وجعلهم يزدادون حمية وعزمًا – وذهبوا حيث كلفوا – ولما فتكوا بالمنذر – وسمع الحارث وجنده صاحوا صيحة النصر. وزحف بجيشه وتلاقى بأعدائه وهزمهم وأوقع بهم وقالوا في ذلك:

فراحوا فريق في الإسار ومثله قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربا(٦٦)

ذلك يوم حليمة – وهو من أروع أيام العرب. لأن حليمة عندما مرت بين الجند أذكت نفوسهم وحركت عزائمهم وصمموا على النصر الذي حققوه. وقدموه إليها.

---

(٦٦) خزانة الأدب ج٣.

الطـــلاق

لاشك أن اختلاف الرأي بين الرجل وزوجته واقع لامحالـــة. فالعاقـــل ينهي الخلاف بسرعة. وهناك من يتسع الأمر بينهما إلى الطلاق لتمســك كـــل واحد برأيه. ولم يتدخل بينهما أحد للصلح لذلك فإن الطلاق ناجم عن الحريـــة الشخصية عند كل إنسان – والزواج عقد ككل العقود – يجوز التحلـــل منـــه – وكل عقد لا يمكن التحلل منه يكون حاجزًا لحرية الإنسان – لذلك أباح العرب في مجتمعهم الطلاق – ولقد كان الرجل العربي يختار زوجته – ويحـــرص أن يكون له منها الذرية. وأن تدوم العشرة بينهما – ولذلك ذكروا – أن رجلاً مـــن سادة قريش – خطب كريمة من كرائم القوم – فلما وفق إلى طلبه – جلس إليها – وقال لها – يا هذه – في سوء خلق يحتاج إلى تحمل. فإن كان لك قـــدرة أن تصبري على وأن تتحلي بالحلم وتتحملينني. أتممنا زواجنا وإن لم تقدري – فلن أجبرك ولن أغرك – فقالت. إن أسوأ خُلُقًا منك الذي يدفعك إلى سوء خلـــق – فقال لها في سماحة يد – فقالت هذا كرم له نشوة وفرحة لأن ذكـــره يـــدوم – فتزوجها الرجل وعاشا أسعد حياة وما جرى بينهما خلاف حتى فرق المـــوت بينهما– لأن الذي أوله شرط أخره نور والصراحة أقصر طريق للنجاح لأنـــه من الوفاء أن تعاشر المرأة زوجها وهي تتحلى بالصبر – فإن حـــدث بينهمـــا جفوة قد تؤدي إلى الطلاق – فإن حمد شيئاً فيها – لما عرف من كرم أخلاقهـــا وحسن أدبها أن يذكر ذلك لأهلها. ويمسك عن المساوئ لايذكرها أبداً , وهـــي كذلك تذكر عن زوجها لأهله وعشيرته خير ما عرفت عنه وتمسك عن ذكر أي شيء من عيوبه أو ما فيه من نقص – وهذا خلق عظيم وأدب نبيل – دليل على حسن تربية أمها لها – وتعهد أبوها لها بالرعاية والتوجيه وكان من شـــعارهم

"أي شيء يحتمله الإنسان الحر – إلا أن يغدر بالنساء ويسئ إليهن" وهذه نماذج من حالات الطلاق عند العرب.

يقولون – بأن عروة بن الوردى العبسي – طلق زوجته – فطلبت من طليقها أن يصحبها إلى نادي قومه وهناك قامت في نادي زوجها وقالت وهي تشير إلى من طلقها– أما والله إنك لضحوك السن مقبلا – السكوت مدبرا – ترضي الأهل والأجانب – تكرم الغريب ثم انصرفت – قالوا وقد تزوجها رجل بعده فقال لها – أثنى عليّ كما أثنيت على زوجك الأول قالت له – لا تحوجني إلى ذلك – فإني إن قلت قلت حقًا – فألح عليها وأقسم – فقالت له – إن شملتك الالتفاف – وإن شربتك الاشتفاف. وإنك لتنام ليلة تخاف – وتشبع ليلة تضاف[٦٧] أرأيت هذه الصراحة – وهي لم تشأ أن تذكر العيوب إلا بعد إلحاح – فلتتعلم المرأة كيف تكون – تذكر المحاسن – وتختزن العيوب.

وقالوا – حدث أبو عمرو بن العلاء. بأن رجلاً من بني غدانة – تزوج بامرأة من بني جعدة – ثم وقع بين القبيلتين صراع حمله على فراقها. فلما اعتزمت الرحيل– نظرت إليه – فإذا هو في غاية الهم والغم – فقال لها – قفي – واستمعي وليستمع من حضر – أما والله – لقد تزوجتك برغبة – وعاشرتك بمحبة ولم أجد عليك زلة – ولم تدخلني منك ريبة – وإن كان ظاهرك لسرور فإن باطنك للهوى – ولكن القدر غالب وليس له صارف – فردت عليه قائلة – أثنيت وأنا مثنية. فجزيت من صاحب. ومصحوب خيرًا فما استربت خيرك. ولا شكوت ضيرك. ولا تمنت نفسي غيرك وما ازددت إليك إلا شرها – ولا أحسست لك في الرجال شبيها – ثم افترقا" ولنا أن تأمل في هذا الأدب عند

---

(٦٧) الشملة: أن يلتف الرجل بعباءة وحده – وهذا نوع من اللؤم – الاشتفاف أن يشرب كل مافي إنائه – ليلة تخاف أي تدعى إلى الحرب.

الاختلاف – ذلك لأنه من الحكم الغالية "اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية" ولو أننا تعلمنا هذا الأسلوب العظيم عند اختلاف وجهات النظر لسعدنا دنيا وأخرى.

وحدث المدائني قال – تزوج حصن بن خليد ببنت الورد بن الحارث ثم طلقها – فجاء أخوتها ليحملوها – فقالت لهم مروا بي على مجالس القوم لأسلم عليهم – فنعم الإحماء كانوا – فأقبلت وهو معها – فقالت جزاكم الله خيرًا فما أكرم جواركم – قالوا – فما الذي كان من ملأ منا وليس لك فيه هوى؟ قالت إني أريد أن أشهد على شهادة فإني حامل – فوثب حضن "زوجها" فقال كل مملوك لي حر وإن كنت كشفت لها كتفًا – قالت – الله أكبر – إنما أردت أن أعلمكم أنني لم أطلق لعيب في خلقي – ولا عن بغض – فعليكم السلام[٦٨] هكذا كانت المرأإة العربية تتميز بصفاء الطفرة – وسماحة الخلق – وكرم التأديب ولقد اشتملت على خير كثير – ثم كانت بارة بزوجها – مخلصة له. تصدقه الحديث – وتزور أهله وترعى أباه وأمه. وتحافظ على ماله – وتؤدب أولاده وإن حدث خلاف أدى إلى طلاق – أظهرت المحاسن وأخفت المعايب لا تفشي له سرًا ولا تذيع عنه خبرًا سيئًا – ولا تقول فيه إلا خيرًا هذه دروس نقدمها لبنات حواء عن أم عربية – لقيت في عهد جاهلي – كرامة لم يصل إليها أحد – ومكانة لا تسامي – وعلى الرغم من ذلك كان الدهر يتعثر بها ويغشاها ظل من الفزع وأحاطت بها أهوال – لأنها في بعض الأحايين كانت حملاً ثقيلاً على أبيها – وكانت كارثة على الأهل كان الرجل إذا بشر بالأنثى يسود وجهه – وتتخاذل قواه لخوفه من وصمة الذل الذي قد يلحق به ووسم العار الذي قد يغشاه – خاصة إذا وهنت نفسها وضعفت إرادتها وافترشها وغد لئيم في ليلة مظلمة لم يبرز نجمها ولم يظهر ضوء القمر فيها. وسبب ذلك أمران:

---

(٦٨) يراجع بلاغات النساء ص ١٢٠– ١٣٥

١) السباء

إننا لا نخدع أنفسنا ونقول بأن التاريخ كله زهر لا شوك فيه. لا- لكن الأيام دول - فيها الحلو - والمر - فيها الصديق - وفيها العدو - لذلك أصيبت المرأة العربية بنكبات في تاريخها الطويل - وأول شيء هو - أن العرب كانوا يخرجون نساءهم عند الحرب ويتركونهن خلف صفوف الرجال أثناء القتال - فإذا انهزم الجيش وغلب الرجال وولوا الأدبار - فتكون النساء غنيمة للغالب - فيأخذهن العدو سبايا - ويتم توزيعهن على المقاتلين - ويتحكم الشخص في المرأة التي تكون من نصيبه كما يحلو له مزاجه - إما أن يستمتع بها - أو يبيعها - أو يتخذها راعية غنم وإبل - ويعيش الجيش المغلوب ذليلاً منكس الرأس - موصومًا بالذل والهوان - لأن أمه - أو - أخته أو - زوجته - تعيش في قبيلة أخرى مهانة - ضعيفة مسلوبة الحرية تتقاذفها الأيدي ويفترشها العبيد - أو تكون من صاحبات الرايات لتجمع لسيدها الأموال - هذا وضع.

هناك وضع آخر - بعض الرجال وإن غلظت أكبادهم على أعدائهم فهم يعرفون لسباياهم منازلهن بين أقوامهن - فيخلطوهن بأهليهم وقد يتزوج الرجل الكريم بمن وقعت تحت يده حفاظًا على مكانتها ومنزلة قومها ورعاية لحقها وفي هذا يقول حاتم الطائي:

فما أنكحونا طائعين بناتهم ... ولكن خطبناها بأسيافنا قسرا
فما زادها فينا السباء مذلة ... ولا كلفت خبزا ولا طبخت قدرا
ولكن خلطناها بخير نسائنا ... فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
ولم تر فينا من ابن سبية ... إذا لقى الأبطال يطعنهم شذرا
ويأخذ رايات الطعان بكفه ... فيوردها بيضا ويصدرها حمرا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله ... إذا ما سرى ليل الدجى بدا قمرا

فالسباء كان عارًا رهيبًا – يؤرق الرجال ويقض مضاجعهم. وكان في العرب شخصيات كريمة جدًا – يأخذ المرأة التي وقعت في نصيبه من السبايا ويخلطها بنسائه – وقد يتزوج بها وينجب منها – من ذلك".

١) حكيم العرب – وشاعر فرسانهم – الصمة بن عبد الله – وكان فارسًا مغوارًا لا يشق له عبار – وقعت في أسره "ريحانة بنت معد يكرب" فتزوجها وأنجب منها دريدا وإخوته – وكانت بعض النساء السبايا تحن الواحدة إلى أهلها – وتود العودة إليهم مهما كلفها ذلك – من ذلك – ما حدث به "أحمد بن معادية – الباهلي" من أن رجلاً من العرب استبى امرأة – وتزوجها – وأنجبت له سبعة بنين – وفي يوم قالت له – أزرني أهلي ليذهب عني اسم السباء – ففعل فلما أنزلت بين قومها وتذاكروا ما في السباء من ذل وعار – قالت لزوجها – إن قومي أصروا على أن ينزعوني منك. فقال لها لا أفارقك حتى تقولي ما علمت عني – فقالت العشية – إذا اجتمع القوم في ناديهم. فاجتمعوا – وحضر الرجل وزوجته – فقال لها أمام قومها:

نشدتك هل خبرتني أو علمتني شجاعا إذا هاب الجبان وقصر

فقالت نعم. فقال:

نشدتك هل خبرتني أو علمتني صبورًا إذا ما الشيء ولى أدبرا

قالت نعم – فأنصرف نادمًا على فراقها حزينا من موقف قومها بعد أن علموا بأنه أكرمها وتزوجها وأنجب منها – وردد وهو منصرف

تبكي علي ليلى لحق بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا

كذلك – فعلت سلمى الكنانية – سباها "عروة بن الوردى وكان شاعرًا بطلا كريمًا – وله مواقف عظيمة – "عروة" أعتق "سلمى" وتزوجها لأنها عظمت في عينه واحتلت مكانة كريمة في نفسه – لذلك أحلها قومه منزلة عالية وأعزها أهله – وأكرموها – وأنجبت له أولادًا – وأقامت عنده عشرة سنة كان يحبها ويعمل على إرضائها – وكانت تقول – لو حججت بي فأزور أهلي – فحج بها – ثم توجه إلى يثرب "المدينة المنورة الآن" ونزل على "بني النضير" وكان له بهم صلة وصداقة – وكانت لعشيرتها وأهلها ببني النضير علاقة مودة ويخالطونهم – فجاءوا إليهم وعروة مع زوجته عندهم. فلما اختلوا بسلمى – قالت لقومها إنه مصمم على الخروج بي قبل أن يظهر هلال الشهر الحرام – فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون ابنتهم عندكم سبية – وهي معروفة النسب فأتوه وأطعموه وسقوه الشراب – فلما ثمل قالوا له – فادنا بصاحبتنا فإنها فينا معروفة النسب – وإن علينا سبة أن تكون سبية. فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فعلنا – فقال لهم – ذلك لكم – ولكن على شرط – أن تخيروها – فإن اختارتني انطلقت بها إلى ولدها – وإن اختارتكم انطلقتم بها – قالوا – لك ذلك – فلما كان الغد جاؤه فامتنع عن فدائها – فقالوا له أنت فاديتنا أمس – ويشهد بذلك من حضر – فلم يجد إلى الامتناع سبيلاً ففادوها منه – فلما صارت إلي أهلها خيروها – فاختارت أهلها وعشيرتها ثم أقبلت عليه – وقالت له يا عروة – أما إني أقول فيك ما علمت عنك وإن فارقتك – والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك فأنت أغض طرفًا – وأقل فحشًا. وأجود يدًا. وأحمى لحقيقته منك. وما مر علي يوم وأنا عندك إلا والموت أحب إلي من الحياة بين قومك لأنني كنت أسمع الكلمة تتردد من أفواه

نساء قومك وهن يقلن "قالت أمة عروة" وكنت أسمعه ولا أقدر على رفع رأسي بين قومك – فارجع راشدًا إلى ولدك وأحسن إليهم فانصر وهو يقول:

أرقت وصحبتي بمضيق عمق   لبرق من تهامة مستطير
سقى سلمى وأين ديار سلمى   إذا كانت مجاورة السدير[69]

الموت أهون

إن سباء المرأة أمر خطير جدًا – لا يعرفه إلا قانون الغابة – ولا ترضى به المرأة إلا وهي كارهة ولاحيلة لها – وتعيش على مضض وهوان ومذلة وعار: لذلك. كانت الواحدة التي تقع أسيرة تتخلص من حياتها بالانتحار – فقد ذكروا أن "فاطمة بنت الخرشب" أسرها "حمل بن بدر" فرمت بنفسها من الهودج منكسة فماتت وكانت تردد "المنية ولا الدنية" كذلك ما حدثوا به – أن امرأة من طسم يقال لها "عنز" أخذت أسيرة – فحملوها في هودج – وتلطفوا في الحديث معها و أسمعوها كلمات الثناء عليها – وأنها ستكون بينهم كواحدة من نساء القبيلة فقالت "شر نهاري وذل ليلي" أي أن شر أيامي حين صرت أسيرة وأسمعوني أنني سأكون أكرم السبايا – إن الذل ذل – والهوان هوان – والكلام لا يغير الواقع – وقد يتزوج الرجل بالمرأة الأسيرة "سبيته" وينجب منها الأولاد – وما ينسيها طول العشرة وحسن الإقامة والأولاد منها – لم ينسها ذلك أنها "سبية" فلا ترفع رأسها ولا صوتها – ولهذا كانت تتحين الفرصة لمعاودة أهلها ليضفوا عليها الحماية ويعيدوا إليها كرامتها المسلوبة. وحريتها المغصوبة– ولذلك كانت تأنف من العودة لمن أسرها وتزوجها – وتقطع صلتها بأولادها – لأنها أنجبتهم وهي أسيرة ذليلة فلا تريد أي شيء يذكرها بذلك الماضي والذي

---

(٦٩) يراجع الأغاني ج٢– وبلاغات النساء.

عاشت وهي ذليلة مهانة لهذه الأسباب كان الرجل العربي يكره البنات خوفًا عليهن من الأسر والسباء أو أن ينزل الفقر بساحته فلا تجد ابنته ما تتعيش به – أو يموت الأب وتذوق البنت ذل اليتم حيث تتقاذفها الأيادي وتغلق في وجهها الأبواب – ولهذا كان من شعرهم:

لولا أميمة لم أجزع من العدم ... ولم أجب في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... ذل اليتيمة يجفوها ذوي رحم
تهوى بقائي وأهوى موتها شفقا ... والموت أكرم نزال على الحرم
أحاذر الفقر يومًا أن يلم بها ... فيكشف الستر عن لحم على وضم
إذا تذكرت بنتي حين تندبني ... فاضت لرحمة بنتي عبرتي بدم

الوأد

أبشع جريمة عرفتها الإنسانية "وأد البنات حية في التراب" بلا ذنب ولا جريمة ارتكبتها- فهل هناك سبب يدفع بالرجل أن يئد الفتاة وهي بريئة ثم يدفنها حية إن الذي يئدها يعلم أن الأنثى دعامة الكون وهي ليست لعبة متحركة يلعب بها اللاعبون – بل هي منبت فتيان العرب – ومعقد فخرهم – ومستقى أدبهم والجوهرة الغالية. والزهرة العطرة الجميلة إذا فلم وعدوها؟ لقد رأينا أن الأسر – والسبي يذل المرأة ويهدر كرامتها. "فسبب الوأد" أن قبيلة "ربيعة" أغارت عليها قبائل رحل – فأسروا بنت شيخ القبيلة – وجهد الشيخ في استردادها – فلما خيرت بين أبيها وسابيها- اختارت سابيها فهاج الشيخ لذلك وغضب قومه – وأقسم شيخ القبيلة أن يئد كل فتاة تولد في قبيلته – وسن هذه السنة السيئة جدًا – وقلده غيره من قبيلته – ولك أن تتصور فتاة في مقتبل العمر. زهرة تتفتح – عصفور يغرد – تختطفها يد ظالمة آثمة – وهي قطعة من – كبده تلعب بين يديه تستقبل الوجود – وتستنشق نسيم الحياة – ويذهب بها وهو فرح فيحفر لها حفرة يقذف بها إليها. ويهيل التراب على جسدها الغض الطري الذي لا يستطيع أن يدفع عن نفسه. وقد يسمع الرجل صياحها لكن الرحمة نزعت من قلبه لذلك يتركها تقاوم الموت. ولكن كيف وهي صغيرة لا تقوى على المقاومة, ولقد قلد قبيلة ربيعة في ذلك – قبيلة كندة – وتميم – ثم قلدهم بعض أفراد من بعض القبائل وكانوا قلة. ولذلك لم يكن لفعلهم تأثير في عدد الإناث وكان بعض الأفراد الذين يفعلون ذلك هم واحد من رجلين.

١) شخص جاهل ليس عنده مال فيخشى على ابنته أن يسئ الفقر إليها فيهتك سترها ويجعلها تبذل عرضها وتبيع شرفها لكي تعيش – وهذا

شخص جبان لاثقة له في نفسه ولا عزيمة عنده وغاب عن عقله أن الله هو الرازق الكريم.

٢) رجل غني واسع الثراء – ذهب بعقله الغيرة – وأشفق على ابنته من تبدل الحال – وما عسى أن يصيب ابنته إذا تغير الحال – وهل يدوم الحال على ذلك؟ لا – وغاب عن عقله أن الله بعباده رحيم. فهو الذي خلق الذكر والأنثى – ورسالة المرأة – لا يمكن أن يقوم بها الرجل – مهما تقدم الطب – واكتشفت العقاقير – وظهرت الأشعة فوق البنفسجية أو تحتها – لأن ميزان الحياة لا ينضبط إلا بالرجل والمرأة معًا تلك مشيئة الله سبحانه. ما كان ليذر أهل الكفر أن يدمروا نصف الإنسانية. بحجج واهية لذلك أوجد الله شخصيات اهتمت بهذه الجريمة وفكروا في حلها تحت شعار "الوقاية من الجريمة" واهتدوا إلى أنهم يتلمسون الحوامل – ويستوهبوا من زوج المرأة الحامل ما في بطنها لو كانت أنثى – وكان من يقوم بهذا العمل يبذل في سبيل ذلك ناقتين عشراوين لوالد الفتاة– وهناك من يبذل الطعام لها ولمن يلي أمرها حتى تكبر. فإن طلبها أبوها بعد ذلك دفعها إليه مع كفالتها بشرط أن يراها بين الحين والحين – من هذه الشخصيات التي قامت بهذا العمل الجليل.

١- صعصعة بن ناجية التميمي اهتم بمنع الوأد فكان يتلمس من هي في حالة مخاض فيذهب إلى بيتها ويستوهب الرجل حياة مولودته على أن يبذل له بعيرًا وناقتين عشراوين فجاء الإسلام وقد افتدى أربعمائة وليدة – فكان بدفع الناقتين العشراوين – ويتسلم ذلك والد الفتاة ويتسلم المولودة ويقوم على رعايتها وتربيتها والاهتمام بأمرها ثم يزوجها من الكفء لها. وجاء الإسلام وقد افتدى أربعمائة وليدة ودفع عنهن الموت وصراعه تحت التراب.

٢- زيد بن عمرو بن نفيل القرشي كان إذا أبصر بامرأة حامل يتسوهب من الزوج ما في بطن زوجته إن كانت أنثى - وإذا أبصر برجل يهم بوأد ابنته يقول لأبيها لا تقتلها ويتكفل بنفقة كل أنثى على أن يراها إذا كانت عند أهلها بين الحين والحين - إلى غير ذلك.

ولنا أن نقف وقفة لو أن البنات وئدت فمن كان ينجب البنين والبنات أو لو أن العادة سرت بين العرب وطبقوها لذهب ريحهم. ومحيت آثارهم وقضى عليهم مما يدل على أن ذلك كان في قبائل محدودة - ثم قيض الله من حال دون الوأد لأن الله سبحانه خلق الذكر والأنثى - فلو هلكت الأنثى لذهب ريح المجتمع وانقرض ثم - إن الرجل العربي كان يذود عن المرأة - وتملأ عليه حياته. ويذوب عطفًا وحنانًا على بناته - ونذكر هنا - أن - صعصعة بن معاوية - خطب بنت - عامر بن الظرب - وهو حكيم العرب - وابنته هي "عمرة بنت عامر" فقال عامر - يا صعصعة - إنك أتيتني تأخذ كبدي مني فأرحمها عندك - أو اردها إلي - فالحسيب كفء الحسيب. والزوج الصالح أب بعد أب - وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك - أفرّ من السر إلى العلانية - يا معشر عدوان - خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة ولا رغبة - أقسم لولا قسمة الحظوظ على الجدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش"[(٧٠)].

لقد نشأت المرأة العربية ونشأ معها نصيبها من الحب والرعاية وعزة الجانب - لذلك أنجبت الغر الميامن - والأبطال المغاوير - لأنها انحسرت عن أشد أمم الأرض بأسًا - وأدقها حسًا - وأرفعها في الحادثات أعلامًا - وأحلها الرجل أسمى المواطن في نفسه - واستشارها في أموره وقضاياه وأخذ برأيها - وكانت تتمتع في بيت أبيها بكل الرعاية ولها حرمة الرأي ونفاذه - ذلك -

---

([٧٠]) يراجع كل ذلك وغيره كثير في الأغاني ج٢ وغيره - العقد الفريد ج٣.

لأن المرأة إذا سلبت نفسها – وأهمل رأيها. فقد حرمت نصيبها من الوجـود– ووسمت بوسام من الذل والهوان – فلا تكون أبدًا امرأة فاضـلة – وإذا هـي استشعرت المهانة من ذويها هانت عليها نفسها – ومن هانت عليـه نفسـه لا يمتنع عن دنيه ولا تخاف من لومة لائم ولا تحسب لأهلها أي حسـاب لأنهـم أهملوها من أول الأمر.

إن المرأة العربية كانت تحرص على أن تتمسك بشرف قومها وعزتهم وعملت على أن تكون طاهرة عفيفة لهذا كانت هذه المرأة الشريفة أجلب لنعيم الحياة – وهي زينة في الرخاء – وعدة في الشدة.

ذكروا – أنه كان باليمن ملوك سادوا على الجزيرة العربية – و بسطوا سلطانهم على سكانها وكانوا يأخذون منهم الأتاوى "الخراج" وأظهر العرب تأففًا – ورفضت قبيلة ربيعة دفع الخراج – فأرسل ملك اليمن – بوال عنيد – شديد المراس – له في ميادين الحرب صولات وجولات هو "لبيد بن عنبة الغساني " فأقام فيها وتزوج منهم امرأة يقال لها "عمرة بنت الحباب التغلبية" فقال لها مـا بال "كليب" عظيم ربيعة ينصر مضر – ويتهدد ملوك اليمن – قالت لا أعلم في ولد إسماعيل ذا "لبدة" هو أشد منه – فأغاظه هذا القول – فلطمها لطمة شـديدة – وقال لها – لولا أنك الوجيهة لأركبتك ناقة مدهونة بالقطران ثم اشعلت فيها النار وزجرتها بك حتى تهلكي – ثم قال لها أترين أنك حـرة – أنـت أمتـي تأتمري بأمري. ونحن معشر الملوك لنا الرأي عليكم .. ولا رأي لكم – فردت عليه قائلة "أنا أكرم منك" ثم خرجت من داره مغضبة والتقت بأخيها كليـب – فأنشدت:

ما كنت أحسب والحوادث جمة | أنا عبيد الحي من غسان
حتى علتني من لبيد لطمة | سجرت لها من حرها العينان
إن ترض تغلب وائل بفعالهم | تكن الأذلة عند كل رهان
لولا الوجيهة قطعتني بكرة | جرباء مشعلة من القطران

فما كادت تنتهي من شعرها إلا وخرج كليب وتوجه إلى – لبيد – فهتك قبته. وضربه بالسيف على هامته – فأرسلت اليمن بجيوشها – وجمعت ربيعة ومضر جموعهما والتقى الجيشان – جيش اليمن بقيادة عمرو بن بابل اللخيمي – وجيش ربيعة ومضر بقيادة – كليب – ودارت معركة رهيبة – بذلت فيها المهج. وأصبحت الأرواح رخيصة. واختفت الشمس من غبار الأرض.. وكان كليب بطلاً شجاعًا ويقولون في هذه المعركة شق اربعة آلاف سيف عرضت أمامه حيث كان يبحث عن – قائد جيش اليمن – عمرو بن بابل – ووصل إليه وقتله – وهنا نشطت قبيلة ربيعة ومضر – وحملوا على جيش اليمن – وأوقعوا به هزيمة منكرة ومزقوا جيش اليمن – وحرروا العرب من طغيان ملوك الأستيلاء على أموالهم[٧١]. والسبب لطمة على وجه امرأة حرة – وكلمة نابية وصلت إلى مسامعها – فهل يفهم شبابنا تاريخ آبائهم ويحافظوا على شرف نسائهم ويكون شباب الإسلام قدوة – حتى نذكر الناس بتاريخنا.

أساليب الاستعمار

الاستعمار شيء بغيض إلى الشعوب. وأساليبه واحدة ومبدؤه "فرق تسد" فعلى الشعوب أن تتنبه. وعليهم أن يعلموا أن الاتحاد قوة. وأن يد الله مع الجماعة. وعلى الشعوب أن تحافظ على المرأة لأنها رمز كرامة الأمم. ونذكر

---

(٧١) يراجع في ذلك معركة بكر وتغلب.

شبابنا بأن زميلتك في الجامعة – أو المدرسة أو جارتك أو أي فتاة مــن بـــلاد المسلمين والعرب هي أختي أحافظ عليها وأدافع عنها وأبعد الأذى عنهــا. ولا أسمح لأي شخص حتى نفسي أن أتحرش بها أو أسمعها كلمات نابية تســتهجنه المجتمعات وفي مجتمع غير مثقف لايسمح لأبنائه أن يشيع ذلك بينهم. ومع ذلك فإن العرب وهم أميون حافظوا على أسمى شيء في حياتهم وهو الحفاظ علــى كرامة الأنثى حتى ولو دارت الحرب سنين عددا.

الفصل الثاني
المرأة العربية في ظل الإسلام

انبثق نور الإسلام – فابتسم الزمن لنساء العالم أجمع ونســاء الشــرق خاصة، حيث عم الكون جوًا مشرقًا بهدى السماء وأسلوب من الحياة من توجيه سيد المرسلين، فإذا كانت المرأة العربية لقيت في عهد الجـاهلين – رعايــة – ومحبة وكرامة – ومهابة ومكانة لا تسامى. فلقد كان الدهر يتعثر بها عثرات – غابت في بعض المواطن عظمتها. وزالت هيبتها – وغشيها ظل من الرعــب. والخوف والفزع. بسبب الجهل لقد سلب الجهل مكانتها مع سوء نظام المجتمع الذي سلبها حقها في الحياة، وليس ذلك في الغالب الأعم. لكن في بعض القبائل وعند عدد معين من بعض القبائل الموتورة – لسوء الفهم والتواء القصد – من هذه الشخصيات التي سيطر الجهل عليها من الانحراف أو الضياع– لهذا ظلت المرأة العربية في بعض الأماكن يتعثر بها الزمن حتى استبان الحق – وأشرقت الأرض بنور ربها. ونزل وحي السماء على سيدنا محمد صلى الله عليه وســلم لينذر به الناس أجمعين. في هذا المناخ العام كانت المرأة العربية لها من قــوة العاطفة – وبعد الخيال. فوق ما للرجل – لأنها تدرك أن البعض من الرجــال يرى أن البنت عبء عليه – يضعف الرجل عن احتماله – وتتخاذل قواه لفرط ما ألم به ونزل بساحته من إنجاب بنت – فكان إذا أمسكها يسود وجهه. خوفًــا من أن تقع أسيرة في أيدي أعدائه وتكون عند قوم لا يرحمونهــا ولا يعرفــون مكانتها – أو يتزوجها من سباها بلا "صداق" ولا فرح وتكون المذلــة والعــار على قومها وتعيش هي في ذل وهوان وخسة. لأنها في الأصل أسيرة– وإمــا

أن يهيل الأب عليها التراب. ولم يؤثّر فيمن يئدها منظر وجهها الغض الطري. وما تتمتع به من نضارة الوجه – ولم يشفع لديه صراخها وعويلها – ولم يلن قلبه لتوسلاتها. ولم يشفع لديه الابتسامة الطاهرة.. لهذا كانت المرأة تعيش وحياتها على كف مضطرب. ودم يتصعد ثم ينحدر. وقلب يثب ثم يطمئن.ووجه يصغر ثم يشرق خوفًا على نفسها من المستقبل. والبنت إذا وجدت من يتعهدها. ويؤدبها. نهجت طريق الخير والكمال – أما إذا ابتليت بمن يزين لها الباطل. ويغويها بالشر ويموه عليها. ويبعدها عن طريق الخير. بغرض قضاء وطره. وإشباع رغبته فقد جني عليها وأهدر كرامتها. وألحق الذل والعار بأهلها. وهذا هو سبب الخوف من إنجاب البنات، ونحب أن نؤكد على أن الإسلام عندما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم كانت أحوال المرأة في المجتمع الدولي سيئة جدًا – ومهانة إلى أبعد الحدود – فهي:

١) عند البعض يتم دفنها في التراب – توأد – حية. في قبائل معينة يقلدهم بعض الأفراد بجهل وبلا معرفة.

٢) إذا مات زوجها تحرق حية معه حتى لا تتزوج بعده. ولو كان له أكثر من امرأة فهن معه على المحرقة أحياء.

٣) إذا مات زوجها كانت تورث – وتكون كقطعة من أثاث البيت ومن يرثها له الحق أن يتصرف فيها كما يشاء.

٤) كانت تباع في الأسواق – على يد الأب – أو الأخ – أو الزوج إذا ثقلت مؤنتها على أحدهم.

٥) عند البعض لها مكانة مرموقة محترمة – تعتز بأولادها – وزوجها.وأهلها وتفاخر بشرفها وبمن أنجبتهم بينما القاعدة العريضة في المجتمع الدولي – أن المرأة مهانة – ولهذا كانت تعقد المؤتمرات

لتناقش هل المرأة إنسانة؟ ولها الحق في أن تجلس مع الرجل تتحدث إليه؟ وهل لها الحق في أن تضحك؟ وهل لها الحق أن تعبد الله؟ وهل تدخل ملكوت الله "الجنة"؟ وينتهي المؤتمر بأن المرأة يجب أن يكمم فهما لأنها أحبولة الشيطان. وهي ملعونة. هكذا كانت تنتهي المؤتمرات الدولية – وفي دول الغرب بالذات(٧٢) فلما جاء الإسلام أعلن – أن الرجل والمرأة سواء في الحقوق الدينية والواجبات الاجتماعية. ويؤكد القرآن على ذلك في قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ ﴾(٧٣) لذلك عرفت المرأة مكانتها المتألقة ومجدها الصادق – وحريتها المصونة – وهو ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. لأنه بحق هو الذي حررها وفك القيود التي قيدوها بها – وطرح الأغلال التي أرهقتها ومع أنه هو نبي الله ورسوله. فهو أب لأربع بنات فرح بهن. وأعظم سعادة له بهن، وذلك قبل أن تنزل عليه الرسالة – لم يتبرم من البنات بل كان يحمل الواحدة منهن على كتفيه. ويسير بها في الشارع. ويطوف بها حول الكعبة وهو فرح مسرور سعيد لذلك قال المنصفون – إن الذي حرر المرأة بحق –وجعل لحياتها ضوابط من الدين والقيم والعادات الحسنة. هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وقد نهى عن إيذاء مشاعرها. أو الإساءة إليها.

(٧٢) يراجع كتاب نداء للجنس اللطيف للشيخ رشيد رضا

(٧٣) سورة النساء ٣٢.

وقفـــة

إن هذا الكتاب وضع ليبين للمرأة المسلمة الآن – ما هو أفضل طريق تسلكين؟ وأي منهج تتبعين؟ وأي تعاليم تفضلين؟ هذه وقفة لابد منها – لتعرف المرأة الهدف – وتحدد الوسائل، والغرض من ذلك تحقيق السعادة لها – وتواجد المودة والرحمة والحب والرعاية لأسرتنا – والاستقرار والرقـي والازدهـار لمجتمعنا في نفس الوقت – لا ننسى الفضل بيننا جميعًا – ليدوم الفرح والسعادة والتقدم والازدهار.

ومما دفعنا إلى وضع هذا الكتاب. أننا وجدنا المرأة المسلمة في عصرنا هذا تتجه ببصرها إلى الغرب وتقلد المرأة هناك لأن القدوة من نسـائنا ليسـت موجودة في نظرها. لكن تاريخنا مليء بنماذج صالحة جداً لأن تقلدها فمثلاً:

١) تقوم المرأة في الغرب بوضع المنكير على أظافرها – فلا مانع من أن تقوم المرأة المسلمة بوضع المنكير على أصابعها لكن عليها أن تـدرك أن المرأة هناك لا تصلي – أما أنت هنا مسلمة عليك أن تحافظي على خمس صلوات في اليوم والليلة ويتطلب الأمر أن نتوضـئ والمنكيـر يمنع وصول الماء إلى جلدك – ويكون الوضوء باطلاً وبالتالي تكـون صلاتك باطلة – إذًا لا تضعي المنكير لأن لك عقيدة إيمانية لهـا قـيم وأخلاق وشعائر تمارس. لهذا فلا يتفق وضع المنكير على الأصـابع لأنه لا يتفق مع الدين وقيمه. وكانت جدتنا في الماضي تستعمل الحناء. وليس فيها ضرر كما في المستحضرات التي تستعمل حالياً.

٢) المرأة هناك تلبس الميكروجب. والحذاء العالي – والصدر المفتوح من الأمام والخلف – والإسلام يرفض ذلك رفضًا قاطعًا. لأن جسد المـرأة

كله عورة. وهذه صيانة. وحفاظ على كرامتك حتى لاتتبعك العيون الجائعة والنفوس الضعيفة.

٣) المرأة هناك تذهب إلى حفلات رقص – ومسابقة الجمال – وجمال السيقان – وجمال العيون – وجمال التسريحة – وغير ذلك. والإسلام لا يقر ذلك أبدًا. لأن المرأة الحرة لاتكشف جسدها للغريب مهما كان الغرض.

٤) المرأة هناك تذهب إلى الكوافير – وخياط النساء ولبيس الأحذية.وتتخذ الأصدقاء. وقد تسافر معهم – والإسلام يرفض كل ذلك.حفاظًا على عفة المرأة وصيانة لها من الابتذال. فهي في نظر الإسلام جوهرة غالية جداً يجب صيانتها.

إن لفظ "الحضارة" التي تتغنى بها المرأة في الغرب – والتقدم – والرقي – ألفاظ مطاطة لا معنى لها – لأن الحضارة – والتقدم – والمدنية – هي قيم وأخلاق عالية وطهارة نفسية وعفة قلبية– وليس في ما تمارسه المرأة هناك قيم أخلاقية وحفاظًا على المرأة – إننا نريد لنسائنا هنا في الشرق أن ينهضن فعليهن أن يتخذن الوسائل من شرع الله وهدى نبيه صلى الله عليه وسلم – وليس هناك من يحول بين المرأة وبين تقدمها ورقيها مايمنعها مادام ذلك في حدود شرع الله– لأن النساء كما يقول ربنا سبحانه "ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف" فهن مشاركات في بناء الدولة – بحسن تربية الأولاد – وتهيئة الجو الهادئ للرجل الذي يسعى عليها وعلى أولادها ليفكر وليخترع ويبتكر. ولن يتمكن من ذلك إلا إذا كان هادئ السر آمن على بيته وأسرته والقرآن يقول

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ

﴿ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾[74] لينهض النساء ما شاء لهن أن ينهضن وتنزل إلى ميدان العمل الذي يتفق مع تكوينها وقدرتها وتحافظ على بيتها وتربية أولادها وتحافظ على كيانها الاجتماعي وشخصيتها وتتفوق في مجال عملها إن أمكنها ذلك وعلى قدر استطاعتها - ففي نهوضهن نهضتنا. وبلوغ غايتنا ولكن ليحذر المنادون بتحرير المرأة والدفع بها أن تزاحم الرجل في المواصلات العامة - والوظائف الخاصة- وما شاكل ذلك ويكون ذلك على حساب بيتها أو كرامتها. لأن المنادين بذلك عند بعضهم التواء قصد - وانحراف في الهدف - إن المدنية الغربية تريد للمرأة في الشرق أن تكون ربيبة كأس مخمورة ليل - ليسهل على الرجل اصطيادها لقضاء مآربه - يريدها في المكتب لنفسه - وفي الشارع لإشباع رغبته - يريدها للبار ليربح من ورائها - يضعها في فترينة عرض بضائعه ليربح - يقيم لها شركات تأمين على "عيونها" "سيقانها" ليضعها على غلاف إصداراته - من مجلات - وجرائد -وإعلانات ليزيد في أرقام مبيعاته. وهي في كل ذلك لا رأي لها - لأنهم قالوا لها - أنت والرجل سواء - لذلك زجوا بها إلى محل الكوافير - فلما لم يجد لها لحية ولا شاربًا. خضب خديها - وعطر شعرها ووضع الأصباغ على وجهها وفوق جفون عيونها - إنهم بذلك قيدوها بقيود من حديد - لأنهم ذبحوا العفة والفضيلة في نفسها- فهم بين لحن النغم ونشوة الإعجاب دخلوا بها إلى حانات الخنا وهناك يعلن عن ذبح الطهارة - وتكلف برفع الحجاب. وقالوا لها "لفي به

---

[74] ( ) سورة الطلاق ٦-٧

المصحف واجعليه في بيتك بركة – لقد ضحكوا على البله من النساء – فيا بنت الشرق – أنت قوام الأسرة وعمادها – وآمال الأمة بين يديك من علماء المستقبل وقادته – فمن غيرك يرعى النشئ – وأنت مربيته. ومن غيرك يرعى النبت وأنت تربته – أنت المدرسة الأولى للأخلاق وغرس القيم وتنميتها في نفوس الأولاد– لأنه من عقلك أشرقت شمس المعرفة. فعلى تربة الأم الطاهرة نشأ الأنبياء الذين تلقوا أمانة الله الغالية – فأنت أنت الراعية والمعلمة والمربية فحصني نفسك بوحي السماء وهدى الأنبياء تسلحي بالمعرفة الصادقة والأخلاق الكريمة – واعلمي بأن الإيمان بالله صمام آمن يحقق لك ما تحلمين به من سعادة وكرامة وحضارة وتقدم لأن المرأة العظيمة هي التي تدرك أن مكانتها الصادقة ومجدها المتألق – وحريتها الحقيقية المصونة المنضبطة على تعاليم الله وهدى أنبيائه. أما الحريات التي تتغنى بها المرأة في الغرب فما هي إلا قيود للمرأة وعودة بها إلى عصر العبودية حيث جعلوا منها – مسلاة لمجالس لهو الرجال تهز وسطها أمامهم. وهي شبه عارية والذين يبيعونها يحاولون إضفاء جمال مصطنع عليها فيلبسونها ملابس مزركشة لتظهر بزينة مصطنعة وكل ذلك تدليس عليها وتمويه – والذين دفعوا بها إلى ذلك غرضهم خبيث – فهم فعلوا فيها هذا حتى ينسوها مجدها وماتتسم به من خلق نبيل. ثم تناست هي أنها بنت الشرق ولها دين تعتز به ونبي تؤمن به. إن الإسلام كرمها وأتمنها على ودائع الله – رجال الغد – ونساؤه – صناع المجد – وربات الطهر ومدرسة الأخلاق للجميع. إننا نتطلع إليك يا بنت الشرق – لتري الدنيا من أبنائك ما رأت من جدتك العربية بالأمس حيث أنجبت من كان يصون الحق – ويحفظ قداسة العدل – ويرفع لواء الرحمة ويصيح في وجه الظلمة. "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا، ومن أجل ذلك زود النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وأتباع دينه بنصائح غالية جدًا بخصوص المرأة – وحرص

الإسلام على أن تكون الحياة الزوجية قائمة على المودة والرحمة – ورعاية كل شخص لحق الآخر – إن الإسلام لا يرضى بالحرية التي تهدر كرامة المرأة – وتدخل على الأسرة من ليس منها. ولا يقر المساواة الكاذبة التي تقوم على الغش والكذب والخداع. لأن المرأة لها حالات ليست عند الرجال. فالإسلام راعى هذه الخصوصيات وأوصى أتباعه بذلك.

خدعوك فقالوا

الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم – أهدرا كرامة المرأة كيف؟ هـذا رأيهم فماذا قالوا؟

١- أباح للرجل أن يتزوج – بواحدة – أو اثنتين – أو ثلاثة – أو أربع – بحيث لا يزيد على أربعة نساء وهذا ظلم للمـرأة. وهكـذا قـالوا – ويرددون أن نبي الإسلام قد تزوج بتسع.

٢- الإسلام منح الرجل واحدًا صحيحًا في الميراث – والمرأة نصفه.

٣- أباح الطلاق – وجعله بيد الرجل. وبهذا تكون المـرأة فـي قبضـة الرجل.

٤- أباح للرجل أن يتعلم – ومنع المرأة من التعليم – وجعلهـا منجبـة للأولاد قعيدة بيت لا رأي لها. ولا تشارك في أي اجتماع أو في عمل اجتماعي.

٥- أباح للرجل أن يعمل – ومنع المرأة من العمل ذلك.

وقبل أن نوضح رأي الإسلام في ذلك نأمل من كل مصـلح أن يرفـع لواء الحق ويتمسك به ليتحقق للإنسانية أسباب الأمن والاستقرار. والتعـارف على الحق أمر مهم لأن البشرية إذا تمسكت بالحق – وأخذوا أنفسهم بتعاليمه – صان الحق والعدل وصان المجتمع من أي خلاف قد يقع بيننا فنحن بشر ولسنا بملائكة – لكن علينا أن نؤكد – بأن اختلاف الرأي لا يفسـد للـود قضـية – والإسلام هو الذي يعصم الإنسانية من التردي في مهاوي الضـلال... بمـاذا؟ بحقائقه الواضحة. ومبادئه القيمة– وصـلاحيته للإنسـانية علـى اخـتلاف

العصور.والأزمان. لقد امتدت رسالة الإسلام في شرق الدنيا وغربها – وجنوبها وشمالها– وهي تتطلب من البشر أن يعلنوا إيمانهم بالله. ليس عن طريق الإكراه – أو الضغط النفسي. وإنما عن طريق التأمل في كون الله.وفي هديه للأنبياء. وأن يدركوا أنّ عمل الدين مقرون بالسعي للدنيا مع التمسك بالحق – والعدل – والإحسان إلى الغير. والتسامح لمن أساء إليك وحسن العشرة. إن الإسلام في مقدوره أن يصحح أخطاء الناس. وأن يردهم إلى الحق وأن يبصر غيرهم بالصواب. بشرط أن يحكموا الإسلام فيما شجر بينهم من خلاف . وعندما يستعملون عقولهم – وينشرون فوق رءوسهم راية الإيمان بالله. وتطبيق أسس العدالة – والمساواة – والإحسان. والإيمان ما وقر في القلب. وصدقه العمل. عندئذ يسود العالم العدل والسلام والأمن والاستقرار.

وتنظر فيما خدعوك به

١) أباح الإسلام للرجل أن يعدد من زوجاته – فيتزوج بأكثر من واحدة ويجمع بينهما في وقت واحد بحيث لا يزيد عن أربعة نساء عند القدرة على تهيئة الحياة الكريمة من سكن وخلافه.

الجواب:

أعداء الإسلام خيل إليهم أنهم أمسكوا بجريمة لا تغفر. وراحوا يطبلون ويزمرون ويقولون للعالم– هذا خطأ. وهذا إهانة للمرأة – ونقول نعم– تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نتمسك بالحق ونلتزم به. هل الإسلام وحده هو الذي أباح ذلك؟ لا.

١) لأنه كان تعدد الزوجات من الأمور الشائعة في العالم. قبل أن يبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن هناك حد يقف عنده الرجل. فقد يجمع

الرجل بين عشر نساء في وقت واحد كما حدث من "**غيلان بن سلمة – فقد أسلم وعنده عشر زوجات. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم- أمسك عليك أربع وسرح ستة بإحسان**"[٧٥] وسرح " يعني طلق" الباقي وأعطيهن حقهن وأعد لهن السكن.

ولكن أحب أن أقول للذين اتخذوا التعدد في الزواج غرضا للتطاول على دين الله الذي بعث به الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين – وهذا الدين جاء ليعالج مشاكل المجتمع الإنساني كافة- فهل يعالج مشكلة على حساب مشكلة أخرى أم يعالجها في بيئة محددة ويتركها في بيئة أخرى – لا- لأنه رسول للإنسانية كلها- ودينه دين عام يعالج المشاكل على مستوى العالم كله- ومشاكل الزمن متجددة دائما – فماذا نفعل؟- إذا تزوج الرجل بامرأة واحدة وأصيبت المرأة بمرض يحول بينها وبين صلاحيتها كزوجة يصون بها الرجل عفته؟ -أنقول له طلقها وأقذف بها إلي الشارع- وقد تكون وليس لها قريب يأويها ويحميها. وهنا نقول عن الذي تنكر لزوجته وقذف بها إلى الشارع -إنه أنكر الجميل ونسى ما بينه وبين زوجته ولم يتذكر العشرة الماضية- ونسى قول الله سبحانه "ولا تنسوا الفضل بينكم" أم نقول للرجل -ابق عليها في بيتك- وأقم علاقة غير شرعية مع أي امرأة أخرى- وعربد- كما يحلو لك. أم نقول له – اقبل هذا الوضع واستقم؟- إن أقررنا طردها – هذا حرام- وجريمة اجتماعية لا يقر ذلك دين – ولا خلق- إن أقررنا الفاحشة – فإن الرجل والمرأة يتعرضان لحياة ليس فيها استقرار ولا هدوء نفس- ولا أمن-ولا راحة ضمير وهل تقبل المرأة المريضة أن تكون زوجة تعاشر زوجها امرأة أخرى في الحرام أو ما شاء بلا عد. وهل ترضى أن تعيش تحت سقف بيت مع رجل خائن- أين قداسة الأسرة وطهارتها. إذا الإسلام أباح التعدد وفاء لمصلحة

---

(٧٥) رواه الترمذي.

الناس. ورعاية لشئونهم -لكن التطاول على دين الله باسم حماية المرأة من الزواج عليها بدون فهم للرأي. فذلك أمر نرفضه لأنه صادر من شخصيات لم تحلل رأى الدين ولم نتعرف على الأسباب - إن المرأة ما عرفت نعمة الحرية والكرامة إلا على يدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وما عرفت إنسانيتها إلا يوم أن أشرقت على الدنيا شمس رسالة الإسلام ثم ماذا نقول لرجل يريد أن يوثق صلته بالعائلات فرغب بالزواج من بعض العائلات لتوثيق روح المودة والألفة- وقس على ذلك حالات كثيرة تعرض وتتطلب حلاً -والإسلام جعل لكل مشكلة حلاً. وأي امرأة- أو فتاة تقبل أن تكون زوجة ثانية مع أخرى - فذاك لمصلحتها هي- فهي تفضل أن تكون زوجة ثانية بدل أن تعيش وحيدة منبوذة من الناس وتحمل لقب عانس أو مطلقة- أم نقول لها عيشي مع أخرى هي أختك في الإنسانية وعيشي في بيت طاهر يعدل راعيه بينكما ويقوم برعايته رجل. يعدل - ويقسم بالسوية- ويكون هذا أفضل من أن يكثر عدد النساء غير المتزوجات عدداً يهدد المجتمع ويكون قنبلة موقوتة إذا انفجرت حطمت المجتمع ودمرت الجميع.

إننا نعلم أن الرجل هو الذي يتحرك في الحياة ويخرج إلي ساحات الحرب وميادين القتال - ومن لم يمت بالسيف مات بانقلاب سيارة أو تصادم قطار أو غير ذلك فماذا نصنع في عدد الأرامل -هل نقول للأرملة كفي وعيشي راهبة. وقد يكون ليس لها أولاد- فهل من الوفاء للزوج أن تعيش زوجته من بعده تحصى عليها حركتها وسكنتها من جيرانها حتى وإن تطلعت من الشباك. يقال عنها -إنها تنتظر قادم إليها أم تغلق على نفسها حتى تموت وحيدة ولا يشعر بها أحد- إلى أخر ما هناك. لذلك نحن نعلم أن النساء أكثر من الرجال -فهل من العدل أن نغلق باب التعدد ونبيح الانحراف- إلى من تتجه المرأة التي لم تتزوج هل نحرم التعدد -ونبيح البغاء باسم المدنية- إن المرأة

العاقلة لا تقبل هذا أبداً لأنها حرة لا تبيع شرفها ولا تهدر كرامتها إذا ماذا نعمل؟ لا شك أن التعدد أفضل الوسائل -لأن في ذلك مصلحتها أولاً. إن قداسة الأسرة وطهارتها تهم المرأة لأنها تحافظ على كيانها وتحوطها بالرعاية. ومع كل ما يثار حول مشكلة التعدد من الذين لا يفهمون أسباب التعدد-نسائلهم- أين المشكلة التي ظهرت من التعدد؟ أطلبوا إحصائية عن التعدد-وسوف يتبين لكم أن عندنا مشكلة عنوسة. لقد كان المفروض في المجتمع أن يتدارس مشكلة العنوسة ويعمل على حلها.لا أن يتكلموا في التعدد وهو حالات نادرة ومن الضآلة بمكان والذين أنكروا التعدد بالأمس يبحثون الآن عن أسلوب يبيحون لأنفسهم أن يعددوا لأنه تبين أنه أحسن علاج لمشاكلهم. ونؤكد على أن التعدد ليس من شعائر الإسلام. بل إن الله ضرب حوله نطاقاً محكماً, وقيده بقيودٍ. حيث فرض العدل والمساواة واجتناب الانسياق مع الهوى. والحذر من كل ما من شأنه يثير الغيرة والحقد ويحرك نوازع الضغينة بين زوجاته -وكم في الناس من يقوي على ذلك- وأي شخص يستطيع أن يغلب هواه ويقود نفسه إلى الخير ويحقق نظام العدل ويكون لديه القدرة فليقدم على التعدد مع مراقبة الله. لهذا جعل الله البقاء على زوجة واحدة أفضل. إشفاقاً على الرجل وحرصاً عليه حتى لا يقع فيما يغضب الله. لهذا قال الله سبحانه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾[٧٦] هناك أناس لا يمكنهم الاكتفاء بواحدة نظراً لتكوين أجسامهم - ولا يصبرون على قضاء وطرهم- والمرأة في حال عذرها وما ينالها من أوجاع وآلام - ويضطرها ذلك إلي اعتزال فراش الزوجية شهوراً والرجل يعيش عيشة الأعزب. وهي عيشة لا يستسيغها الرجل

---

(٧٦) سورة النساء الآية٣

الذي عرف الزواج فهؤلاء يراعي أمرهم- إن الإسلام أحاط الإباحة بشــرط العدل بين الزوجات في كل شيء - ولهذا قد تغــري المــرأة زوجهــا فــي الانصراف إلي غيرها- وهي راضية وقد ذكر ذلك الكاتب الأوربــي (مســيو لايلاى) في كتابه العمال في الشرق فيقول "يحرص الشرقيون على أن يزوجوا بكر الأسرة في بواكير أيامه لذلك ترى امرأته بعد تتابع الحمــل والوضــع - تسرع إليها الكهولة- بينما زوجها نضراً فتياً- فلا يدع أن يعوزه الزواج بغيرها وهو إذا هم بذلك فإنما يصدر في أكثر المواطن عن رأى زوجته. وقد يعجــب الباحث من أن تغرى المرأة زوجها بالانصراف إلي سواها, على أنه لا عجب في ذلك فإن ربات المنازل في الجماعات الزراعية الإسلامية. عماد البيــوت، وقوام أمرها فإذا انشغلت المرأة بتربية أبنائها. والانصراف إلي شئونهم. فليس هناك من يشد أزرها في مهمة بيتها -إلا الجواري- أو بعض بنات عشــيرتها. وقد لا تجد المآزرة من بنات العشيرة. كما قد تضيق اليد عن شراء الجــواري. فليس هناك إلا أن تشير على زوجها بالزواج بأخرى عليها حتى تــؤدى حــق الأمومة لأولادها -وتضمن أن زوجها ينال حقه- رعاية كريمــة مــن امــرأة فاضلة. تحافظ على بيتها طاهراً نقياً وها نحن اليوم نشهد ما يقوله أهل الغرب عن نظام التعدد- وهم ساعون لتحقيقه وتطبيقه. هذا أمر الله الذي نبهنا إلي ما فيه الحفاظ علي الكيان الاجتماعي وصدق الله العظيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٧٧).

إن الله بحكمته وعدله جعل الرجل عنده استعداد لوظيفة الإنجاب من سن البلوغ إلي نهاية العمر حتى لو بلغ الرجل مائة عام -أما الأنثى فينقطع استعدادها للإنجاب بعد سن الخمسين غالباً- أن المرأة تنتابها حالة النفاس بعد

(٧٧) سورة النساء ٨٢

الوضع -ومن مصلحة المرأة التي وضعت أن لا يقع حمل أثناء الرضاعة عليها لمدة سنتين-لأنه في أثناء الحمل إن كانت ترضع فقد تم اغتيال أحد الطفلين وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله "**لا تقتلوا أولادكم سراً فإن الغيل يدرك الفارس فيدعثره**" [٧٨] وهذا التوجيه دليل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته فيأمرها بما يصلح شأنها ويقوي جسدها - ويمنحها القوة- وينهاها عما يضر بها ويوهن جسدها ويضعف قوتها وذلك لان المرأة التي تحمل وهي ترضع فذلك قتل لأحد الطفلين ويفعل في الوليد مثل ما يفعل من يصرعه الفارس عن فرسه كأنه يدعثره - لذلك أرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم إلي تركه- حماية للرضيع من الضرر- إنه في حالة النفاس والرضاع - يحتاج الرجل لإشباع رغبته إن لم يكن في كل يوم ففي كل أسبوع علاوة على أنه يوجد في النساء الزاهدات في العلاقة مع الرجل وعدم استعدادهن للحمل والولادة, و القيام بحق الأطفال. لأسباب نفسية أو اجتماعية ثم إن الأصل في السعادة الزوجية والمودة البيتية هو أن يكون للرجل زوجة واحدة وهذا ما أشار إليه قول الله سبحانه ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [٧٩] وقوله سبحانه ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [٨٠].

---

(٧٨) رواه أبو داود

(٧٩) سورة النساء ٣

(٨٠) سورة النساء ١٢٩

ولما كان الذي يعدد لا يسلم من الظلم المحرم لهذا لم يوجبه الإسلام – ولم يندب إليه فعلي من يريد التعدد أن يتروى ويدرس وضعه الاجتماعي والمالي– لأن الذي يعدد عليه أن يراعي آداب الإسلام في معاملة النساء. إن قاعدة اليسر في الأمور كلها – ورفع الحرج من القواعد الأساسية لبناء الإسلام الذي أرسي قواعد العدل والإحسان والرفق والتعاطف والمودة والرحمة. إن القرآن رسم لنا طريق الخير وجاء بالكمال في التربية التي يسعد الفرد بها والجماعة تحت رايتها – إذاً فلا بد من الالتزام بها لأن القرآن هو منهج الإسلام الذي هو كلمة الله الخالدة– والأخيرة التي ختم الله بها الرسالات لذلك كانت شريعته عامة تتسع للدنيا كلها ولكل زمان ومكان للحضر والبدو, للأقاليم, الحارة, والباردة, والمتوسطة ويحقق السعادة عند الالتزام بها للفرد وللجماعة ويقدر حاجتهم – هناك من الرجال من يحتاج إلي مولود– ذكر أو أنثي يملأ حياته ويرثه بعد موته ويكون امتداداً له بعد وفاته لكن زوجته مرضت بعد زواجه أو هي عقيم لا تنجب هل نقول للرجل طلقها وتزوج أم يكون من الأكرم لها والأفضل لهذه المرأة أن يتزوج عليها وتبقي هي كريمة عزيزة مع ضمان حقوقها وقد يكون عدد النساء اكبر من عدد الرجال في أعقاب حرب فيكون الأفضل للمرأة أن يكون لها ضرة من أن تعيش عانس تتألم من مرارة الحياة وقسوتها وقد تخرج المرأة في هذه الحالة على مبادئ دينها وقيم مجتمعها وتبيع عرضها ومن الذي يدفع إنه الرجل الذي يغش زوجته ويتخلى عن قيم دينه وعادات قومه, إن الأخلاق لن تصان إلا إذا توافر للأسرة حياة الكرامة المقدسة في ظل جوها الطهور. إن الإنسانية اليوم تعاني جواً عاماً من فساد الأخلاق قلب أمنها إلي خوف وقلق واضطراب وسلامها إلي حرب ودمار وهلاك ويمكنك في ضوء هذا أن توقن أن التشريع الإسلامي هو الحكمة بعينها وفيه الحفاظ على كرامة المرأة ولا يقول"بأن المرأة حرة" نعم هي حرة لكن حريتها

لابد أن يتوفر معها كرامة الإنسان, لأنها ليست حرية مطلقة ولا انسياق أعمي وجرى وراء نظرات هدامة وتقليد لأمور فاسدة وغاب عن رأى المرأة إن الحرية المطلقة بلا ضوابط لها إنما إذلال لها ومهانة. حيث سدوا أمامها أبواب الطهر, وزجوا بها في مجال الفسق والخيانة ومجالات الشر.

إن تقييم – درء المفاسد مقدم علي جلب المصالح– وهذا أمر متفق عليه والإسلام دين يلائم الفطرة ويعالج مشاكل الواقع لأنه كلمة الله الخالدة لذلك عند تعدد الزوجات وإباحته راعي مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ومصلحة المجتمع ولأن التعدد يكون تأميناً للفرد وحتى لاتلجئه الظروف للخيانة والبعد عن الطريقة الأحسن نحو الحل العادل والبلسم الشافي لهذا حكم به الإسلام إباحة وصدق الله العظيم ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[81]

العدل شرط

عندما أباح الإسلام التعدد لظروف معينة – فإنه وضع من الضوابط والقواعد ما يلزم المؤمن أن يعدل بين نسائه لأن الله سبحانه أمر بالعدل ونهي عن الظلم ولهذا حذرنا ونبهنا إلي ذلك بقوله سبحانه ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ [82] والرسول عليه الصلاة والسلام هو المفسر للقرآن الموضح لآياته فقد وضح لنا ذلك بقوله **"من كانت له امرأتان يميل لإحداهما على الأخرى جاء**

---

(81) سورة المائدة ٥٠

(82) سورة النساء ٣

يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطاً (٨٣) والميل هو الجور على حق واحدة لصالح الأخرى وأحد شقيه ساقط –أي مائل– ذلك لأنه لم يلتزم بأمر الله الذي أمر بالعدل – بين الزوجات– حتى لو اشتريت شيكولاته لواحدة وتركت الأخرى فأنت ظالم ولو اشتريت جلباباً لواحدة وتركت الأخرى فقد ظلمت ولهذا قال الله سبحانه﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾(٨٤) فالعدل مطلوب في الأمور المادية أما الميل القلبي فهذا أمر لا تؤاخذ عليه فلقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ثم يقول – "**اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلومني فيما لا أملك– فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك**" (٨٥) يعني هو يملك المال أما القلب فالذي يحركه –حباً– كرها– ميلاً– رغبة– هو الله رب العالمين فالله سبحانه ضرب حصاراً محكماً حول التعدد – وقيده بقيود ثقال– فلا يجوز لأي رجل أن يتزوج بأخرى إلا إذا عرف قدرته المالية وعقد النية على العدل والإحسان بين الاثنين, والعاقل يشفق على نفسه ويخاف من الانحراف– لذلك فهو يلتزم بواحدة ولا يميل ولما كان الإسلام أباح التعدد فقد أحاط ذلك بقيود حفاظاً على العلاقات الزوجية وتدعيماً لاستقرار البيوت, وأماناً للأولاد وحفظاً للروابط الاجتماعية والعلاقات العائلية.

---

(٨٣) رواه ابن حيان

(٨٤) سورة النساء١٢٩

(٨٥) أخرجه أصحاب السنن

هل الإسلام وحده هو الذي شرع التعدد

لا – فالإسلام عندما أوحى الله به إلي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان العالم ساعتها يبيح التعدد– بلا عدد ولا ضوابط –يقول الباحثون في طبائع البشر فتحليل نفسيه البدو والحضريين – إن تعدد الزوجات هو أثر ما كان عليه الناس– من استرقاق النساء – وقد اتخذه الأقوياء والأغنياء والملوك والأمـــراء للاستمتاع والخدمة– وجعلوه واجهة اجتماعية فقدماء اليونان كـــانوا يبيحـــون التعدد بغير حساب – والإسبرطيون أباحوا للمرأة أن تعدد– ولم يبيحوه للرجل –وكان بعض سكان العالم يبيحون العشيقات والخليلات ويمنعون التعدد– يقول الفيلسوف (هربرت سيتسر –الانكليزي في كتابه علـــم وصـــف الاجتمـــاع إن الزوجات كانت تباع في إنجلترا فيما بين القرن الخامس – والقـــرن الحـــادي عشر– وفي هذا القرن سنت الكنيسة قانوناً ينص علـــى أن للـــزوج أن يعيـــر زوجته لرجل أخر لمدة معينة أو حسبما يشاء والرجل المنقولة إليـــه يطعمهـــا ويسقيها ويكسوها– بل كان من سكان الريف الانجليزي رجال يبيعون نســـائهم بثمن بخس جداً[٨٦]. وفي سنة ١٥٦٧ ميلادية –صـــدر قـــرار مـــن البرلمـــان (الاسكتلاندي) "بأن المرأة لا يجوز أن تمنح أي سلطة على أي شيء"[٨٧] هـــذا هو حال العالم– فجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتعاليمه فيهـــا تكـــريم المرأة واحترام أحاسيسها ومراعاة لشعورها. وحفاظاً على كرامتها– إصلاح لم يعرف العالم له من قبل مثيلا– ونستعرض هنا ما نشرته الكاتبة الشهيرة (مس أترود) في جريدة "الاسترن ميل" في عشرة مايو ١٩٠١ نقتطف منه ما يـــأتي, لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل حيث تصبح البنت ملوثة بمواد تذهب برونق حياتها إلي الأبد– ألا

---

(٨٦) كتاب حقوق النساء في الإسلام للسيد/ محمد رشيد رضا ص٦٠وما بعدها بتصرف

(٨٧) المصدر السابق

ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والعفاف والطهارة- حتى إن الخادمة والرقيق ينعمان بأرغد عيش- ويعاملان كما يعامل أولاد البيوت ولا تمس الأعراض بسوء, نعم إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلا للرذائل بكثرة مخالطة الرجال- فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل على ما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها وسمعتها وغير ذلك كثير معاً كتبه المنصفون من أهل الغرب- حيث شعروا بأن الإسلام هو الذي كرم المرأة وحافظ على الجو الاجتماعي الطاهر لها لتعيش في أمن وأمان- فهل للمرأة في الشرق أن تعرف فضل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عليها علماً بأنه كان محرما عليها أن تلمس الكتاب المقدس عندهم فجاء القرآن- وهو كتاب مقدس -وفيه- سورة النساء الكبرى وسورة النساء الصغرى, وآيات كثيرة فيها ذكر النساء. بل اسم أنثى صراحة وهو اسم السيدة مريم – وأم موسى, وحاكمة سبأ, وغير ذلك كثير, والنبي صلى الله عليه وسلم وهو يصمم المسجد النبوي- الذي يجتمع فيه الرجال للصلاة خمس مرات في اليوم والليلة- وهو مكان اجتماع المسلمين للتشاور واستقبال الأجانب فيه- وعقد لواء الحرب- ولجان الصلح- ودار بيت مال المسلمين وما إلى ذلك, الرسول صلى الله عليه وسلم يخصص فيه باباً للنساء. كما أعطاهن الحق في الدخول من أي باب- لأن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المصلح الذي حرر العقول وسما بالأفكار- وأشاع جو الطهر والعفة واحترام المرأة ونهى عن الجور على حقوقها- وأنصفها- فيتبين لنا أن التعدد في الزوجات أبيح لحكمة اجتماعية- وصيانة للأسرة- في نفس الوقت راعى مصلحة المرأة وحافظ عليها- ثم وضع ضوابط وميزان عدل بين الزوجات هذا حكم الله سبحانه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[٨٨].

---

[٨٨] سورة المائدة ٥٠

لماذا عدد النبي صلى الله عليه وسلم

لقد عدد النبي صلي الله عليه وسلم من زوجاتـه- لحكـم عامـة- أو لتشريع إلهي يلغي عادات قديمة ويستبدلها بعادات حسنة- أو لتـأليف قلـوب حاقدة- فأراد صلى الله عليه وسلم أن يؤلف القلوب ويجمعهـا علـى الحـب والتعاون- ولتأليف قلوب الأعداء الذين لهم قدم صدق في إعلاء راية الإسـلام فيكون من حق هذه الشخصيات أن يكون لها صلة ببيت النبوة لأنها قدمت إلي الإسلام خدمات.

والتحليل لذلك

كان من حكم التعدد أيضاً- تدعيم روابط الصداقة بينه وبـين أتباعـه. كذلك ضم بعض النساء من الأرامل إلى بيته لرعاية شأنهن. ورعاية أولادهن. لأن أقاربهن لم يسلموا. وليس لهن راع. فكان بيت النبي العظيم سيدنا محمـد صلى الله عليه وسلم لهن, ولك أن تتأمل في حياته. فقد تزوج وهو ابن خمـس وعشرين سنة سيدة فاضلة- طاهرة- عفيفة- كانـت تلقـب فـي الجاهليـة (الطاهرة) وهي العظيمة الكريمة "خديجة بنت خويلد" وكانت ثيباً تبلغ الأربعين من عمرها وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في مرحلة الشباب. وزهرة شبابه ومستقبل أيامه وقد أحبها النبي الوفي العظيم لحسن سمعتها وما تتحلي به من شرف وكرم أخلاق وسمعة طيبة. وعاش معها أسعد أيام حياته. ولم يتزوج بغيرها طيلة حياتها. في نفس الوقت كان خال البال غير مشغول بسياسة الأمة وتربية الشعوب. ولنا أن نقف هنا طويلاً- سن الشباب- وفراغ البال- وراحة البدن ولم يتزوج النبي العظيم على السيدة الطاهرة أم المؤمنين الأولى "خديجة"

غيرها أمر يلفت النظر - وقد أنجب منها الأولاد ذكوراً و إناثاً- وقد أسلمت فور سماعها عن الوحي وأيدت النبي صلي الله عليه وسلم وآوته- وساندته- وساعدته- بكل ما تملك من نفيس وغال- ذلك لأن الله أبرأ نفسها وطهر قلبها- لأنها لم ترضخ للكهان. ولم ينعقد قلبها على غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم- وقد عاشت طول حياتها وهي مبعث غبطة للنبي صلى الله عليه وسلم وكانت تدخل السكينة والأمن النفسي عليه عند تدافع النوائب واشتداد الأذى على النبي صلى الله عليه وسلم فإكراماً لها وتقديراً لمكانتها ووفاء لها لم يتزوج النبي صلى الله عليه وسلم عليها حتى انتقلت رضي الله عنها إلي الرفيق الأعلى قبل الهجرة بسنة. هذا مع أن المشركين عرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم- في سن الأربعين- والخمسين- أن يزوجوه أجمل نساء العالم- صغيرة أو كبيرة- من العرب أو غيرهم- لكنه رفض وبشدة ولم يقبل ذلك لأنه شخصية معتدلة متوازنة- يقيم موازين العدل بينه وبين نفسه بالحق- (وهو سعيد مع زوجته خديجة رضي الله عنها).

بداية التعدد

كان النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه- وحياته في مكة كلها مشهود عنه ومعلوم للجميع بأنه -الصادق الأمين- الطاهر- النظيف- الذي عرف عنه واشتهر بأنه لم يشرب خمراً. ولم يجلس إلى كاهن -ولم يسجد لصنم- ولم يكن شاعراً أو راوياً للشاعر- ولم يتردد على صاحبات الرايات الحمر- ولا غمز امرأة ولا تواعد مع واحدة- وبقى وفياً للسيدة خديجة ولمعارفها مدى حياتها وبعد انتقالها إلى ربها مُرضياً عنها- فلما ماتت سيدتنا خديجة رضي الله عنها تزوج بالسيدة سودة بنت زمعة - وكانت متزوجة من ابن عمها- وأهلها وأهل زوجها على الكفر- وقد تربصوا بها عندما هاجرت إلى الحبشة وتوفى زوجها - وأهلها وأهل زوجها على الكفر- وقد تربصوا بها لأنهم استضعفوها وهي متقدمة في السن ليس لأحد من الرجال رغبة فيها -فماذا تصنع؟ كان صاحب القلب الكبير -والنفس العظيمة يرقب هذه السيدة المؤمنة الوحيدة -الخائفة من انقضاض الأهل عليها والفتك بها إن لم تعد إلى عبادة الأصنام. لهذا أضفى عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) الحماية - وتزوجها رعاية لأمرها وصيانة لها من الأذى الذي ينتظرها. هذه هي الزوجة الأولى بعد السيدة "خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. وفي مكة خطب السيدة الفاضلة الطاهرة العالمة المهذبة. الحصيفة السيدة/ عائشة رضي الله عنها -بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وأبو بكر رضي الله عنه- هو أول من أسلم من الرجال ومن أنشط الناس في الدعوة. دخل على يديه خلق كثير -ورجال من الأغنياء والتجار - وكان لكل واحد منهم دور في الدعوة إلى الله.

خطب الرسول صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة رضي الله عنها في مكة قبل الهجرة وكان سنها تسع سنوات "كما يقول البعض" - وهنا وقف بعض

من لم يقرأ التاريخ قراءة متأنية – ويقول- كيف يتزوج محمد طفلة – وهو صلى الله عليه وسلم عنده اثنان وخمسون سنة أو أكثر – فكيف نعيب على كبار السن الذين يتزوجون بالصغيرات ونقول ليس هكذا يكون الوضع الاجتماعي – وهم لم يحللوا تاريخ البيئة الاجتماعية التي عاشت فيها سيدتنا رضي الله عنها وهذا السن متلائم للمناخ الاجتماعي في حينه. وقد كانت سيدتنا مخطوبة قبل ذلك – يقول الذين لم يقرءوا تاريخ العرب ولم يحللوا المواقف لكنها صغيرة – لكن العرف السائد حينئذ في الجزيرة العربية أن البنت في هذا السن كانت تخطب بل وتتزوج وكان جسدها يسمح بذلك. وكانت سيدتنا عائشة رضي الله عنها مخطوبة لـ "جبير بن مطعم بن عدي" ولم يكن أسلم. ومع ذلك رضي سيدنا أبو بكر رضي الله عنه – وبقى على عهده – وفي يوم زار سيدنا أبو بكر رضي الله عنه أم خطيب أبنته فقالت "أم جبير" وكانت مشركة – يا ابن أبي قحافة لعلنا إن زوجنا ابننا من ابنتك تدعوه للدخول في دينك – فالتفت أبو بكر رضي الله عنه إلى " والد جبير – فكأنه أمّن على قول – زوجته – ثم أردفت نحن لا نرغب في مصاهرتك وكأن هذا بمثابة فك الخِطبة فالرسول عليه الصلاة والسلام – لم يخطب صغيرة – وإنما يخطب واحدة خطبها قبله صلى الله عليه وسلم آخر – وهي البنت الشابة الوحيدة التي لم يتزوج غيرها بكراً ولم يدخل بها في مكة – وإنما بني بها بعد أن استقر في المدينة[٨٩]. وهذا العمل فيه توثيق للصلة بين النبي العظيم وأبي بكر رضي الله عنه.

---

(٨٩) يراجع كتابنا أمهات المؤمنين وسيدات أخريات.

الهجرة وما بعدها

هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب – والتي تحولت إلى المدينة المنورة – بسيد الخلق وحبيب الخالق – حامل الرسالة الخاتمة الذي بعثه الله رحمة للعالمين – وجو المدينة في الدعوة غير جو الدعوة في مكة – لأنه في المدينة بدأ التشريع – مع تنظيم المجتمع من الداخل – والتنبيه على التعايش السلمي مع الآخرين والحفاظ على حقوقهم ورعاية أمرهم – ثم التخطيط لنشر الدعوة في خارج حدود المدينة – وأسلوبها – بالحكمة والموعظة الحسنة. والتخطيط لحماية المدينة من أهل الشرك بمكة الذين يتربصون بالدعوة وحامل لوائها وأتباعه – ويعمل المشركون على إبادتهم في المدينة وكان وحي السماء يتنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فيخاطب الذكر والأنثى والمرأة المسلمة عليها أن تتعلم أمور دينها فرضاً أو سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم – كيف تغتسل؟ كيف تتوضأ؟ كيف تصلي؟ كيف تصوم – هناك أمور تختص بها النساء فلابد أن تتعلمها كالطهارة من الحيض – والنفاس – والرضاعة – والعدة – والخلع – وغير ذلك. "ورجاء إلى وزارة التعليم العالي أن تخصص منهجاً تعليمياً للبنات يتضمن ذلك. وما يختص بالنساء".

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستحي أن يخاطب بذلك النساء كما كان أكثرهن يستحيين أن يسألنه عن ذلك وخاصة ما يتعلق بشأن المرأة فقط – وحدثوا بأن السيدة أسماء الأنصارية جاءت تسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن غسل المرأة من المحيض – فقال لها – تأخذ إحداكن ماءها وسدرها – فتطهر – فتحسن الطهور فتصب الماء على رأسها فتدلكه حتى يبلغ جلد رأسها ثم تصب عليها الماء – ثم تأخذ فرصة [٩٠] ممسكة فتتطهر بها – قالت أسماء.

([٩٠]) الفرصة الممسكة هي قطعة قطن مغموسة في المسك.

وكيف تطهر بها – قال سبحان الله [٩١] – تعجباً – تطهـري – إنهـا تطلـب التصريح – وهو صلى الله عليه وسلم يمنعه الحياء من أن يقول لهـا ضـعي القطنة الممسكة في المكان الذي يخرج منه الدم إتماماً للطهارة فكفتـه زوجتـه السيدة اللبيبة المعلمة العظيمة عائشة رضي الله عنها وأفهمتها وشـرحت لهـا وبينت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أشد حياء من العذراء فـي خـدرها فالرسول صلى الله عليه وسلم عدد من زوجاته لحكم اجتماعية حتى تكون كـل زوجة منهن معلمة لبنات جنسها نظراً لأن المرأة مشاكلها متعددة – كمـا كـن مفتيات للنساء – وكان بعض الرجال من أقاربهن يرجعن إليهن.

إن تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم بتوجيه من الله العلي القدير التي قال له ﴿ الرعد إبراهيم الحجر النحل الإسراء الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور الفرقان الشعراء النمل القصص العنكبوت الروم لقمان السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت الشورى الزخرف الدخان الجاثية الأحقاف محمد الفتح الحجرات ق الذاريات الطور النجم القمر الرحمن الواقعة الحديد المجادلة الحشر الممتحنة الصف الجمعة المنافقون التغابن الطلاق التحريم الملك القلم الحاقة المعارج نوح الجن المزمل المدثر القيامة ﴾[٩٢] فهذا الإخبار بحل الزوجات إنما هو تأكيد لحلهن ووصف كاشف للحال التي هي عليها – في نفس الوقت فيه رد على المتطاولين – والرد فيه إفحام لهم – ودليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم ملتزم بهدي السماء– وقد شرع الله ذلك لنبيه وأباحه له لحكم اجتماعية – فعلى النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يشغل نفسه

---

(٩١) رواه مسلم.

(٩٢) سورة الأحزاب ٥٠.

بالرد عليهم – ايزدادوا غما إلى ما هم فيه من غم – لأن الإباحة بهذا العدد لحكمة تخفى على الجاهلين – وهذه التوسعة على النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن لمجرد قضاء شهوته كما يقول أهل الضلال والذين يكيدون للإسلام. وإنما هذا التعدد هو علاج لحالات إنسانية – ورعاية اجتماعية لسيدات مسلمات ليس لهن عائل وتغيير نمط من العادات التي يتمسك بها الكفرة أعداء الدين – وهذا العلاج لا تجده إلا في ظلال بيت النبوة وفي رعايته لحق أصحابه الذين سبقوه بإحسان. والآية ٥١ من سورة الأحزاب ترسم السياسة التي يأخذ بها النبي صلى الله عليه وسلم هذا العدد من النساء. لأنهن إذا حاسبن النبي صلى الله عليه وسلم محاسبة الأزواج لأزواجهن – فسيكون ذلك عبئاً ثقيلاً عليه، لأنه هو الذي يحمل عبء الدعوة – وتنظيم المجتمع ونشر الإسلام ومتابعة الأعداء والتخطيط لحماية الوطن من كيد الأعداء.

إن الذين يجمعون ضده الجموع ويحزبون الأحزاب ليحاربوه عليه أن يدرب المسلمين ويعلمهم فنون الحرب وآدابها ومعاملة الأسرى. ثم عليه في نفس الوقت أن يخاطب رؤساء الدول الموجودة على خريطة العالم لأنه مبعوث للإنسانية كلها. ومتابعة ما يجرى حوله لأن الكفر كله ملة واحدة وهم يتعاونون مع بعضهم ويخططون للانقضاض على الإسلام وحامل رايته واقتلاع جذوره – فهل من يقوم بمثل هذا العمل المتنوع والذي يحتاج إلى عشرات الأشخاص في إمكانه أن يتفرغ للزواج والنساء وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بهذا العبء الاجتماعي مع أن بيته يضم هذا العدد من النساء وهن تسع سيدات من قبائل مختلفة وبيئات متعددة – وطبائع متنافرة. ومع ذلك استطاع أن يجمع بينهن ويؤلف بين قلوبهن – ويتعايشن في حجرات متلاصقة وليس بينهن إلا الحب والتآلف – لماذا؟ لأن الزوج الكريم يعدل بينهن ثم هو يقيم التوازن بين مسئولياته وبين نسائه فلم يقصر أبداً في أي ناحية، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكراً وصغيرة إلا السيدة الفاضلة/ عائشة رضي الله عنها وكان

زواجه منها قرة عين لصاحبه والمسلم الأول والمؤتمن على أسرار النبي صلى الله عليه وسلم وكان هذا التتويج بمثابة مكافأة لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه جزاء صدقه وإخلاصه ووفائه ومن حبه لأصحابه – كما أنه صلى الله عليه وسلم ساوي بين أبي بكر رضي الله عنه وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه – حيث تزوج بابنته والتي كانت متزوجة من سيدنا حسن بن حذافة وكان من السابقين إلى الإسلام. وهاجر معها – وشهد غزوة بدر – وتوفى بعدها في المدينة فلما انقضت عدتها – عرضها سيدنا عمر على سيدنا أبي بكر ليتزوجها – فسكت ولم يرد – فعرضها سيدنا عمر على سيدنا عثمان بن عفان بعد موت زوجته الكريمة الفاضلة سيدتنا رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سيدنا عثمان لسيدنا عمر – ما أريد أن أتزوج – وهنا وقفة عندنا مثل شعبي يقول –أخطب لابنتك – ولا تخطب لولدك – لأن الرجل الصالح والرجل الكريم الذي يخاف الله يخطب لابنته حفاظاً عليها ويتخير لها من يرعى شأنها – ثم إن سيدنا عثمان – كان يرغب في أن يتزوج بسيدتنا أم كلثوم – شقيقة زوجته الراحلة – ليفوز بشرف التزوج باثنتين من بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحظى بالنورين – وقد نال هذا الشرف العظيم ولهذا يقال "عثمان ذو النورين" – إذا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحكم عالية منها تأليف النفوس – ومكافأة أصحابه وتقريبهم إليه – وهذه سياسة علمها الله لنبيه صلى الله عليه وسلم.. حيث قال الله له ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[93].

(93) سورة النساء ١١٣.

إبطال عادات الجاهلية

كان العرب في الجاهلية يتبنون الأطفال ويربطونهم بأسمائهم – وصار هذا العمل عقيدة عندهم – يتخذون أدعياءهم أولاداً لأنفسهم يلصقونهم بهم – يدخلون بيوتهم بلا إذن ويطلعون على عورات بناتهم ونسائهم وهم يعتقدون أنهم أبنائهم. وهذه عادة جاهلية – فلا يجوز مطلقاً أن يقيد شخص ليس من صلبك على بطاقتك وتنسبه إليك على أنه ولدك – وهو ليس كذلك – كمن يأخذ ولداً من ملجأ – ويتبناه فهذا حرام – نعم أنا أكفله – وأدعوه لبيتي ليأكل مع أولادي – لكن – أتعامل معه على أنه غريب – لا يدخل على بناتي ولا زوجتي لأن هذا من فعل الجاهلية وقد ألغاه الإسلام. ونهى عنه – وحرمه – ولقد شاء الله سبحانه أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم – ابن متبنى – وأن يكون هذا الابن متزوجاً من سيدتنا – السيدة – زينب بنت جحش – وقد اقتضت مشيئة الله – أن سيدنا زيد ابن حارثة وهو الذي كان قد تبناه النبي صلى الله عليه وسلم – وما زال متبناة حتى نزلت الآية الكريمة ﴿ ٱلرَّحِيمِ أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

﴿ سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ المَائِدَةِ الأَنْعَامِ الأَعْرَافِ

الأَنْفَالِ التَّوْبَةِ يُونُسَ هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الحِجْرِ

النَّحْلِ الإِسْرَاءِ الكَهْفِ مَرْيَمَ طه الأَنْبِيَاءِ الحَجِّ المُؤْمِنُونَ النُّورِ

الفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ القَصَصِ العَنْكَبُوتِ الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ

الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر فصلت

الشورى ﴾[94]

وهــنــا حكم عظيمة أهمها:

١) ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه – لأن ذلك يفسد الجسد. ويجمع بين متناقضين فقلب يميل لعبادة الله – وقلب ينصــرف إلــى الهــوى واللعب – فكان من فضل الله على الإنسان أن جعل له قلباً واحداً فقط.

٢) فإذا كان لا يجتمع في جوف الرجل قلبان – فإنه كــذلك لا يجــوز أن تكون الزوجة أما – لأنه في ذلك قلباً للأوضاع – فالزوجة زوجــة – والأم أم فمن يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي فقد افترى كذباً – وقال قولاً منكراً لقول الله سبحانه ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ ﴾[95].

٣) ولما لم تكن الزوجة أما – وليس للرجل قلبان في جوفه – كذلك لا يكون الولد الذي يتبناه الرجل ولدا له كأنه من صلبه لايجوز ذلك أبداً – وما كان يفعله أهل الجاهلية من تبني أبناء غيرهم ومعاملتهم معاملة الأبناء من الصلب في الميراث – والدخول على النساء – فهذا تزييف للواقع – وتغيير للحقائق – وكذب وافتراء – وتضييع الأنساب – لذلك

---

(٩٤) سورة الأحزاب ٤-٥

(٩٥) سورة المجادلة ٢.

حرم الإسلام التبني ونهى عنه – هذا والعرب في الجاهلية فعلوه تحت قسوة الأمر الواقع الذي يعتمد على الاستكثار من الذكور حول الرجل. فهم زينة مجلسه وعزوته في المجتمع – فمن كانوا يتوسمون فيه القوة والشجاعة ألحقوه بهم وضموه إليهم وجعلوا له كل حقوق الابن من الصلب. لذلك قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سورة الفاتحة البقرة آل عمران النساء المائدة الأنعام الأعراف الأنفال التوبة يونس ﴾[96]–فكما أنه لا يكون للرجل قلبان – فإن التبني ليس من الحق في شيء – وإنما هو كلام لا دليل عليه – ولا صحة له ولا يستند إلى حقيقة – ولم يقم هذا الكلام على منطق سليم. وحجة واضحة – أما كلام الله فقائم على الحجة الواضحة والدليل القوي. وكان من عادات العرب – أن زوجة الابن المتبني لا تحل لمن تبناه وهذه قاعدة فاسدة باطلة – ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد تبنى زيد ابن حارثة قبل نزول الإسلام – وقد تلقى النبي صلى الله عليه وسلم وحي الله ليبلغه إلى الناس وأقام حياتهم على العدل – لم تعد الحاجة داعية إلى التبني والإبقاء عليه – لكن التبني عادة منتشرة في المجتمع وقد أخذت هذه الحالات وضعها المستقر – ومن العسير علاجها – لكن إذا قال الله حلت كافة المشاكل – ولقد جاءت الأوامر الإلهية بإنهاء هذه البنود المصطنعة. وإقامة علاقة أخرى. أساسها الدين – وتقوم على الأخوة الإيمانية. فتكون أوثق عرى.. وأقرب من قرابة النسب ولهذا قال الله سبحانه ﴿ هود يوسف الرعد إبراهيم الحجر النحل الإسراء

---

(96) سورة الأحزاب ٤.

الكهف مريم طه الأنبياء الحج المؤمنون النور
الفرقان الشعراء النمل القصص العنكبوت الروم لقمان
السجدة الأحزاب سبأ فاطر يس الصافات ص الزمر غافر
فصلت الشورى ﴾ (٩٧)

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم – قد تبنى زيداً بن حارثة والذي أهدته إليه السيدة/ خديجة رضي الله عنها – وكان حارثة – والد زيد قد علم أن ولده في يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فجاء والد زيد يطلبه. فقال النبي صلى الله عليه وسلم هو عندكم فخيروه فإن اختاركم فهذا له. ولكن زيدا وقد عرف أبوه وعمه وأخواته – ولكنه فضل بقاءه عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن قد نزلت الرسالة بعد. فاختار أن يقيم مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فأعتقه لأنه عبد – وتبناه – ولما كشفت الآية القرآنية عن بطلان التبني – فيترتب على هذا أن يلحق الأدعياء بآبائهم الذين ولدوا من أصلابهم وعلى فراش الزوجية. فذلك هو الحق – والعدل – لأن الله لا يقبل إلا الحق – فإذا لم يكن للأدعياء آباء معروفون لكم ولهم – كالابن اللقيط – أو الذي تاه من أهله. ولم يكن يعرفهم. فهؤلاء إخوانكم في الدين. ثم يذكرنا ربنا سبحانه بأنه يعلم ما في قلوبنا فلا تخفى الحقيقة أما ما وقع من خطأ فالله غفور رحيم.

حق الزواج بزوجة الابن بالتبني

لما كان التبني حراماً – وكان أهل الجاهلية – يحرمون زواج مطلقة الابن المتبني لأنه في عرفهم كالابن من الصلب – وتمكيناً لهذه العلاقة جعلوا

---

(٩٧) سورة الأحزاب ٥

للابن المتبني كل شيء كالابن من الصلب على قدم المساواة في كل شيء وكان لابد للقضاء على هذه الفكرة بمثل علمي تطبيقي يتم تطبيقه يــراه النــاس ولا يكون في صدورهم حرج من إلغاء هذه العادة ومن حكمة الله – أن زيــد بــن حارثة – متبني النبي صلى الله عليه وسلم تزوج بسيدتنا الفاضلة/ زينب بنــت جحش – والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي زوجها لزيد – وكانت سيدتنا زينب رافضة لهذا الزواج – لأنها حرة – من عائلة لها مكانتهــا الاجتماعيــة, وأن زيدا عبد – لكن القرآن أكد على أنه لابد من طاعة أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم – لأن الأمر ليس من عنده. في نفس الوقت هي قريبــة للنبــي صلى الله عليه وسلم. ولهذا تم الزواج – وقد اجتمع زيد العبد – مــع الســيدة زينب – العربية الأصيلة القرشية الحرة, ولكن لم يكن هناك توافق؟ لأن الزواج لم يقم على الكفاءة من أول الأمر. وقد تم الزواج لحكمة سوف تكشــف عنهــا الأيام فيما بعد. وأن لله سبحانه له حكمة لم يطلع عليها أحداً. لكن مايظهر لنا– هو– إذابة الفوارق بين الناس ونشر روح المساواة.

ولقد كانت هناك مفاوضات لإتمام الصلح بين الزوجين – مرة بعد مرة – ذلك لأن الإسلام أحرص ما يكون على توثيق العلاقة بين الزوجين. وعلــى التماس كل الوسائل الممكنة بأسلوب الناس للحفاظ علــى الكيــان الاجتمــاعي للأسرة ولكن اشتدت الخصومة ودب النفور بين سيدتنا زينب –وبين زوجها – زيد وحدث الطلاق – وبعد انقضاء العدة – أمر الله نبيه صلى الله عليه وســلم ليتزوجها وقد توقف النبي صلى الله عليه وسلم وتخوف ماذا يقول الناس عنــه تزوج مطلقة ولده. وهنا ثارت أسئلة – وتكلم المتكلمون بما يأتي:

١) هل كان هذا الطلاق بأمر الله تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من ربــه وحيا الجواب لا – لأن الله هو العدل والشريعة الإسلامية تقــوم علــى رفع الحرج ولو كان الطلاق بأمر الله لبين لنا حكمته ووسائله ونحــن

نؤمن بأن الله هو العدل – والإنسان حر فيتزوج بحريته وإن اشتد الخلاف وسدت أبواب الصلح فله حق الطلاق بحرية مطلقة من الإنسان ولو أغلق الله باب الطلاق لكان فيه جور وظلم على الإنسان وشريعة الإسلام أشد حرصاً على دوام العشرة – والحفاظ على الروابط الزوجية والتماس كل الوسائل الممكنة للحفاظ عليها. علماً بأن أبغض الحلال إلى الله – الطلاق – الذي أبيح عند الضرورة بأمر من العليم الحكيم.

٢) هل كان الطلاق لتحقيق رغبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه رأى السيدة زينب زوجة مولاه كما يقول أهل الضلال والنفاق ويقولون أن زيداً لما علم برغبة رسول الله فيها طلقها بعد أن اصطنع خصومة بينه وبين زوجته وتم ذلك لإرضاء النبي صلى الله عليه وسلم – الجواب كل ذلك – لا – لماذا لأن سيدتنا زينب رضي الله عنها قريبة للنبي صلى الله عليه وسلم وكان يراها كثيراً لكنه مشغول بمهام الدعوة وتعليم الناس ووضع الأسس لبناء الدولة، ثم هو متزوج من سيدات فضليات – والزواج ليس في باله – لكن أهل النفاق أخذوا الآيات القرآنية وفسروها على مزاجهم وهواهم – إن الزواج الذي تم بين زيد – وزوجته – هو من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر الله له – وهو زواج قام من أول الأمر على غير توافق وليس بينهما تكافؤ – لكن الزواج تم – وتعايش الزوجان ولم يكن أحد يدري ما سوف يقع بين الزوجين إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعلمه الله بما سيكون – ونؤكد على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمين الله على وحي السماء ومبلغ هذا الوحي بأمر الله – إلى الناس وهو الذي يمحو أفعال الجاهلية ويغير عقائدهم, ثم إن هذا الزواج تم بعد أن وقع الطلاق بأمر الله لتغيير نظم اجتماعية فاسدة. ليحل محلها نظام اجتماعي يتلائم مع منهج الله سبحانه. في هذا النظام الأمن النفسي للفرد والخير العظيم للمجتمع – وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة والأسوة – فبأمر الله – يتزوج رسوله صلى الله عليه وسلم بالسيدة

زينب – وهذا الزواج بأمر الله – أيتزوج رسول الله صلى الله عليه زوجة متبناة – وهذا غير مألوف بين الناس؟ نعم لأن هذا تشريع جديد لإبطال عادة التبني الشائعة في المجتمع – ويكون النبي صلى الله عليه وسلم هو القدوة للناس لأن التبني غلط وخطأ شائع بين الناس ولهذا قال الله (وما جعل أدعياءكم أبنائكم) لهذا جاء أمر الله بقوله سبحانه ﴿سُورَةُ الفَاتِحَةِ البَقَرَةِ آلِ عِمْرَانَ النِّسَاءِ المَائِدَةِ الأَنْعَامِ الأَعْرَافِ الأَنْفَالِ التَّوْبَةِ يُونُسَ هُودٍ يُوسُفَ الرَّعْدِ إِبْرَاهِيمَ الحِجْرِ النَّحْلِ﴾[98]

فالأمر من الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم منفذ لأمر الله. وقد رفع الله عن النبي صلى الله عليه وسلم الحرج فقال سبحانه ﴿الكَهْفِ مَرْيَمَ طه الأَنْبِيَاءِ الحَجِّ المُؤْمِنُونَ النُّورِ الفُرْقَانِ الشُّعَرَاءِ النَّمْلِ القَصَصِ العَنْكَبُوتِ الرُّومِ لُقْمَانَ السَّجْدَةِ الأَحْزَابِ سَبَأٍ فَاطِرٍ يس﴾[99] إن من شأن الإيمان الصحيح أن يقيم في كيان صاحبه ولاء خالصاً لله الذي آمن به لأنه لا إيمان مطلقاً إذا لم يكن هذا الولاء ركيزة له – وأساساً يقوم عليه الولاء – ثم إن ما يقرره الله سبحانه هو سنة كونية وقعت في الأمم السابقة وليس بدعاً من التشريع.

---

(98) سورة الأحزاب ٣٧

(99) سورة الأحزاب ٣٨

حدث ثارت حوله أقاويل

إن زواج النبي صلى الله عليه وسلم من مطلقة متبناة لإبطال عقيدة فاسدة وفكر منحرف أثار زوبعة مازالت تتردد حتى اليوم ولها صدى في عقول مشوشة ونفوس ضعيفة – وكأنهم لم يعلموا أن السيدة زينب بنت جحش – هي ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشاءت مشيئة الله أن تلغى فكرة التبني – وأن عدم زواج المتبني فكرة راسخة في الوجدان وهي باطلة – وإبطالها يحتاج إلى أن يقوم بتطبيقها على شخص عنده قوة إيمان. وليس هناك أقوى من رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو القدوة فأمر بالزواج من سيدتنا زينب حتى يتم إبطال هذه العادة. وقد تم هذا فعلاً وهنا ظهر الطابور الخامس في المجتمع الذين يكيدون للإسلام ؟؟ ويحاولون الإساءة إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبدؤا يروجون للإشاعات فقالوا بأن محمدًا صلى الله عليه وسلم رأى منها ما لا يجوز لرجل أن يرى من أي امرأة لا تحل له فأعجبه ذلك منها وتمنى الزواج بها – لكن كيف يؤجج نار الخصومة بين سيدتنا زينب – وزوجها زيد حتى يطلقها؟ وهل يعقل أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يضمر في نفسه غير ما يقول؟ وهل يعقل أنه تعلق قلبه صلى الله عليه وسلم بسيدتنا زينب وهو الأمين على وحي الله ثم إنه العطوف الرءوف بالإنسانية وكيف يقع منه هذه الشهوة وقد بلغ سنه أكثر من خمس وخمسين سنة. ولم يلحظ عليه أحد أن مثل هذا الحدث لم يقع منه وهو في مطلع شبابه. ولا في أيام في فراغه. أما الآن فإنه مشغول بالمسئوليات الضخمة والعبء ثقيل ومتزوج بعدد لا بأس به أمعقول أنه يترقب طلاقها وأنه أخفى ما بقلبه من حب لسيدتنا زينب التي كانت تعيش أمام عينه لأنها قريبته وهذا افتراء لأنه ليس هناك أطهر من النبي صلى الله عليه وسلم – ولنا أن نسأل هؤلاء الذين افتروا هذا الكلام

وروجوه وأشاعوه وكيف تصدق هذا. ونحن نؤمن أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم – رسول الله – والأمين على وحي السماء. فهل يجوز على رسول من رسل الله – أن يداهن – ويخادع – ويتمنى زوجة عبده الذي أعتقه، أليس ذلك مما يسقط المروءة لأي شخص بين الناس (فهل يليق) برسول الله صلي الله عليه وسلم وهو – سيد الناس، وأكملهم خلقا وأجمعهم لمكارم الأخلاق كلها – وثبت أنه (أعظم) الناس في حبه للناس أجمعين إذا هناك استحالة مطلقة أن يكون شيء مما قاله أعداء الإسلام قد خطر ببال النبي العظيم– أو ألم به– أو عرض في نفسه. وإنما الزواج تم لحكمة (تشريعية) وهى إلغاء التبني. وإلغاء فكرة التزوج من مطلقة متبناه (وأن أول من يتصدى لذلك شخصيته لها قدرها –محترم – كبير المقام– عفيف النفس) وليس هناك أطهر وأشرف وأقوى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما (علم أعداء الإسلام بهذا الرد) وبهذه الآراء– لجؤا لحيله أخري بأن زيدا أحس بأن زوجته لها رغبة في رسول الله صلي الله عليه وسلم فاصطنع هذه الخصومة بينه وبين زوجته ليطلقها– إرضاء للنبي عليه الصلاة والسلام.

وهذا الكلام لا يقبله عقل – ولا يقره فكر– وقد استدل القائلون بذلك بقول الله سبحانه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾[١٠٠] إن قول النبي صلي الله عليه وسلم لزيد– "أمسك عليك زوجك فهذا ما يقضي به الإحسان إلي زيد– لأن النبي صلي الله عليه وسلم يحبه ويرعي أمره– ومن هنا فهو يتوجه إليه بالنصح في أمر فيه صلاح حياته مع زوجه. وقول الله سبحانه "واتق الله" هو من كلام

---

(١٠٠)سورة الأحزاب ٣٧

النبي صلي الله عليه وسلم (لزيد) وهو معطوف علي قول الله "أمسك عليك زوجك" أي- اتق الله في رابطة الزواج- وقد قال بعض العلماء- إن قول الله واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس- إن الخطاب موجه إلي النبي صلي الله عليه وسلم من ربه وفيه توجيه للنبي صلي الله عليه وسلم أن يرفق بنفسه. لأنه أرهق نفسه في الصلح بين زيد وزوجته. وهو يعلم علم اليقين بأن هذا الزوج نهايته إلي الطلاق "وكان أمر الله مفعولا" ولأن الله سبحانه أخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن هذا الزواج سينتهي بالطلاق - وأنك يا محمد- سوف تتزوج زينب- وكان النبي صلي الله عليه وسلم يتخوف من الطلاق بين زيد وزوجته- لأنه سيتزوجها. وماذا يقول عنه الناس إذا تزوج بمطلقة متبناه- وهذا شيء لم يحدث في العرب ولأن المنافقين هم- والذين في قلوبهم مرض يتربصون بهذا النبي. (ويحاولون دائما افتراء) الإشاعات (خاصة مثل زواجه من مطلقة متبناه. وأنها سوف) تلاحقه (وأنهم سوف يروجون لها. لأن من يتزوج مطلقه متبناه . شيء يأنف منه العرب. ولم يمارسه أحدهم لأنه شيء مستهجن) في عرفهم إنه امتحان للنبي صلي الله عليه وسلم في لحظه حاسمة من مسيرة الدعوة إذا فليصبر- وليتحمل- ما دام ذلك أمر الله الذي لا راد لكلمته ولا معقب لحكمه- وعليه أن لا يلتفت إلي كيد أعداء الإسلام الذين لا يعرفون قدر النبي صلي الله عليه وسلم- إن الكل يعلم أن زواج زيد- من زينب كان زواجا يحمل في طياته دواعي الفرقة- وهذا من تدبير علام الغيوب- لتكون الوسائل معروفة للناس فليس هذا شيء يعرفه الناس (ويقروه فيما بينهم ويرضون به)- ثم إنك أيها النبي لست بدعا من الرسل في الامتثال لأوامر الله. فلا تلتفت لمقولات الناس فالله يعصمك منهم لأنك النبي المبلغ وحي الله. وليس عليك من حرج في التزوج بمطلقة متبناك- لإبطال هذا العرف وما كانوا يعتقدونه. وحتى يعلم الناس أن التبني حرام- لا يجوز تحت أي ظرف-

ولا في أي وضع- فالحق أحق أن يتبع لأنــه حكــم الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

ارحموا عزيز قوم ذل

لقد عدد النبي صلي الله عليه وسلم من زوجاتــه للمصــلحة العامــة- وليكون للمرأة دور في التشريع- من نقل أخبار رسول الله صلي الله عليه وسلم في بيته- وفي معاشرته لنسائه وكيفية نومه- ويقظته- وغسله ووضوئه، إلــي غير ذلك, ويتم نقل ذلك إلى النساء- لأنه صلي الله عليه وسلم هو القدوة- نتعلم منه- والدين جاء للرجال- وللنساء- والمرأة لها ظــروف خاصــة بهــا ولا تستطيع أن تتعلم الخصوصيات إلا من امرأة مثلها ثم كان زواجــه صــلي الله عليه وسلم وتعدد زوجاته لتعدد المدارس الفقهية فكل سيدة من أمهات المؤمنين كانت مدرسة فقهية- يعلمن النساء أحكام الدين- ثم الأخلاق- وكيفية معاملــة الأزواج وتربية الأولاد- والعناية بهم- مدة الحمل- وأثناء الرضاعة.

إن التشريع الإلهي يبيح لعباد الله ما فيه مصلحتهم- وربما تخفي عليهم حكمته وعلينا أن ندرك أن أعداء الإسلام- حاولوا- ويحاولون دائما أن يحرفوا كلام الله- ويحملوا الآيات علي غير ما جاءت من أجله- وتتبرأ من مفهومهم- ويتبرأ من هذا المفهوم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه- ثم يحاولون النيل من صاحب الخلق النبيل رسول رب العــالمين الــذي أدبــه الله فأحسن تأديبه. وقال له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[١٠١] لذلك فإن أعــداء

---

(١٠١) سورة القلم ٤.

الإسلام يخترعون الأخبار- ويضعون الأحاديث للنيل من رسول الله صلي الله عليه وسلم ولكن كيف لهم ذلك وقد قال الله سبحانه ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [١٠٢] فأعداء الإسلام علي كثرتهم مهما فعلوا وقالوا ورسموا ونشروا فإنهم لن يستطيعوا أبداً أن ينالوا من كرامة رسول الله الذي بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلي الله بإذنه وسراجا منيرا ورحمة للعالمين.

(إنه) لو كان عند هؤلاء الأغبياء عقل لقرؤا التاريخ وتعلموا منه الأدب ومخاطبة العظماء. وإذا لم يكن ذلك فانه لن ينفعهم علمهم ومهما حاولوا إلصاق تهم بشخصية عظيمة فلن يفلحوا أبداً خاصة وان أحد المنصفين منهم كتب كتابا- العظماء مائة -أعظمهم محمد بن عبد الله ألم يقرؤه؟ -لا- ولهذا قال الله (عنهم بأنهم) لن يفيقوا إلا إذا دخلوا جهنم (والعياذ) بالله- فساعتها يقولون ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[١٠٣] إن المشاكل التي تحيط بالمجتمع الإنساني كثيرة- فهذه- حروب مدمرة- وهذه حروب باردة- وهذه المخدرات وهي دعوة إلي التحلل من الأخلاق النبيلة لتظهر أخلاق الغابة- والحيوانات المفترسة فيسأل أحد فلاسفة الغرب- هل يمكن للمصلحين أن يصلحوا هذا الفساد الذي عم وشاع علي سطح الكرة الأرضية؟ ويقول من يدعو إلي الإصلاح لقد اتسع الخرق علي الراقع- ولكن (الفيلسوف "برناردشوا" يقول نعم)- فلو أن محمدا بن عبد الله حي وبيده كتابه

---

(١٠٢) سورة التوبة ٣٢.

(١٠٣) سورة الملك ١٠.

لقاد سفينة المجتمع إلي شاطئ الأمان وبر النجاة " كما قال أحد فلاسفة الغرب". (وهو غير مؤمن بنبي الإسلام) لكنه شهد شهادة حق ولهذا كان زواجه (صلي الله عليه وسلم) لحكم منها- إرحموا عزيز قوم ذل- ذلك- لأن سيدتنا "بـــرة" تزوجها النبي صلي الله عليه وسلم في السنة الخامسة مــن الهجــرة وســـماها "جويرية" وهي بنت الحارس سيد بني المصطلق- وفي غزوة بني المصطلق- (والتي جرت أحداثها) عند ماء لخزاعة يسمي "المريسيع" ووقعت سيدتنا أسيرة في يد "ثابت بن قيس بن شماس" فأرادت أن تفتدي نفسها فطلب منها- ثابــت- تسع أواقي من الذهب- فذهبت إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم تستعين بــه علي دفع الدية فلما وقفت أمامه قالت- يا رسول الله- إنـــي امــرأة مســلمة- وتشهدت وانتسبت وأخبرته بما يجري لها- وأنها بنت سيد قومها- واســتعانته في دفع الدية فقال لها- أو خير من ذلك. أؤدي عنك- وأتزوجك؟ فقالت نعــم- فطلبها من "ثابت" وتزوجها- وقال (الصحابة إن الأسري أقاربهــا أصــبحوا) أصهار رسول الله صلي الله عليه وسلم- (وهم الآن) تحت أيــدينا أســري- لا يكون ذلك أبداً ولذلك أعتقوا الأسرى (وحرروهم) وكانت سيدتنا "جويرية" خيراً وبركة علي قومها [١٠٤] ولما علم أبوها جاء إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال له- إن ابنتي لا يسبي مثلها. فخل سبيلها- فأخبره النبي صلي الله عليــه وسلم أن يخيرها- ولها مطلق الحرية- وهي حرة ففرح أبوها بذلك وذهب إليها يطلب منها أن ترحل معه- فقالت لا- لن أفضل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم أحدا أرأيت هذا الموقف من سيدة نبيلة لترد به علي مطلقــي الإشــاعات ومروجي الأكاذيب ممن ليس عندهم حياء (هذه بنت زعيم اليهود فضلت بيــت النبوة رغم ما به من شظف العيش وخشونة المعيشة بيت فيه الإيمــان والأدب فضلته علي بيت العز عند أبيها على الكفر)

---

(١٠٤) إمتاع الأسماع ج١ ص١٩٨-١٩٩ بتصرف.

وأما زواجه من سيدتنا "صفيه بنت حي" الإسرائيلية رضي الله عنها فكان في سنة ست من الهجرة- وكانت من ذرية نبي الله هارون- وكانت يهودية- من بني النضير- ووقعت أسيرة بعد قتل زوجها وكان اسمه ابن أبي العقيق- وكانت السيدة/ صفيه- رأت في منامها- القمر قد وقع في حجرها فلما أخبرت زوجها بهذه الرؤيا لطمها لطمة شديدة تركت أثراً في عينها- سألها عنها رسول الله صلي الله عليه وسلم فأخبرته بهذه القصة- وقد تزوجها النبي صلي الله عليه وسلم بعد أن وقعت أسيرة- وأخذها "دحية" لكن بعض الصحابة قالوا يا رسول - صفيه بنت حي- سيد بني قريظة وبني النضير وزعيم كبير من زعماء اليهود- وهي بالتالي سيدة بنت زعيم اليهود- لا تصلح إلا لك- فاسترجعها النبي صلي الله عليه وسلم (من) "دحية" وأعتقها وتزوجها- وكانت (تعتز) بنفسها-. لأن بيت النبوة (كل) من فيه من العرب- وهي يهودية- وقد عيرها البعض بذلك- فشكت إلي النبي صلي الله عليه وسلم فقال لها- ألا قلت- وكيف؟ وزوجي محمد- وأبي هارون وعمي موسي" ([١٠٥]) وكان النبي صلي الله عليه وسلم يكرمها ويعطف عليها- وكانت هي- صادقة في إيمانها- تقية- ورعة، وأما زواجه من السيدة ميمونة بنت الحارث- كانت أمها- هند بنت عوف- أكرم عجوز لها أصهار كرام- فسيدنا العباس عم النبي صلي الله عليه وسلم متزوج بأختها (وكانت أمها) ثاني امرأة بعد سيدتنا خديجة رضي الله عنها أول المسلمات- وقد ضربت أبا لهب بعمود فشجت رأسه لاعتدائه علي النبي صلي الله عليه وسلم- وشقيقة سيدتنا "أسماء" زوج جعفر بن أبي طالب- وسلمي بنت عميس زوج سيدنا حمزة- وخالة خالد بن الوليد الذي أسلم بسبب هذا الزواج- إن سيدنا العباس هو الذي سعي حتى تم هذا الزواج لأنه رأي أن هذا الزواج سيكون من ورائه مصلحة عظيمة- بسبب تأليف قلوب الكثير من

---

105 رواه الترمذي وقد ضعفه (البعض) ويراجع (في ذلك) كتابنا- أمهات المؤمنين

الشخصيات العظيمة والأسر الكبيرة- وشجعان العرب، وزواجه من السيدة رملة بنت أبي سفيان- أم حبيبة- (كان) لأسباب إنسانية- حيث أنها كانت متزوجة من عبد الله بن جحش وهاجر (بها) إلي الحبشة- وهناك تنصر زوجها- بعد أن أنجب منها إبنته "حبيبة" وتركها في غربة- علما بأن أباها "أبو سفيان" أكبر عدو للمسلمين يطاردهم- يعذبهم- ولو طالت يده ابنته لقتلها ومزق جسدها- فإلي من تذهب: إن بينها وبين رسول الله صلي الله عليه وسلم آلاف الكيلو مترات. هي في وحدتها- أصبحت في محنة رهيبة وموقف جعل الدنيا أمامها مظلمة ومع ذلك عندها أمل في الله- (وهي معتمدة) عليه- ومن المؤكد أنه إذا ضاقت الأمور فرجت لأن بعد العسر يسرا. لقد أرسل النبي صلي الله عليه وسلم إلي النجاشي ملك الحبشة وهو مسيحي وقد أنابه ليخطبها له. ثم وكله في أن يعقد له علي السيدة العظيمة- أم حبيبة- رملة بنت أبي سفيان- وخطبها النجاشي من جعفر بن أبي طالب زعيم الوفد الإسلامي ودفع النجاشي أربعمائة دينار لها مهرا- وقدم إليها هدايا نفيسة- وكانت الدنيا لا تسع أم حبيبة بهذا الزواج الذي تم في الغربة وقد وكلت عنها في عقد القران "خالد بن سعيد بن العاصي لأنه أكبر الوفد (سنا) والنبي صلي الله عليه وسلم" وكل النجاشي الذي أقام وليمة كبيرة وقال "سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يقدموا الطعام لمن حضروا (عقد) الزواج وكان هذا الزواج" فيه تليين القلوب النافرة -فعندما بلغ الخبر لأبي سفيان هذا الزواج قال -هذا الفحل لا يجدع أنفه- ونسأل- أهذا العمل أفضل؟ أم تترك أم حبيبة- في غربتها وحيدة- خائفة- أم تكون تحت رعاية نبي كريم وإن بعدت المسافات إنه زواج لإضفاء الأمن النفسي على سيدة في غربة في حاجة إلى من يعاونها ويحميها ، علما بأنها لم تلتق بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا بعد سنوات. فيا من تتحدثون بما لا تعرفون اقرؤا وافهموا واعقلوا لتعرفوا كيف تكون سياسة الشعوب وتربية الأفراد. وتكوين

المجتمعات. هذا النبي الأمي الذي علم الدنيا وحول العرب بفضل الله - وبتعليمهم القرآن- من رعاة غنم إلى قادة أمم- وكان فضل الله عليه عظيما.

وقد يكون زواجه صلى الله عليه وسلم- لرعاية الأيتام وكفالتهم كزواجه من سيدتنا- هند بنت أبي أمية المخزومية- أم سلمه. وكانت متزوجة من ابن عمها- عبد الله بن عبد الأسد- المخزومي- وهو وهي من السابقين إلى الإسلام- وهو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة وكان عبد الله من أول المهاجرين إلى الحبشة ومعه زوجته- هند- وقد أنجبا "سلمه" في الحبشة- ثم عادا من الحبشة. ثم هاجرا إلى -المدينة- وقد مات زوجها بعد غزوة أحد وترك من الأولاد سبعة ليس بينهم من يقدر على العمل- وبعد انقضاء عدتها- تقدم سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لخطبتها- ليحفظ ود أخيه في الإسلام ويرعى أولاده ويحوط البيت بالرعاية- لكنها رفضت- برفق ولين- فتقدم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولنفس الغرض الذي تقدم بسببه أبو بكر رضي الله عنه- فرفضت- ثم تقدم الكريم العظيم راعي الأيتام وكافلهم- سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يخطبها لنفسه- فقالت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني امرأة مسنة فقال لها أنا أسن منك وأكبر منك- ولا يعاب على المرأة أن يقال عنها تزوجت بمن هي أسن منه- ثم قالت أنا أم عيال أيتام- فقال لها فمن يكفل الأيتام غيري- وهم على الله ورسوله- وأما قولك إنك شديد الغيرة- فإنني أدعو الله أن يذهب عنك غيرتك.. فقبلت بعد هذا الحوار وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم[١٠٦] -كانت رضي الله عنها صوامة قوامة مرتلة لآيات الذكر الحكيم لها آراء كلها حكمة وصواب وصاحبة مشورة رضي الله عنها ولك أن تقلب في كتب التاريخ وتستنطق الشمائل فلن نجد إلا الكمال لسيد الخلق صلى الله عليه وسلم وأنه كان طاهر النية والقصد والغرض. وكان

---

(١٠٦) يراجع كتابنا أمهات المؤمنين ص ٨٥- ٨٦.

مشغولا بتنظيم المجتمع العالمي- لذلك خاطب الملوك والرؤساء. ثم كان اهتمامه الأكبر بتربية الإنسان - تربية إيمانية تقوم على صحوة الضمير- ويقظة الفكر، وتعلق القلب بربه بصدق ويقين وإخلاص- لهذا ما يقوله أهل النفاق والكفرة والضالين المفسدين- من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان الغرض من زواجه إشباع رغبة وقضاء وطره- فهذا من إفكهم وجهلهم. وعدم معرفتهم بشخصية النبي الطاهر الكامل الصادق ثم إنه كان من أوفى الناس للسيدة الكريمة الطاهرة/ خديجة بنت خويلد. الزوجة الأولى في حياته. وسبب هذا الوفاء النادر ما تمتع به من سعادة وهناء في بيت مستقر يمتلئ بدفء العاطفة وصدق المودة والحب والوفاء ورعاية الأولاد وتهيئة المناخ الصالح لأسعد أسرة عرفها التاريخ الذي لا يكذب ولا يجامل.

الطـــلاق

الحياة الزوجية- حياة مقدسة- لها كيانها الاجتماعي- وديمومتها- مع تغليفها بالحب والمودة والتآلف والتعاون لأنه بالزواج تقوى شـبكة الاتصـال الاجتماعي- تلك هي قاعدة الإسلام- وكل من الزوجين لـه كرامتـه- ولـه حقوق- وعليه واجبات- والغرض من الزواج إنجاب الأولاد وتربيتهم- وأساس الحياة الزوجية قائم على (إمساك بمعروف- أو تسريح بإحسـان) فـإذا نسـي البعض آية المعروف- لأن النفرة دبت بين الزوجين. وساءت العشرة. واستحال التوفيق بين قطبي رحى الأسرة- فما فضل البقاء عليها. لذلك أبيح الطـلاق- فالرجل يطلق زوجته- فإذا كانت الزوجة هي الكارهة. والراغبة في الفـراق- فقد منحها الإسلام- حق الخلع- حتى لا تعيش تحت سيطرة رجـل لا يعـرف حقها ولا يقدرها. وإنما هو يتعالى عليها ويهينها. لهذا أقـام الإسـلام ميـزان العدل- في قول الله سبحانه ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[١٠٧] إن الحيـاة الزوجية تقوم في الإسلام بين زوجين على أساس الاستمرار والدوام إلى أخـر العمر المقدر في علم الله - والإسلام يتجه إلى الأزواج الذين في أيديهم عقـدة النكاح أن يتحلوا بالصبر- واحتمال بعض التصرفات التـي يكرهونهـا مـن زوجاتهم- واحتمال ما يقع من هنات في الحياة الزوجية. ورجاء من المجتمـع أن يمتلك الرجل نفسه ويتحلى بطول البال حتى تستمر الحياة بـين الـزوجين. ويعود الصفاء إلى الأسرة ويظللها الحب. وتشتد العزائم وتكشف الأيـام عـن معدن طيب- وجوهر نفيس كان خافياً عن الرجل والمرأة- فلما جاءت المحـن ودب الخلاف قليلاً - سرعان ما فاء الزوجان وظهر ما كان خافيا في أطـوار

---

(١٠٧) سورة البقرة ٢٢٨.

النفس من خيــر وأصـــالة- ولهــذا يقــول الله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[١٠٨] إن الحياة الزوجية لا تقوم إلا على دعائم قوية وسليمة تستمد ذلك من شــريعة الله الذي حدد المنهج ووضح العلاقة التي تقوم علـــى الســكن النفســي. والمــودة الدائمة- والرحمة التي تظلل الأسرة وإلى هذا أشار الحــق ســبحانه ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[١٠٩] إن الإســلام يــذكر أتباعه بأن عقد الزواج هو "ميثاق غليظ" ولهذا فإن الحياة الزوجية تقوم علـــى العفو المستمر بين الزوجين لأننا بشر ولسنا ملائكة فعند وقوع الخطأ يتطلــب الأمر أن يكون هناك عفو وتسامح عما يقع من أخطاء من أحد الأطراف فيقول سبحانه﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾[١١٠] والميثاق الغليظ- هو العهد القوي المؤكد- وقــد أخذه الله على الرجال- أن يكرموا النساء- فما أكرمهن إلا كريم. وما أهـــانهن إلا لئيم- وقد صرح القرآن بذلك في قول الله سبحانه "وعاشروهن بـــالمعروف" وقد نبهنا إلى هذا الميثاق الغليظ الذي في يد المرأة ليكون لها أن تخاصم الرجل وتقاضيه أمام الله- يوم القيامة- يوم يفر المرء من أبيه- وأمه وأخيه- وعمـــه وخاله وأقاربه أجمعين.

---

(١٠٨) سورة النساء ١٩

(١٠٩) سورة الروم ٢١

(١١٠) سورة البقرة ٢٣٧

حسن الاختيار

الإنسان المسلم- الذي يعبد ربه- ويتبع هدى نبيه. ينيــر الله بصـــيرته ويشرح صدره. ويوفقه الله. إلى كل خير يرضيه. ونحن نعلم أن الإنسان يبني حياته على شيئين:

١) المداومة على ذكر الله- وعلى كل حال "يذكرون الله قيامـــا- وقعــودا وعلى جنوبهم- وذكـــر الله. بالقلـــب- واللســـان- وأداء الواجبـــات- واجتناب المنهيات. واستخارته سبحانه في كل عمل سيقوم به الإنسان. وهو يستعين بالله ويتوكل عليه بصدق وعزيمة.

٢) النظر في الكون والتفكر فيه -فأمامه سماء بلا عمد- شمس تشـــرق- وتغرب بدقة متناهية- قمر يظهر- بدرا- يصغر- ويكتمل- ويصغر- ونجوم- معلقة في الفضاء وهواء يتحرك. وأرض تؤتي خيرها في كل وقت بإذن ربها. وبحار وأنهار. فيها الخير العظيم ودواب. وحيوانات- فيها النفع للإنسان- فالإنسان الذي يكون على هذا المنوال تجــد أن الله يهيئ له من أمره رشدا. ويوفقه إلى حسن الاختيار -خاصة إذا صـــلى صلاة الاستخارة - فإذا وفقه الله إلى حسن اختيار زوجة صالحة فهـــو سعيد موفق. وعندما يشرع الإنسان في خِطبة زوجته. فإنه يبحث عن الأسرة المتدينة التي تتمســك بـــالأخلاق النبيلـــة. والســـيرة الطيبـــة. والمحافظة على الصلاة. وهذا توجيه الله لنا نتخير الصالحة حتى ولـــو

كانت فقيرة- يقول الله سبحانه ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ﴾ (١١١)

- **فالنساء قسمان:**

حافظات للغيب- صالحات. فالمرآة تحفظ زوجها في حضوره. وغيبته. تحفظه في نفسها وماله. وتحفظه في الغيب- يعني ما يستحي الشخص أن يظهره ويراه أحد- فالمرأة الصالحة تحفظ نفسها فلا يطلع أحد على شيء مما هو خاص بالزوج- حتى ما يتكلم به إليها في الخلوة- إن الله سبحانه كرم المرأة الصالحة- ما دامت حفظت نفسها من يد تلمسها أو عين تبصر عورتها- أو أذن تسترق منها السمع, وهى تحفظ نفسها من كل ذلك لعلمها بأن الله يراها في كل مكان- فيكون لها من مراقبة الله وتقواه ما يجعلها محفوفة بالطهر والعفة – محفوظة من الخيانة فابحث عن زواجك من فتاة تتسم بالطهارة – والصلاح – لتحقق لنفسك السعادة – ولبيتك الاستقرار ولأولادك التقدم والنجاح والرقى والفلاح فإن من سعادة ابن آدم, الزوجة الصالحة والسكن الواسع والمركب المربح. الرجل كذلك ينشد في زوجته ذلك – فإذا كانت الزوجة تنشد في زوجها – الصلاح – والاستقامة – وحفظ القران – والمحافظة على الصلاة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لأهل الزوجة – ولها – "**إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**"(١١٢) إن على ولى الأمر إن يبحث عن الخاطب – وعن أسرته- وعن سلوكه ويتخير الشخص الكفء الصالح الذي يرعى حرمة بيته. ويحفظ كرامة زوجته.

---

(١١١) سورة النساء ٣٤

(١١٢) رواه الترمذي

(والزوج كذلك يتخير الأسرة الصالحة والزوجة الفاضلة ذات السيرة الحسنة والسلوك المستقيم)

الفقــر

يقول البعض- إننا لن نجد (الأخلاق والصلاح والأدب) إلا عند الأسر الفقيرة – ونحن نريد الزواج من امرأة غنية – أو الزوجة تنشد في زوجها الغنى – حتى يجد كل شخص بغيته من مال – ومتاع ولكننا نقول للشباب, الغنى غنى النفس- والفقر فقر الأخلاق- نقول للفتاة- ما لذة العيش مع رجل قاسى القلب – متحجر العواطف – متبلد الشعور – ونقول للرجل كذلك إن المال يفنى ويضيع من الأيدي- وأهم شيء الصحة التي هي تاج على رؤوس الأصحاء.. وهى أعظم من ملايين الملايين من الجنيهات – الشرف – والصحة هما مصدر السعادة التي يتحقق للفرد ذلك بسبب هدوء البال وراحة الضمير فإن ذلك أعظم من المال الذي يجلب العار – ويجعل عيشة الإنسان في ذل (وهوان) لهذا نبهنا الإسلام – إنك عندما تريد الزواج أو تخطب لغيرك. تخير من هو – أو هي – على – دين – وخلق – وصحة – وعافية – فهذا هو الغنى. ومن يتزوج – أو يزوج ابنته – على ذلك فالله يغنيه – ويسعده – (حتى ولو كان فقيرا أو فقيرة) ولهذا يبارك الله له – وفيه يقول الله سبحانه ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[113] والنبي صلى الله عليه وسلم يقول "من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا – ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقرا ومن

---

(113) سورة النور ٣٢

تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة- ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا إن يغض بصره – ويحصن فرجه ثم يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيــه"[114] ولعلنا نوجه كلمة إلى إخواننا المغتربين الذين يتزوجون المرأة المسنة العجــوز – وعلى غير دينهم طمعا في أخذ إقامة – أو طمعا في مالها – فكل ذلك خطــأ فاحش وجريمة يرتكبها الشخص في حق نفسه ودينه. وفى حق المجتمع الــذي ينتمي إليه. فمن اعتمد على توجيه الله سبحانه وهدي رسوله صــلى الله عليــه وسلم وسار في الطريق الصحيح يوفقه الله لكل خير ويفتح له أبــواب النجــاح والسعادة, (ومن التوى في القصد أضله الله)

---

(114) رواه الطبراني في الأوسط

هل الطلاق كلمة

ليس الطلاق كلمة يتلفظ بها الرجل – في جد – أو هزل – في صحو – أو سكر. يقولها (الرجل) فتطرد المرأة خارج البيت وتنتهي علاقة الأسرة – وتصبح امرأة مهمشة في المجتمع أو جثة هامدة لا حياة فيها (معزولة عن الأحياء) – لا– لأن من طلق زوجته بلا سبب هو رجل مشروخ الرجولة لا خير فيه ونظرا لأن (كلمة على الطلاق) هذه الكلمة تمتد أثارها السيئة إلى المجتمع كله وتصيب مركز القوة فيه بالضعف وتهز الكيان الاجتماعي لهذا سد الشرع الأبواب الموصلة إليه– لأن الطلاق قضية – خطيرة لما لها من آثار سيئة خاصة في العلاقات الاجتماعية وحال الأولاد لأن الطلاق يمزق شبكة العلاقات الاجتماعية ويؤجج نار العداوة بين العائلات. و إذا كان هناك أطفال فسوف يشردون ولهذا يقول نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم "**ابغض الحلال عند الله الطلاق**"[١١٥] ومع إن الطلاق رخصة لظروف معينة وخلاف شديد يصعب حله – لكنه بغيض كريه – لايقدم عليه الإنسان إلا مضطرا مكرها – لان الطلاق دواء مر – يتناوله الإنسان عند المرض الشديد الموجع المؤلم الذي لا ينفع فيه علاج – ولهذا كانت النصيحة للأزواج الذين في أيديهم عقدة النكاح إن يتحلوا بالصبر وطول البال واحتمال ما يقع من أمور لا تتفق مع رأى الزوجين – لعل الله يحدث بعد ذلك امرأ – يقول الله سبحانه ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [١١٦] ولفظ الطلاق ينطق به الزوج في مواجهة الزوجة – مرادا به فصم العلاقة

---

(١١٥) رواه أبو داود

(١١٦) سورة النساء ١٩

الزوجية – لذلك يجب مراعاة حال الزوجة – وما قدمته للرجل من علاقات ود ومحبة – وقد بين الله أسلوب العمل في تسوية مابين الزوجين من علاقة مادية – كانت قائمة بحكم رابطة الزواج فما دام الرجل هو الذي فصم هذه العلاقة فلا يحق له أن يسترد أي شيء من المهر ولا أي شيء – مما جاء به لزوجته لقول الله سبحانه" ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا ﴾"[117] وفي قوله سبحانه ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾[118] فالطلاق يقع بعد اتخاذ الطرق للصلح ويتم والزوجان في حالة هدوء واتفقا مع بعضهما على كل شئ في هدوء ورضي وحتى لايكون الإنسان قاسى القلب فذكره القرآن بما كان بينهما فيقول الله سبحانه ﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾[119]

(117) سورة البقرة ٢٢٩

(118) سورة النساء ٢٠-٢١

(119) سورة البقرة ٢٣٧

حكمة تشريع الطلاق

مقدمة لذلك:

إذا دب خلاف بين الزوجين – فقد أرشد الله الإنسان إلى أن يتبع أفضل الأساليب لحل المشاكل وإنهاء الخلاف ضمانا لاستمرار الحياة الزوجية. وقد رسم الله سبحانه أفضل أسلوب لذلك في قوله سبحانه ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ (١٢٠). إن الله سبحانه فضل بعض الناس على بعض لحكمة يعلمها هو. كذلك فضل الرجال على النساء – لأنهم قوام الأسرة القوامون على حمايتها ورعاية شأنها والإنفاق عليها – وهذا الحق لا يعطى للرجل حق التسلط على المرأة ولا يقهرها – إن الذكر والأنثى هما فرعى شجرة الإنسانية لا يعيش أحدهما إلا مع الأخر – وفى تواجدهما وعشرتهما بالمعروف تستمر الحياة لأن كلا منهما يكمل الأخر. وهذا لايمنع أن يكون أحدهما الأول – ولو كانا على درجة واحدة – فالرجل مزود بطاقات وقدرات تجعله أقدر على قيادة ركب الأسرة التي يعيشان فيها ومعهما أولادهما – وحق قوامة الرجل لم تقررها الشريعة إلا اعترافا بالأمر الواقع – فالرجل أقوي من المرأة في مواجهة الأحداث – وأقدر

---

(١٢٠) سورة النساء ٣٤

على السعي في مناكب الأرض – لأنه مطالب شرعا – وعرفا – بالإنفاق على زوجته وكفاية حاجاتها وكذلك كفاية ولده منها – والمرأة وهى تسلم للرجل زمام قيادة الأسرة ليس بسبب ضعف فيها. ولكن لأن الرجل أقدر على الإمساك بهذا الزمام وأقدر على قيادة الأسرة. وقد أمر الله الرجل بالصبر والحلم وعليه أن يتذكر أنه المسئول أمام الله أولا – والمجتمع ثانيا عن استقرار الأسرة ورقيها ولهذا قال الله موضحا لنا سبب إسناد القوامة إلى الرجل فقال سبحانه " ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ – بمـــاذا؟ – بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ – وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ وقد يبتلى الله الرجل بامرأة معوجة – كالحة الوجه – ثرثارة – شتامة. فالإسلام نبه إلى:

١- مثل هذه المرأة على زوجها أن ينصحها – ويعظها – فمن النساء من يؤثر في نفسها النصح وتستجيب لداعي الخير وتصلح حالها –وتبتعد عن كل ما يسيء إلى نفسها من سوء علاقتها بزوجها وعلاقتها بجيرانها وبالناس أجمعين وخاصة كل من يتصل بها من الأقارب والأصدقاء

٢- فإذا لم تستجيب الزوجة للوعظ ولا للنصح – فعلى الزوج أن يهجرها في المضجع والهجر – أن يعطيها ظهره على سرير نومه – ولا يترك الحجرة التي ينامان فيها. وهذا أمر يشق على المرأة الحرة – الأصيلة – لأن المرأة تسكن إلى الزوج – فإذا أعطاها ظهره فهذا دليل على عدم رضاه عنها.. ولعل هذا الهجر يؤثر فيها. والمرأة الكريمة الأصيلة تتأثر بهذا الهجر ولا ترضى به. وتصلح حالها

٣- فإذا لم ينصلح حالها. واستمرت في إيذاء الغير – وإهمال البيت والرغى فيما لايفيد على الزوج إن يضربها – والضرب اشترط فيه الإسلام أن يكون غير مؤلم جدا وإنما هو ضرب ليس فيه إيذاء شديد وان يبتعد عن الوجه حتى

لا يشوهه وكل ذلك من باب إصلاح شأن الزوجة - والحفاظ علـــى تماســك الأسرة. وإصلاح شانها. والضرب برفق

العظة أولاً - والنصح - بالكلمة الطيبة - فان لم تنتفع بذلك فالهجر في المضجع - فان لم ينفع - فالضرب تحت مبدأ التأديب والإصلاح والضرب لا يكون بتكسير العظم - أو تشويه الوجه - ولا هو ضرب انتقــام ولا تشــفى - وإنما يكون ضربا بالسواك - بالمسطرة - ضربا خفيفا باليد "فان أطعنكم فــلا تبغوا عليهن سبيلا" أرايت هذا الأسلوب الأمثل في علاج حــالات الزوجــة - علما بان الله له السلطان الأقوى - فمن بسط قدرته بعقاب زوجته بدون سبب, فإن يد الله مبسوطة عليهم بالعقاب والانتقام - إذا فشلت هذه الأساليب ولم تنفع الطرق التي مرت في تأديب الزوجة فعلى أهل الخير مــن أهــل الــزوج - والزوجة - لن يقوم شخصان - أحدهما من أهل الزوج - والثاني مــن أهــل الزوجة - وهو الصلح بين الزوجين قبل الطلاق. ويتعرفا على مــوطن الــداء ومحل الخلاف ثم يعملان بكل مالديهما من قوة لرأب الصدع - ومواجهة كــل بأخطائه ثم نذكرهم بالعفو والتسامح والصبر لكي تعود الحياة الزوجية إلى جو صفائها وحتى لا يتم الطلاق - لان الصلح خير - يقول الله سبحانه ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [١٢١] إن الله سبحانه شاء لرباط الزوجية إن يدوم وينبه إلــى إيقــاظ المشاعر الخيرية بين الزوجين من خلال الحكمين اللذان يعملان على تطهيــر نفسية كل من الزوجين - فهما يقومان بسفارة فيها خير وصلاح لأسرة حتــى

---

(١٢١) سورة النساء ١١٤

يبتعد عنها الشر. إن الذين يحسبون الحياة الزوجية تنفصم من خطأ وقع فيه أحد الطرفين. فهو مخطئ . وهذا دأب ضعيفي الإيمان قاصري النظر الذين – تنتابهم مشاعر الحسرة والألم – هؤلاء غابت عنهم اللحظة المشرفة على الكيان الاجتماعي الذي قام باسم الله وعلى بركة رسول الله لهذا كان الواجب على الحكمين أن يكون عندهما إخلاص ورغبة في إزالة الخلاف – وحتى تعود الحياة المستقرة بين الزوجين على وفاق – وإلا فإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته – يشترط أن ينتبهوا إلى قول الله سبحانه ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (١٢٢) وفى هذا جاء قول الله سبحانه ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٢٣) إن في رعاية الله سبحانه لرباط الزوجية – وتقديره لها. وما بين لنا في الشريعة الإسلامية التي بينت بأكثر من طريق. وطرق متعددة لعلاج ما يدب من خلاف بين الزوجين – حتى في حالات اليأس لنتوقف عن محاولة الإصلاح مع استنفاذها لكل وسائل العلاج. ولهذا جاء في الأثر أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه– ندب شخصين ليقوما بالصلح بين زوجين – فذهبا ثم عادا إليه وقالا له – يئسنا ولم نستطيع الصلح – فضربهما عمر بدرته – وقال لهما لم تكن النية منكما صادقة. ولو صدقت نيتكما لتم الصلح لأن الله سبحانه يقول ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ ﴾ فالذين يقطعون حبل الحياة الزوجية – أو يسعون بإفساد الزوجة على زوجها. هم معتدون – باغون – ظالمون, لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب

(١٢٢) سورة البقرة ٢٣٧

(١٢٣) سورة النساء ٣٥

أليم, ففي الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "**ليس منا من حلف بالأمانة ومن خبب على امرئ زوجته أو مملوكه فليس منا**"(١٢٤) إنه ليس من المؤمنين وليس على دين الإسلام من أفسد على الرجل زوجتـــه. لأن مـــن يوقع بين الزوجين فهو فاسق مخادع غشاش – ليس عنده رحمة – ولا ديـــن – ولا أخلاق.

---

(١٢٤) رواه احمد بإسناد صحيح

والمرأة تطلب الخلع

إذا كان الإسلام قد جعل قوام الأسرة للرجـل - فهـو قـوام وظيفـة مسئولية- يقتضيها نظام الحياة. وفى إمكان الرجل أن يتنازل عن هـذا الحـق لزوجته بحيث يجعل العصمة في يدها - فيلزم المرأة أن تمارس هذا الحـق - فهو يوكلها ويفوضها في كل اختصاصاته في تطليق نفسها مثلا, فالإسلام لـم يظلم المرأة. ولنفرض أن قوام الرجل على الأسرة بيده - وقد ظلمهـا وأسـاء عشرتها واستنفذت وسائلها في علاج زوجها فلم تقدر - فلها أن تطلب الخلـع من زوجها وقد أباح الإسلام لها ذلك - ولكن إذا طلبت الخلع لتتـزوج بغيـره فهذا حرام وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "**إن المختلعـات هـن المنافقات**" [١٢٥] فالتي تطلب الخلع من زوجها - بغير عـذر ولا ضـرر مـن الزوج عليها فسوف تكون تعيسة طول حياتها - والخلع أن تطلب الزوجة مـن زوجها أن يخلعها ويطلقها لأنها لاتطيق عشرته وليس لديها رغبة فيه, وهنا ترد المرأة على زوجها كل ماأخذته منه من مهر وشبكة وتترك مالها مـن حقـوق وتتنازل عن كل شيء لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "**وما من امرأة تسال زوجها الطلاق من غير بأس فلن تجد ريح الجنة**" [١٢٦] أنها إذا طلبـت الطلاق - أو - الخلع - وهو كالدواء المر يتجرعه الإنسان لعلاج مرض يهز كيانه. لهذا نبهت الشريعة في أكثر من موضع إلى قداسـة الحيـاة الزوجيـة وحرمتها - وعملت على تهذيب المشاعر الإنسانية بالأدب والفضـائل والقـيم والعواطف النبيلة والود الدائم بين الزوجين فإذا تمسك الرجل بزوجته. ولكـن

---

(١٢٥) رواه البيهقى

(١٢٦) رواه البيهقى

سفينة الحياة مضطربة بالزوجين وشعرت الزوجة بالكراهية الشديدة لهذه الحياة فلها أن ترد على زوجها ما أخذته وما لها في ذمته من مؤخر الصداق وتجاب إلى طلبها. فقد قال الله سبحانه ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [١٢٧] والرسول عليه الصلاة والسلام وافق على طلاق "جميلة" زوجة الصحابي الجليل قيس بن ثابت وكانت قد رفعت أمرها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت – يا رسول الله – لا أجد في قيس بن ثابت عيبا من خلق أو إيمان. ولكنى لا أجد في طوقي مجاراته – لأنه كان قد انقطع للعبادة – فسألها النبي صلى الله عليه وسلم "هل تعيدين إليه حائطه؟– يعنى بستانه – قالت نعم – فأمر النبي صلى الله عليه وسلم برد الحائط إلى قيس– وطلقها. والواجب على المسلم أن يلتزم الأدب – في العلاقات الاجتماعية ولا ينسى الفضل بينه وبين التي كانت زوجته – فلا يفشى سرها – ولايبح بأي عيب عرفة عنها – فالأدب فضلوه على العلم .

---

(١٢٧) سورة البقرة ٢٢٩.

هل تجبر المرأة أن تعيش حياة هي لها كارهة؟

لا – لأن الإنسان له حرية – وللحرية ضوابط – وفى هـذا الحـدود يتصرف الإنسان. فقد حدث إن – الخنساء بنت خذام – **"أتت النبي صـلى الله عليه وسلم وقالت – إن أبى زوجني من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة – فقـال النبي صلى الله عليه وسلم – أجيزى ماصنع أبوك – فقالت ما لي رغبة فيما صنع أبى – فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم. إذهبي فلا نكاح له – إنكحي من شئت – فقالت أجزت ماصنع أبى. ولكنى أردت أن يعلم النـاس أن لـيس للآباء من أمور بناتهم شيء"**. ولم ينكر عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالتها [١٢٨] كذلك ماحدث من – بريزة – التي لم تقبل شفاعة النبـي العظـيم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبريزة – جارية حبشية – كانـت أمة لعتبة بن أبى لهب – وزوجها عبدا من عبيد "المغيرة" ما كانت لترضاه لو كان أمرها إلى نفسا – فأشفقت عليها سيدتنا عائشة رضي الله عنها فاشـترتها وأعتقتها. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم – ملكت نفسـك فاختـاري فخلعت زوجها فأصبح يمشى وراءها ويبكى – وهى ترده – وتأباه – فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه ألا تعجبون من شدة حبه لها – وبغضها له – ثم قال لها. اتقى الله فإنه زوجك. وأبو ولدك فقالت. يا رسول الله. أتأمرني؟ فقال– لا إنما أنا شافع– فقالت إذا فلا حاجة لي إليه[١٢٩]– ولهذا ذهـب الإمـام ابـن شبرمة – الى أن زواج البنت القاصر باطل حتى تبلغ وتصارح أباهـا فـيمن

---

(١٢٨) المبسوط ج٥.

(١٢٩) المبسوط ج ٥

يريدها [١٣٠] إن تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم للرجال – قوله لايفــرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها أخر[١٣١].

---

(١٣٠) رواه مسلم.

(١٣١) المبسوط ج ٥

هل الإسلام هو الذي نظم مشروعية الطلاق فقط

تقوم الحياة الزوجية في الإسلام على مبدأ واحد بينه لنا القران الكريم وهو قول الله سبحانه ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾(١٣٢) وقوله كذلك ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾(١٣٣) ومن المؤكد أن الزواج قائم على الود – والرحمة – فإذا دب خلاف – وساءت العشرة ولم يتمكن الحكماء من حسم الخلاف. كان لابد من الطلاق – فالله سبحانه يقول ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ١٣٠﴾(١٣٤) وعلى المطلق – إن يعلم – إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق – لأنه من المأثور "لاتطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات" والطلاق معروف مع بداية التاريخ البشري. لأنه مشروع للحاجة إليه إذا نفذ الصبر – ولذلك لا يلجأ الرجل إلى الطلاق من أول لحظة وإنما يتروى ويتأنى ولايلجأ إليه إذا دب الخلاف بين الزوجين ولم يتمكن الوفاق بينهما والطلاق بيد الرجل لأنه هو الذي – دفع المهر – وأنفق أمواله وفرش البيت – وعليه مؤخر المهر – ونفقة العدة – والمتعة وتجهيز السكن – إذاً فإن مابين الزوجين لاينتهي بسبب خلاف يمكن معالجته بل لابد من الصبر

---

(١٣٢) سورة البقرة ٢٣١.

(١٣٣) سورة البقرة ٢٣١.

(١٣٤) سورة النساء ١٣٠.

والتحمل والمراجعة وأن يسلك الشخص كل مسلك لعلاج الخلاف بالحسنى لأن الرجل قام بدفع التكاليف ويتحمل المصاريف التي يدفعها لذلك فهــو يتــروى ويراجع نفسه قبل أن يلفظ بالطلاق , فإن اشترطت المرأة أن يكــون الطــلاق بيدها لتطلق نفسها عندما تشاء فإن رضي الرجل فلها ذلك منذ بداية العقد عليها – ولكن جعل الطلاق بيد الرجل لأنه أكثر تفكيرا في عواقب الطلاق وتبعاته– وأبعد عن التسرع في تصريف الأمور. إن المرأة شريكة في العقــد – ولكــن لأنها أشد تأثيرا بالعاطفة جعل الطلاق بيد الرجل. فلو كان الطلاق بيدها ربمــا أوقعته دون ترو – ولأسباب بسيطة. فحفاظا على الأسرة وكيانها جعل الأمــر للرجل لأنه أنفق من ماله – وغير ذلك – ثم إن الإسلام لم يحرم المــرأة مــن طلب الطلاق تحت مسمى "الخلع", ولم يجبرها على أن تعيش معه وهــي لــه كارهة. ولا تكون في بيت تشعر فيه بالذل والهوان. فأعطى لها حرية الخلــع. وهذا هو العدل الذي لانجده في أي ملة أو مذهب ولم تعرف الإنســانية لهــذا النظام مثيلا – إن الطلاق مشروع للحاجة الملحة إليه ويكره عند عدم الحاجة – وعلى الزوجين أن يفكرا في مصير الأولاد – وهم أعظم هدية من الله للآبــاء فعليهما أن يحتملا في سبيل العيشة مع بعضهما مر للحياة بدلا مــن إن يكــون الأولاد مصيرهم إلى الشارع فليحتمل الزوجان ويعملا على دفع الضرر عــن الأولاد عملا بالقاعدة – اختيار أهون الشرين – ولا ضرر ولا ضرار – وليكن الطلاق هو العلاج الحاسم والحل النهائي إذا استعصــى حــل الخــلاف بــين الزوجين أو من أهل الخير والحكمين بسبب تنافر الطباع وتعقد مسيرة الحيــاة المشتركة – أو يكون الطلاق بسبب عقم أو مرض. ولا علاج لــذلك. فيكــون الطلاق وهو شر – والشر حينما يدفع به شر أعظم منه يكون رحمة ونعمــة. وإذا كان بعض الجاهلين. والحمقى قد ترخصوا في ذلك – فهم قــد اســتخفوا بأوامر الله – وتجاوزوا الحدود – واستباحوا الحرام في غير اضــطرار فــلا

يحسب ذلك على الإسلام – لأن فعلهم يشوه جلال الإسلام وعظمته وحله للمشاكل الاجتماعية بأسلوب غير مسبوق – فشرع الله واضح ومن نكص عن تطبيقه والالتزام بأوامره فقد تجاوز حدود الله واعتدا على حدود الله قال الله سبحانه ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾[١٣٥] – والطلاق يلفظ به الزوج في مواجهة الزوجة – أو يعلمها علما نافيا للظن – ومراد به فصم عرا الزوجية – وهنا تعلو صيحات الذين لم يدرسوا منهج الإسلام وآدابه في عملية الطلاق وإنما نظروا إلى من جهل نظام الإسلام وتجاهل أحكامه –واتخذوه لهوا ولعبا – فطلقوا بدون سبب ولم ينظروا في قداسة الحياة الزوجية – لأنه بلا شك سوف يجد علاقات زوجية مفككة الأوصال – واهية – فأعداء الإسلام يندون بإحكام الطلاق ويصرخون ويكتبون – بأن الطلاق إهانة للمرأة – ونقول لهم: لماذا لم تتكلموا على الطلاق الذي كان يمارسه العالم: وكان يقع على المرأة منه ظلم كبير نبهنا ربنا سبحانه لذلك في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾[١٣٦] لقد كان الرجل يمسك المرأة على كره منها – لأنها كارهة لعيشتها فهو يمسكها ليزيد من نكدها ويتمنى موتها لبرتها وهذا ما نهى الله عنه في قوله سبحانه ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ وكان ذلك قبل الإسلام – ولا تعضلوهن فهو يمسك

---

(١٣٥) سورة النساء ١٤.

(١٣٦) سورة النساء ١٩.

المرأة على الضرر والأذى – لكن الإسلام قدم وصية كريمة من الله – وهى – إحسان إلى الزوجة أيا كانت نظرة الرجل إليها – وموقعها من قلبه – فلايحمله ذلك على التبرم بها فيسئ عشرتها ويرميها بالأذى – لا – بل عليه إن يصبر – ويحسن عشرتها فيمسك بمعروف أو يسرح بإحسان" لأن الله أخذ الميثاق الغليظ على الرجل أن يحسن عشرة المرأة – فما أهانها إلا لئيم – وما أكرمها إلا كريم – ثم هي –الأم – والأخت والعمة والخالة – والزوجة والابنة – ولايطمع الرجل في ما تملك المرأة– ولا يبيح الإسلام للرجل خيانة زوجته وإهانتها وليتذكر عشرته بها وقد جاء التصريح بذلك في قول الله سبحانه ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾ [١٣٧] والرسول صلى الله عليه وسلم يقول **"لايفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها أخر"** [١٣٨]وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له – ما حق زوجة أحدنا عليه. فقال عليه الصلاة والسلام – **"إن تطعمها إذا طعمت – وتكسوها إذا اكتسيت. ولا تضرب الوجه. ولا تقبح إلا في البيت"**[١٣٩] آداب عالية وأخلاق عظيمة لكن – أعداء الإسلام تغافلوا كل ذلك – ويعلو صراخهم – ويتهمون الإسلام بأنه يفرض على المرأة أن تكون قعيدة بيت. تعيش بأسلوب حياة الخمول والاستسلام. والرجل يتحكم فيها – بكلمة واحدة يطلقها متى شاء وعلى حسب مزاجه ثم يخرجها متى شاء من البيت فإذا هي بالعراء منبوذة – وأولادها تسربوا إلى الشوارع وبيتها أصبح دمارا تعصف فيه الرياح وتعيش فيه خيوط العنكبوت.. وأصبح العش الهادي

---

(١٣٧) سورة النساء ٢١

(١٣٨) رواه مسلم.

(١٣٩) رواه أبو داود – لا تقبح لا تسمعها ما تكره. ولا تشتمها – إلا إذا كان من باب المداعبة ويكون في البيت

مأوى للفئران والزواحف كيف؟ الطلاق – الدمار – الخراب – الشـر. وكـان هناك بيت الطاعة – وهو بيت ذل – وهوان – وكانوا يقولون بأن بيت الطاعة نظام إسلامي وكذب من قال هذا – إننا نؤكد أن الإسلام لا يقر بيت الطاعة أبدا ولا يرضى به وكل شخص يقر هذا فهو مخطئ فاسد الرأي – والـدليل علـى ذلك– نصوص الشريعة الإسلامية التي ظلمتموها بدليل.

١- الشريعة الإسلامية – لم تفرض الطلاق – ولم تجعله واجبا يؤديه الرجل – يبتغي به الثواب – لا – إنما الطلاق أمر كريه لا يلجأ إليـه الإنسـان إلا مكرها مضطرا وحسب الطلاق شناعة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "**ابغض الحلال إلى الله الطلاق**–" ومن تزوج باثنتين فعليه أن يعدل بينهمـا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "**من كانت عنده امرأتان فلـم يعـدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط**"[١٤٠] فالأصل في الزواج أن يدوم الى أخر العمر – فالطلاق – كعملية جراحية لبتر عضو من جسم الإنسان يلجأ إلي ذلك الطبيب إذا استعصى العلاج وأصبحت حياة الإنسان مهددة إلا إذا بتر هذا الجزء. ولا يتم بتر هذا الجزء إلا بعملية جراحية.

٢-يدعو الإسلام من بيده عقد النكاح– وهو الرجل– إلى الصبر– والتـروي وأن يكون لطيفاً كريماً مع زوجته– والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: "**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً– وخياركم لنسائهم**"[١٤١].

٣-ترغيب الرجل في محاسن زوجته– والرضا منها– وضمان الخير فيها عساه يكره منها شيئاً لكنها مصدر خير له يقول الله سبحانه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن

---

(١٤٠) رواه مسلم

(١٤١) رواه الترمذي

﴿تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[142] ويقول عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع- "**بعد أن حمد الله وأثنى عليه- أيها الناس- استوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم- ليس تملكون منهن شيئاً- غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة- فإن فعلن فلا تبغوا عليهن سبيلاً ألا إن لكم على نسائكم حقاً- ولنسائكم عليكم حقاً فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون - ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن**"[143].

٤-إن الإسلام ضيق طرق الطلاق ووضع لها حلولاً وأساليب متنوعة وأخبر أن الصلح خير- وقال الله سبحانه ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[144] فعلى الزوج والزوجة أن يتذكروا لحظات الحب والود والعشرة وكل منهما لباس للآخر. فعليهما أن يسارعا إلى الصلح بأساليبه المتنوعة المعروفة.

٥- لعدم الإضرار بالمرأة قال الله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[145] والخطاب وإن كان النبي صلي الله عليه وسلم لكنه للمسلمين جميعاً والخطاب له صلى الله عليه وسلم لأنه إمام المسلمين ومعلمهم ومرشدهم فالمسلم مطالب أن يتخير الوقت المناسب الذي يطلق فيه ويعنى هذا أن نطلق المرأة في طهر لم يمسها زوجها فيه- وهذا

---

(١٤٢) سورة البقرة ٢١٦

(١٤٣) رواه ابن ماجة

(١٤٤) سورة البقرة ٢٣٧

(١٤٥) سورة الطلاق١

أحسن الطلاق- لأنها طاهرة ولم يقترب منها. فالنفوس غاضبة نافرة فلا مناص من الطلاق لكن الود قائم. ومراعاة شعور الآخر مطلوبة.

٦- إذا طلق الرجل زوجته- فلها عدة والرجل مسئول عن الإنفاق عليها في عدتها وعلينا أن نحصي العدة وقد بينها ربنا سبحانه في قوله ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴾[١٤٦] والمراد بلغته استبراء الرحم من الحمل- ولا يتم ذلك إلا إذا رأت المرأة دم الحيض ثلاث مرات. وتكون العلاقة بينها وبين من طلقها انتهت تماماً- ولها في هذه الحالة- عفش الشقة- مبلغ من المال- متعة- لقول الله سبحانه ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[١٤٧] وهذه المتعة من باب مواساة المرأة على ماأصابها من ضرر نفسي لأنها ربما لم تكن تتخيل أنها ستواجه الحياة وهي تحمل لقب مطلقة. والرجل بهذا العطاء انطلاقا من مروءته وكرم نفسه وعدم نسيانه لأيام عشرته لها- ربما أحس فيها بسعادة والمرأة منكوبة فلابد أن يمد الرجل يد الرحمة والمواساة إليها. والله سبحانه أعلم بنفوس خلقه. فشرع يزيل الخصومة من النفوس.

---

(١٤٦) سورة البقرة ٢٢٨

(١٤٧) سورة البقرة ٢٢٦

٧- إن الطلاق قضية خطيرة- هذه القضية لها شأنها في ميزان الحياة وفي المجتمع الإنساني. والعصر الذي نعيش فيه فعلينا أن نتحلى بالمروءة ولا نكون من الذين قتلوها- لأن المروءة ليس لها تواجد في المجتمع الآن وكأنها- ماتت- واختفى الحياء من وجوه بعض الناس حتى قال الشاعر:

مررت على المروءة وهي تبكي ... فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت كيف لا أبكي وأهلي ... جميعاً دون خلق الله ماتوا

٨- وهناك بعض الرجال يطلق الواحد منهم زوجته- ويهرب عفش الشقة، ويأتي بعفش رديء مكسر وعليه مؤخر صداق يهرب من البلد. ولا يدفع متعة- ولا يقوم بإيجاد سكن للزوجة أيام عدتها لأنها في أيام العدة- لا تخرج من السكن الذي هي فيه لقول الله سبحانه ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[١٤٨] وتأمل في الآية الأولي من سورة الطلاق لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ فإضافة البيوت إلى الزوجة ما يشعر أن الزوجية مازلت قائمة- فالمرأة في أثناء العدة ليست غريبة عن الرجل فتتصرف في بيتها كما كانت تتصرف قبل الطلاق لماذا؟- لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً- فالذي يلتزم بحدود الله- ويعمل وفق منهجه- يهيئ الله له من أمره الخير ويرشده إليه ويصلح له زوجه. ويبارك له في صحته وأولاده ورزقه.

تأملوا يا من تعيبون على الإسلام إباحته للطلاق- ثلاثة أشهر- تأكل وتسكن وتأخذ كل شيء حتى تدبر أمرها- والذين يهربون- ولا ينفذون شرع

---

(١٤٨) سورة الطلاق ٦

الله وتوجيهاته هم فسقة مناجيس. لا تحكم بهم على الإسلام الذي أمرنا بحسن التعامل مع بعضنا ونطبق مبدأ الرحمة والإحسان والتعايش السلمي ورعاية حق الآخرين والائتمار بالمعروف هو مداولة الأمر بين الرجل ومطلقته بالمعروف والإحسان. والمساعدة والمعاونة "ولاتنسوا الفضل بينكم".

٩- ثم إن الطلاق أمر معروف مارسه العرب في الجاهلية قبل الإسلام وهم أقرب إلينا ثم هم أخذوه عن غيرهم. وهكذا كان المجتمع الإنساني يبيح الطلاق- ولكن الإسلام وضع ضوابط وقواعد لمصلحة الزوجين يجب علينا كمسلمين مراعاتها عند الطلاق- والسير في إجراءاته بالحسنى وبالاتفاق السهل الميسر ويكون ذلك في ود ومحبة – ليرى كل والد أولاده في جو آمن – ولا تلجأ إلى المحاكم ولا إلى سواها. إن كان الأولاد صغارًا يذهب الأب- إلى بيت الأم – ويكون معه محرم – ويرى الرجل أولاده – ويذهبون إلى بيته – وإن كانوا كبارًا ينبههم الأب إلى زيارة أمهم ورعاية شأنها. وتدبير مصالحها – وهكذا – إن ما يفعله بعض المسلمين اليوم – الرجل يتهرب. والأم تلجأ إلى المحاكم. وتدوخ – ثم لا يستدل على عنوان الزوج وإذا به يظهر بعد أن يبدأ ولده يكسب مالاً. أو الابنة تزوجت من شخص ثري مرموق ويبدأ دور الابتزاز الأب الهارب في الماضي من الإنفاق- كل هذا أمر مرفوض. لأن الإسلام لا يقر هذا أبدًا – أين الحنان – أين الرعاية من الأول – إننا لا نقر الرجولة المشروخة – والممزقة – والمدمنة. فعلى العقلاء أن ينصفوا الإسلام ويقرؤا التاريخ. وعليهم أن يقرؤا التوراة كتاب الله إلى اليهود. فسوف يجدون أن دين اليهود يبيح الطلاق – وجرى عليه العمل في شريعتهم – كذلك عرف العرب الطلاق – كما عرفه الوثنيون – وعرفه الغرب – فقد نشرت جريدة الجهاد الصادرة في ١٠ مايو ١٩٣٢

تحت عنوان (جنون الطلاق في أمريكا) أكثر من نصف مليون رجل وامرأة وطفل يتغير مجرى حياتهم كل سنة بسبب حوادث الطلاق – فقد أذاعت الحكومة الأمريكية بيانًا جاء فيه "إن أغلب حوادث الطلاق تقع عادة في العام الرابع بعد الزواج. وأن قضايا الطلاق قد نقصت قليلاً في العامين الأخيرين. بسبب الأزمة الاقتصادية. وقد كان عدد هذه القضايا في سنة ١٩٢٩ – التي تعتبر من سنوات الرخاء (٤٦٨، ٢٠١- أي بمعدل حالة طلاق كل دقيقتين – أما في سنة ١٩٦٧ فقد زاد عدد الطلاق بنسبة ٢٠٠٠%) ونسبة الزواج – ٤٠٠% والسبب في حوادث الطلاق هو سوء المعاملة. وعجز الأزواج عن الإنفاق على بيت الزوجية[١٤٩] فيا من تصيحون وتندبون وتولولون وتتباكون على المرأة التي أعز الإسلام مكانتها. ورفع قدرها. ونهى عن إيذائها وعدم جرح مشاعرها ولهذا قال ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ إننا نقول لمن يولولون. لماذا لم تتكلموا عن الغرب الذي كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته بأقل من نصف دولار. ولم يسمح لها أن تباشر عملاً. وليس لها ذمة مالية حتى عام ١٩٣٠م تقريبًا. ونحن لا نكذب على التاريخ واقرؤه ثم قولوا صلى الله علي سيدنا محمد النبي العظيم الذي حرر المرأة. وأعطاها من الحقوق ما لم تحلم به أي امرأة حتى هذه اللحظة. بل إن القرآن الكريم أعطاها شيئًا عظيمًا. ففيه سورة "النساء" الكبرى – وسورة النساء الصغرى – وسورة مريم والمجادلة كما أنه ذكر امرأة فرعون – وزوجة سيدنا لوط – وزوجة سيدنا نوح – وأم موسى – وبنتي الرجل الصالح اللتان تقابلن مع سيدنا موسى – كما ذكر حاكمة اليمن وقدّرها

---

(١٤٩) يراجع في ذلك كتاب – حقوق النساء في الإسلام– للشيخ محمد رشيد رضا – تحقيق محمد ناصر الألباني طبع المكتب الإسلامي.

وبين أنها كانت تستعمل الشورى. جيش من النساء لهن مكان وبعضهن خانتا الأزواج خيانة اجتماعية – وليست خيانة جنسية وهكذا ليبين لنا أنه لا حرج – ولا عيب في ذلك أبدًا وسنأتي على نماذج من النساء في موضع آخر إن شاء الله رب العالمين.

طلب العلم

ليس في الدنيا دين سماوي – ولا مذاهب وضعية – كرمت العلم – ودعت إليه مثل ما فعل الإسلام. ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم, ولهذا كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [١٥٠] دعوة للقراءة – والكتابة– للتعلم – وفي آية أخرى يقول الله سبحانه ﴿ ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) ﴾ [١٥١]. وقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم نظرية القراءة و الكتابة – ومحو الأمية – وتعليم الكبار في غزوة بدر عندما وقع سبعون أسيرًا من المشركين. فكان فداؤهم أن كل واحد يعلم عشرة من المسلمين[١٥٢]– فهذه نهضة عظيمة في محو الأمية– وكان زيد بن ثابت أول من تعلم لغات غير عربية والذي يقرأ القرآن الكريم يتبين له– أن الله أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة – إلى الرجل والمرأة – الكبير والصغير وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث أصحابه على تعلم العلم – وتعلم القراءة والكتابة – ولهذا جاء في آية الدين رقم ٢٧٢ من سورة البقرة كتابة الدين – وفي سورة النساء جاء تقسيم المواريث – النصف – الربع – الثمن ومعنى ذلك – يعنى أن نتعلم الحساب. إلى غير ذلك من آيات التفكير في ملكوت السموات والأرض. ثم يتساءل القرآن ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

([١٥٠]) سورة العلق

([١٥١]) سورة النساء

([١٥٢]) يراجع في ذلك الطبقات الكبرى ابن سعد ج٢.

﴿ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾[١٥٣] ويعلمنا الله سبحانه دعاء ندعو به صباح ومساء ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾[١٥٤] إن التعليم والتعلم خير للشخص وطالب العلم – الذي يذهب إلى العلماء ليتعلم أو الذي يذهب ليمحو أميته ويتعلم فهو يسلك طريقًا إلى الجنة – وكل من يساعد طالب العلم – بالنفقة أو التشجيع لهم ثواب عظيم وأجر كبير يقول الله سبحانه ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[١٥٥] فالأعمى والأصم – الجاهل والسفيه والبصير والسميع – المؤمن – المتعلم – القارئ – المؤدب.... إن الدعوة في الإسلام إلى التعلم حتى ولو شاب شعرك. ولهذا ورد في الأثر "تعلموا العلم من المهد إلى اللحد" "مع المحبرة حتى المقبرة" وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامًا حجته"[١٥٦] وفي حديث آخر "ما انتعل عبد قط ولا تخفف. ولا لبس ثوبًا في طلب علم إلا غفر الله له ذنوبه حيث تخطو عتبة دارة"[١٥٧] وفي حديث آخر "طلب العلم فريضة على كل مسلم" وهو يشمل المسلمات باتفاق علماء المسلمين وإن لم يرد فيه لفظة مسلمة – لأن المرأة في الإسلام قسيمة الرجل. لها من الحقوق – ماله – وعليها ما عليه ذلك

---

(١٥٣) سورة الزمر ٩

(١٥٤) سورة طه

(١٥٥) سورة فاطر ٢٥.

(١٥٦) رواه الطبراني

(١٥٧) رواه الطبراني

ما ورد به النص في القرآن الكريم حيث يقول الله سبحانه﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[١٥٨] ولهذا ورد – أن – أسماء بنت يزيد بن السكن – الأنصارية – أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه – وقالت له – بأبي أنت وأمي يا رسول الله – أنا وافدة النساء إليك – إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة – فآمنا بك وبإلهك وإنا معشر النساء محصورات مقصورات – قواعد بيوتكم. وحاملات أولادكم. معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات. وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج. وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عزوجل. وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا. أو مجاهدًا. حفظنا لكم أموالكم. وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم. أفنشارككم في هذا الأجر والخير؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله. ثم قال. هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسألتها في أمر دينها من هذه؟ فقالوا. يا رسول الله. ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها. وقال لها. افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء. أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته – وإتباعها موافقته يعدل ذلك كله"[١٥٩] وكانت أسماء يقال عنها بأنها خطيبة النساء.

إن المرأة أي أنثى – هي فرد من أفراد المجتمع – لها من الحقوق المدنية ما لأي رجل – ولهذا فلها – حق طلب العلم – إلى أعلى مستوى ولها – حق الأمن على النفس – والمال الذي يخصها وتمتلكه – ولها حق الدفاع عن عرضها وعفتها وصيانة كرامتها – ولها حق التملك في أي مال – سائل – أو ثابت – أو منتقل – ولها حق التصرف بمفردها في تلك الحقوق – والواجبات –

---

(١٥٨) البقرة ٢٢٨

(١٥٩) يراجع الإجابة في طبقات ابن سعد.

أقرتها الشريعة الإسلامية – والمعلم العظيم نبي الإنسانية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. الذي حررها من كل ظلم واضطهاد وأعلن في دستوره العظيم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19) ﴾[160] ويقول الله سبحانه ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97) ﴾[161] ويقول الله سبحانه ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾[162]

(160) سورة النساء ١٩.

(161) سورة النحل ٩.

(162) سورة التوبة ٧١.

أين القيود على المرأة

ليس في الشريعة الإسلامية قيود على المرأة إلا بما يصون كرامتها ويحافظ على حيائها. فالشريعة الإسلامية أحاطتها بالرعاية والكرامة وسمت بمكانتها وأعطتها ما لم تحظ به أي امرأة في أي مكان.و هذا كتابنا بين أيدينا نحتكم إليه – وهذا تاريخنا – أكبر شاهد على ما قلنا أن من الحق الذي لا مراء فيه أن الإسلام حث المرأة على طلب العلم ويحدثنا التاريخ بأنه قد امتازت الأنثى العالمة المسلمة – بالصدق في العلم – والأمانة في الرواية – والدقة في النقل حتى قال الحافظ الذهبي – والذي توفى سنة ٧٤٨ هـ وهو ثقة – له كتاب "ميزان الاعتدال" في نقد رواه الحديث – خَرّجَ أربعة آلاف من الرجال واتهمهم في عدم ضبط الرواية. ثم كتب بخط يده. وما علمت من النساء من اتهمت ولا من تركوها"[١٦٣] ولعل شخصًا يسأل. وهل كانت المرأة تحفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وترويها؟ نعم – ونستشهد بالحافظ بن عساكر وهو من أوثق رواه الحديث حتى لقبوه بحافظ الأمة كان من شيوخه في روايات الحديث وأساتذة أكثر من ثمانين امرأة"[١٦٤] فهل سمع الناس أن شيخًا عظيمًا وعالمًا جليلاً يتلقى العلم عن هذا العدد من النساء. في منطقة واحدة فما بالك ببقية بلاد المسلمين؟ عائشة رضي الله عنها، سنها يقترب من تسعة عشر سنة. وكانت رضي الله عنها – بارعة في رواية الحديث – لقوة ذاكرتها. وكثرة معاشرتها لسيد الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وكانت نسيجاً وحدها في تعليم غيرها من النساء وكانت دقيقة جدًا في رواية الحديث – لذلك

---

(١٦٣) كتاب ميزان الاعتدال ج٣ ص ٣٩٥.

(١٦٤) يراجع كتاب طبقات الشافعية ج٤.

ملأت أرجاء الأرض علمًا – وكانت رضي الله عنها من أنفذ الناس رأيا في علم الدين وأصوله – وكان الكثير من الصحابة يلجئون إليها عندما يستشكل عليهم رأي – خاصة في علم الفرائض (المواريث)– ولم يقف علمها عد ذلك – فقد كانت بارعة في رواية الشعر والتاريخ والأنساب والطب وعلم الكواكب. يقول عروة بن الزبير وهو من كبار فقهاء المسلمين "ما رأيت أحدًا أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة رضي الله عنها"(١٦٥) وكانت رضي الله عنها تجيد القراءة. ثم إن زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعًا كن قسيمات للسيدة عائشة رضي الله عنها – في إذاعة العلم وشرح منهج الدين ولم يكن هذا وقفًا على أمهات المؤمنين رضي الله عنهن – فلقد أفرد محمد بن سعد جزءًا كبيرًا من مؤلفه – الطبقات الكبرى ذكر فيه أكثر من سبعمائة امرأة روين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روين عن كبار الصحابة. وروى عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين– وهذا علي بن أبي طالب وهو من هو – العالم الفذ العظيم وله صلة قوية جدًا برسول الله صلى الله عليه وسلم – يتلقى الحديث على يد السيدة "ميمونة ابنة سعد"(١٦٦) ولقد حفظ التاريخ أن السيدة/ عائشة بنت طلحة وفدت علي هشام بن عبد الملك فقال لها. ما أوفدك؟ فقالت "حبست السماء المطر. ومنع السلطان الحق. قال لها. سأعرفه حقك. ثم بعث إلى مشايخ بني أمية يقول لهم. إن عائشة بنت طلحة – عندي – فاسمروا عندي الليلة – فحضروا – فما تذاكروا شيئًا من أخبار العرب. وأيامها. وأشعارها. إلا أفاضت معهم في الحديث وما طلع نجم ولا أفل إلا سمته. فقال لها هشام أما الأول فلا أنكره – أما النجوم فمن أين لك هذا العلم؟ قالت أخذت ذلك عن خالتي عائشة –

---

(١٦٥) يراجع الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٧.

(١٦٦) يراجع كتاب الإصابة ج٧.

أم المؤمنين رضي الله عنها – فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة"[١٦٧] – حدث الحجاج بن يوسف الثقفي – أنه تزوج بأربعة نسوة وكان يتحدث عن شعوره وهو مع كل واحدة فيقول تزوجت – هند بنت المهلب. وكانت ليلتي عندها – ليلة فتى بين فتيان. يلعبون ويلهون – وتزوجت – هند بنت أسماء بن خارجة – وكانت ليلتي عندها ليلة ملك بين الملوك – وتزوجت أم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد – وليلتي عندها – ليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم. وتزوجت أمة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البُجَلِي – فليلتي عندها – ليلة عالم بين العلماء والفقهاء. [١٦٨]

لقد وثب المسلمون وثبة ملأوا بها الأرض – علمًا – وفقهًا – وسماحة وعدلاً – وفتحوا المدائن. وانساحوا في الأرض. وركزوا ألويتهم في قلب أسيا. وهامات إفريقيا. وأطراف أوربا. وانفتحت قلوب البشر لهذا الدين العظيم. الذي يحترم المرأة. ويحثها على التعلم. ولقد تساءل الناس في أي المدارس تخرجت هذه المرأة المسلمة. ومن أي المعاهد رشفت هذا العلم؟ الحق. أن الخيام العربية. ودورهم المتواضعة بلا ماء ولانور, هي المدارس والمعاهد لكن الذي تولى أمر التدريس لهؤلاء. أمهات صدق – أقامهن الله على تنشئة أفراد المجتمع. واستخلفهن الله على صنائعه. وائتمنهن على بناة ملكه. وحماة دعوته. ورعاة خلقه. فكن أقوم الناس وأحسنهن خلقًا. وأثبتهن على عهده. وأنهضهن بالقيام بالواجب عليهن, إن الله سبحانه ما كان ليذر الخلق تتخطفهم الشياطين. أو يكون مخرجهم مخرجًا سيئًا – أو يكون منبتهم منتًا سيئًا. أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة – ثم يطالبهم أن يكونوا قادة يقودون المجتمعات ويؤسسون الحضارات. لو فعل ذلك. لكان يكلف الناس شططًا. ويطالبهم بالمحال. لكن الله

---

(١٦٧) الأغاني ج ١٠.

(١٦٨) العقد الفريد ج٣.

سبحانه رؤف رحيم. يريد بالناس اليسر ولا يوردهم مواطن العسر – لأنه سبحانه يخفف عن الناس. لذلك أوكل الرعاية الكاملة على الأبناء. إلى الأمهات لأن المرأة هي التي حملت الجنين في أحشائها وتكون في بطنها وضمه جسمها تسعة أشهر، ثم أرضعته من صدرها حولين كاملين. ثم تابعت رحلته بكل حواسها ومشاعرها إلى أن يبلغ العشرين. ولما كانت الأم بمثابة القلب من الجسد – وهي المربية – والمعلمة جاءت تعاليم السماء بإنصافها. ورفع شأنها. ورد مظلمتها ولذلك جاء – أن عبد الملك بن مروان– خليفة المسلمين – والحاكم العام للعالم الإسلامي. يخطب بنت رجل أعرابي هو – علقمة المري– ليزوجها لولده فرفض علقمة – وقال للحاكم العام أن سبب رفضه أن ولده لا يحسن العربية وقال كلمته التي شاعت وصارت مثلاً "جنبني هجناء ولدك"[١٦٩] لأن ولده لم يكن يحسن النطق باللغة العربية.

في رحاب الإسلام تجد أن المرأة قسيمة الرجل لها من الحقوق ماله – وعليها من الواجبات ما عليه – وإذ كان الله سبحانه – جعل القوامة للرجل – في قوله سبحانه "﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾[١٧٠] قوامة تكليف لرعاية الأمور فالرجل له قوامة على المرأة تتمثل في إنفاق المال – لأنه هو المسئول عن رعاية البيت. والإنفاق عليه وإحاطته بالأمن. وتهيئة المناخ الصحي وإنعاش الجميع. ونشر روح المودة والصفاء والسلام حول أسرته. وبيته وزوجته – وقد أوكل الله إليه ذلك بما له من قوة الجلد – وبسطة اليد – وإتساع الحيلة – وتحركه في جنبات المجتمع – وحضوره الجمعة والجماعات في المسجد –

---

(١٦٩) العقد الفريد ج٢.

(١٧٠) سورة النساء ٣٤.

وجلوسه مع الناس في الأندية ومناقشة الأمور. من هنا كانت له درجة الرعاية والحياطة – يزود عن أسرته. وينفق عليها. حتى ولو كانت زوجته. من سيدات الأعمال. ولها أموال. فهي غير مطالبة بالإنفاق على الأسرة. وإن كانت تخرج زكاة. فليست مطالبة بالإنفاق على البيت – وقد تدفع بزكاتها إلى زوجها فهـذا جائز لأنها غير مكلفة بالإنفاق على الأسرة– وليس بجـائز أن يـدفع الرجـل بزكاته إلى زوجته. لأنه المسئول عنها وله دور القيادة.

كرامة المرأة

الإسلام قرن بين الرجل والمرأة في عامة المواطن. وعرف لها نصيبها في الوجود وما تتمتع به من رقة الحس – والإحساس الزائد. والحس المرهف. ودقة الوجدان لأنها مناط شرف الرجل. وهي عرضه الذي يزود عنه – لـذلك خصها بنصيب كبير من الحرمة. وأحاطها بسياج من الكرامة. لم يظفر بمثلها أحد من البشر. ولم يصل إلى مثل ذلك تشريع مهما كان واضعه.

ولك أن تتأمل في صيانة كرامة سيرتها.وصيانة اسمها فإن الله سبحانه وتعالى. وضع تشريعًا في كتابه الكريم لهذا الغرض. من ذلك

١- هناك بعض الناس يتلذذون بإشاعة الفاحشة في المجتمع. وينشرون إفكًا ما سترته البيوت من أعراض الحرائر. فيشيعون إفكًا وزورًا وبهتانًا عن بعض الناس كلامًا لا أصل له ولا فصل ويروجون لهذا إساءة وتشنيعًا على العفيفات الطاهرات فهل يتركهم المجتمع وشأنهم – لا – فتولى الحق سبحانه. وضع التشريع لهذه الحالة فقال سبحانه ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾[١٧١] فتأمل يرحمك الله – من يقذف امرأة. وليس معه شهود – يجلد – ينبذ من المجتمع – ولا تقبل له شهادة. لأنه فاسق. فهل بعد ذلك شيء يمكن أن يوضع في أي تشريع– لهذا على المرء المسلم أن يصون لسانه. ولا يخوض به في أعراض الناس

([١٧١]) سورة النور ٤.

علمًا بأن الله سيسلط عليه من هو أقوى منه – يلوث شرفه ويسيء إلى سمعته. لأنه **"لا يحيق المكر السيء إلا بأهله"**

٢- لم يكتف المسلمون بالوقوف عن الامتناع عن الخوض في أعراض النساء ومنع ألسنتهم عن الكلام في سيرتهن. بل إنهم اتهموا أنفسهم دونها. وكان المسلم يحاول إدخال السرور على النساء والترفيه عنهن واجتلاب ما يفرحها. ويشرح صدرها. فلقد حضر وفد من رجال الحبشة إلى المدينة المنورة في عهد رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وقد أذن لهم أن يلعبوا بحرابهم في مسجده– لعبة التحطيب وهي شيقة ممتعة– فدعا النبي صلى الله عليه وسلم السيدة – عائشة – رضي الله عنها – أم المؤمنين – فوطأ لها عنقه – وحاط وجهها بيده – وأشهدها ذلك المنظر الذي يدخل البهجة والفرحة على القلب. كما أن السيدة – عائشة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنها حضرت زفاف فتاة لزوجها. فقال لها – هلا بعثتهم معها من يغني؟ قالت لا – قال – أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء فلن نحلل بواديكم[١٧٢]

٣- بعض رجال العرب – كان فيهم حدة وصرامة على النساء. وكانوا يضربون نسائهم. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب لذلك. ويقول "اتقوا الله في النساء" واستوصوا بالنساء خيرًا" وكان صلى الله عليه وسلم كأغضب ما يكون إذا سمع بأن امرأة يضربها زوجها– فقد جاءت امرأة إلى رسول الله تشكو زوجها الذي يضربها ضربًا شديدًا

(١٧٢) يراجع العقد الفريد ج ٣.

فأنكر ذلك وقال "يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد. ثم يظل يعانقها ولا يستحي" وقد نهى عن ضرب النساء. فقيل له يا رسول الله "إنهن فسدن – فقال. أضربوهن – ولا يضرب إلا شراركم"(١٧٣) فمن يضرب زوجته فهو من الأشرار وهم لا خير فيهم. ومن يريد أن يكون كذلك؟ فليفعل كما يفعل السفهاء من الإساءة إلى أي امرأة.

رد اعتبارها

لقد أعد الله المرأة إعدادًا خاصًا – لأنها ليست بالخَلْق الضعيف. فالله سبحانه يقول عن **كيد الشيطان بأنه ضعيف**(١٧٤). وعن كيد المرأة. **بأن كيدهن عظيم**(١٧٥). والمرأة أعدها الله إعدادًا خاصًا لذلك استطاعت أن تحتمل ما احتملت في ظلمات التاريخ. وجهل البشر فوق ما يحتمله الكثير من الرجال. فلقد عاشت تحت عسف الدهر. وظلم الأب. وصلف الزوج. إلى وقر الحمل. وألم المخاض وسهر الليالي. ورعاية الأطفال وهي راضية. مطمئنة وهي بهذا لا تكون أبدًا ضعيفة. لأن المرأة دعامة هذا الكون وقد أوكل الله إليها أبتناء العالم وإنشاء الأمم. ولا يزال المجتمع ناهضًا ما نهضت به المرأة – فإن هي وهنت.وضعفت تصدعت جوانبه بعد تهاون عمده لأن المرأة مصدر قوة الأسرة. ولذلك وصفها بطل التاريخ الحديث "نابليون بونابرت" فقال "**إن المرأة التي تهز الوليد في مهده بيمينها. قادرة على أن تهز العالم بشمالها**.."ولقد سئل ذات مرة" أي حصون فرنسا أمنع عليك؟ فقال المرأة الصالحة. لقد كان من

---

(١٧٣) يرجع الطبقات الكبرى ج٧.

(١٧٤) تراجع الآية ٦٧ من سورة النساء.

(١٧٥) تراجع الآية ٢٨ من سورة يوسف.

سنن العرب في جاهليتهم إذا مات الرجل. تقدم أقرب الورثة له. ووضع ثوبه على زوجة المتوفي. وقال أنا أحق بها – فإن شاء تزوجها– أو زوجها غيره – بأمره – وأخذ صداقها. وإن شاء عضلها "وعضل المرأة – إمساكها على كره منها وإلحاق الأذى بها" وإن أرادت أن تنال حريتها – فعليها أن تدفع مبلغًا من المال تفتدي نفسها بذلك يقول الله سبحانه ناهيًا عن ذلك – لأن المرأة لها كرامتها فيقول الله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[١٧٦] إنه يحرم على الرجل أن يستبقى المرأة على كره منها. ولهذا يقول الله ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[١٧٧] ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقا رضي عن خلق**"[١٧٨] ولقد طلق رجل زوجته. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم طلقتها؟ قال. لا أحبها. فقال له عمر رضي الله عنه – أكل البيوت بنيت على الحب أين الرعاية والذمم. وقول الله سبحانه ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْۚ﴾[١٧٩] إن الإسلام رد إلى المرأة اعتبارها وأعطاها حرية كاملة. فمن حقها أن تحضر المجالس العامة والمحافل الاجتماعية. وتبدي رأيها بصراحة تامة وتعبر عما في ظاهرها. وليس لأحد أن

([١٧٦]) سورة النساء ١٩.

([١٧٧]) سورة النساء ١٩.

([١٧٨]) حديث رواه مسلم.

([١٧٩]) الإصابة ج٨.

يغصبها على رأي أو يجبرها على عمل. ولذلك من حقها أن تفصم عقدة النجاح إذا أهدرت كرامتها أو خدعت فيمن تزوجت به أو أكرهت على قبوله. وليس لأحد أن يجبرها أو يقودها لشيء قهرًا عنها وخذ هذا النموذج – السيدة/ أم هانئ بنت أبي طالب. خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت يانبي الله لأنت أحب إليَّ من سمعي وبصري وإني امرأة مؤتمة وأولادي صغار – وحق الزوج عظيم: "فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي. وإن أقبلت على أولادي ضيعت حق زوجي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. "وإن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش – أحناء على ولد في صغره. وإرعاء على بعل في ذات يده، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت الإبل مافضلت عليها أحدًا"(١٨٠) ويروي – أن امرأة جاءت إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله – فقالت يا أمير المؤمنين – إن زوجي يصوم النهار.ويقوم الليل. فقال لها. نعم الرجل الصالح زوجك. وكان بالمجلس رجل عالم. فقال يا أمير المؤمنين. إن هذه المرأة تشكو زوجها لمباعدته لها. لأنه لا يقرب فراشها فقال له عمر – كما فهمت كلامك. أحكم بينهما – فقال كعب. وهو الرجل المتكلم – علي بزوجها. فأحضروه. فقال له كعب – للرجل. أهذه امرأتك؟ قال نعم. قال – كعب. فإنها تشكوك. قال. أفي أمر طعام أو شراب؟ قال – لا – ولكن في أمر مباعدتك إياها عن فراشك فنظر إليها زوجها – فقالت

يا أيهـــا القاضي أنشـــده ألهي حليلي عن فراش مسجـده

نهـــاره وليلـــه لا يرقـــده فلســت في أمــر النســاء أحمــده

فرد زوجها قائلا:

---

(١٨٠) الطبقات الكبرى ج٧.

زهدني في فرشها وفي الحلل أني امرؤ أذهلني ما قد نزل
في سورة النحل وفي السبع الطوال وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال كعب

إن لها عليك حقا لم يزل في أربع نصيبها لمن عقل
فعاطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال. إن الله أحل لك من النساء – مثنى وثلاث ورباع – فلك ثلاثة أيام بليالهن – ولها يوم وليلة – فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه – لا أدري من أيكم أعجب؟ أمن كلامها. ورد زوجها. أم حكمك اذهب. فقد وليتك البصرة.[١٨١] كما ذكروا أن الحجاج بن يوسف الثقفي وكان شديد القسوة ظالم – سمع أن هندًا بنت النعمان. كانت من أجمل وأحسن أهل زمانها. خطبها الحجاج. وخوفًا من ظلمه تزوجته. وقد أغدق عليها وبذل لها مالاً كثيرًا – فلما تزوجها وقفت في يوم أمام مرآتها تسرح شعرها ورأت وقع أقدام الحجاج في المرآة وهو يظن أنها لم تره. وكانت هند تغني – وكان الحجاج يسمعها فقالت رافعة صوتها.

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلا فلله درها وإن ودلت بغلا فقد جاء به البغل

فرجع الحجاج وهو يظن أنها لم تره – وأرسل إليها – عبد الله بن الطاهر – وقال له يابن طاهر – طلقها بكلمتين – وأرسل معه مؤخر صداقها– وكان المؤخر مبلغًا – مائتا ألف درهم. فذهب إليها ابن طاهر – ووقف وقال

([١٨١]) المستطرف في كل فن مستطرف ج١ ص ٥٦.

لها – يقول لك – أبو محمد – الحجاج بن يوسف –كنت. فبنت وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك عنده – فقالت له – أعلم يابن طاهر– إنا والله كنا فما حمدنا – وبنا فما ندمنا وهذه المائتا ألف التي حملتها إلينا هدية منا إليك بشارة لخلاصنا من كلب بني ثقيف"[١٨٢] وذكروا– أن رجلاً نظر إلى امرأته وهي صاعدة على السلم– فقال لها – أنت طالق إن صعدت السلم. وطالق – إن نزلت على السلم– وطالق إن وقفت فرمت بنفسها على الأرض– فأقبل عليها يقول. فداك أبي وأمي. إن مات الإمام مالك. احتاج إليك أهل البلد في أحكامهم. ولحسن تصرفها وسرعة تفكيرها وحتى لا تطلق تصرفت بإبهار. وهذا دليل الذكاء الخارق.

الغيـــرة

الغيرة – هي أحاسيس داخلية في أعماق الشخص– ومشاعره وقد تسيطر على الإنسان فيتصرف تصرفًا غير ما تعود عليه لذلك فقد تكون الغيرة معتدلة أو متوسطة أو متطرفة......

فالغيرة المعتدلة – يحبها الله ورسوله – وتؤدي إلى خير للشخص ولمن يغار عليهم .

غيرة متوسطة– وهي تهدف إلى الصالح العام. ولكن بنوع من النرفزة وقليل من التوتر. وشيء من شد الأعصاب....

غيرة متطرفة – فيها هياج وصياح وتوتر زائد. وشك فيمن يتعامل معهم واضطراب الفكر. وعدم التركيز في شيء. وهذه مذمومة. لأنها تكون

---

(١٨٢) بتصرف من كتاب المستطرف في كل فن مستظرف ج١ ص ٥٤.

سببًا في انصراف الناس عن الشخص الذي بهذه السمات ثم هو لا يصل إلى هدفه. ولا يحقق المطلوب منه. وليس له صاحب ولا معرفة بأحد..ومثل هذا تكون غيرته متجاوزة للحد. وتدفع بالشخص أن يتهم الناس بلا مبرر. ويشك في نفسه وفي زوجته وأولاده والناس جميعًا والإسلام قد قطع الطريق على أصحاب الفكر السقيم الذين يشكون حتى في أنفسهم. لأن العرب في جاهليتهم كانوا قد جاوزوا الحد في الغيرة وذلك لأن فريقًا منهم. دفعهم الوهم إلى أن يذهب أحدهم إلى شجرة فيربط بين غصنين من أغصانها. فإن عاد من سفره ووجد أن الغصنين انفكا فإن زوجته قد خانته – فيمتلئ قلبه غيرة وحقدًا وحسدًا. وكانوا يسمون ذلك بالرتيمة– وإن وجد أن الغصنين مازالا على حالهما كما عقدهما. فإن زوجته لم تخنه وهذا وهم شديد جاوزوا به الحد – لنفرض أن الهواء هو الذي حل الغصنين فإنه يرمي زوجته بالزنى. ولذلك كانوا يحتكمون إلى الكهان والعرافين – وهم بشر يخطئون ويصيبون كما أنه قد يكون هناك شخص يرى بعض أفراد أسرته من النساء – وقد خرجت واحدة من أهل بيته قصيرة الملابس. ضيقة مفتوحة الصدر عارية الذراعين – ويرى أعين الشباب تتجه إلى هذه الأجسام فإن الغيرة تفتعل في نفسه. هنا يأتي توجيه الإسلام. بضبط النفس. وعدم التوتر والبعد عن شد الأعصاب ونوجه النصح لأي شخص عنده غيرة مفرطة– اضبط أعصابك واحتكم إلى العقل. ولنا في سيدنا سعد بن عبادة – قدوة فقد قال **"لو رأيت مع زوجتي رجلاً لضربته بالسيف. فبلغ ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال – أتعجبون من غيرة سعد. والله لأنا أغير منه – والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن"**[١٨٣]

---

(١٨٣) يراجع إرشاد الساري ج ٨.

إن الإنسان المسلم عليه أن يغار ولكن باعتدال إذا انتهكت محـارم الله. واعتدى على حدوده وأسئ إلى الرموز العظيمة في تاريخ المسلمين. فعليـه أن يعتدل في غيرته ولا يتوتر. حتى لا يسئ إلى نفسه. ودينه.ومجتمعه. وتأمل ما رواه سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه. **"أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلامًا أسود. فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم هل لك من إبل؟ قال نعم. قال ما ألوانها؟ قال. حمر. قال أفيها أورق؟ قال نعم. قال. فأنى ذلك. فقال لعله عرق نزع. قال. فلعـل ابنـك هذا نزعة العرق"**[١٨٤].

فانظر كيف شرع النبي صلى الله عليه وسلم يوجه الرجل إلى أسـس الغيـرة المعتدلة والتي لا مجال فيها لنزعات الوهم. وضروب الوسـاوس والأوهـام. وكيف وقى الناس من شر الغيرة المتطرفة والتي تؤدي إلى التصـدع وقطـع العلاقات. والإساءة إلى الغير. وتأمل كيف دفع النبي صلى الله عليه وسلم شر التهمة عن زوجة الأعرابي ودفع الشك من ذهن الرجل وبين براءتها وطهـارة عرضها. إن الغيرة الشديدة علامة الحمق – والجهل ولـذلك قـالوا إن الغيـرة الشديدة تغير في القلب – وهيجان ثورة الغضب بسبب الإحساس بمشاركة الغير فيما هو حق للإنسان. وهذه الغريزة يشترك فيها الرجال والنساء. بل قد تكـون في النساء أكثر. وتتأجج أكثر إذا أحست المـرأة بخيانـة زوجهـا أو بتطلعـه للأخريات.

وتكون الغيرة سببًا في تدمير الأسرة. وتشريد الأولاد إذا شك الرجـل في زوجته أو أحس بتطلع زوجته إلى الرجال أو العكس– هناك غيرة يمتلئ بها

---

(١٨٤) يراجع إرشاد الساري ج ١٠.

قلب شخص من زميله – أو جاره – أو – ابن بلده فيحقد ويتآمر ويكتب الشكاوي الكيدية ويخطط للنيل من صاحبه. أو جاره وهكذا.

لذلك إذا كانت الغيرة في موطنها وأن تكون معتدلة – من الرجال أو النساء – فتكون خير للشخص ومن يتعامل معه بهذا الاعتدال وحتى تكون المعاشرة مع الزوجة – والأصدقاء – والجيران – وزملاء العمل – بالحسنى – والتمسك بقيم الدين – والاعتدال في الغيرة لأنه ما من أمر إلا وله طرفان ووسط: والغيرة المعتدلة فيها صيانة للأعراض وحفظ للحرمات – وتعظيم لشعائر الله. وحفظ لحدوده. وإذا كانت معتدلة. فهي مؤشر على صحة الإيمان وقوته في دينه– إن الغيرة المعتدلة – رفع لقيمة الإحساس حتى يتمكن الشخص من الدفاع عن العرض والحريم وهذا نوع من الجهاد في سبيل الله. وإذا قتل في سبيل ذلك فهو شهيد – ففي الأثر– ومن قتل دون أهله فهو شهيد وهذا خلق كريم – ونذكر هنا – أن السيدة العظيمة أم المؤمنين المبرأة من فوق سبع سموات. كان عندها غيرة شديدة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج هذه الغيرة برفق – وتوجيه. وبهدوء – وهذا درس لكل رجل يجد زوجته تغار عليه بعنف – فيعالجها بهدوء ويعمل على تهدئة أعصابها. وتوجيه حكيم ونذكر كلمة لأمنا العظيمة السيدة عائشة رضي الله عنها "لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء" إن الغيرة شيء فطري في الإنسان. وغيرة الأنثى أشد – لكن المؤمن لا يسمح لغيرته أن تتجاوز حدها. ذلك لأنها ثورة في النفس. وتوتر في الأعصاب. وغضب يتفجر في القلب – إذا أحس الإنسان بأن كرامته تنتقص. أو يعتدي على حدود الله وتنتهك محارمه. ولهذا قالت السيدة عائشة رضي الله عنها **"ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرها ما**

لم يكن إثمًا. فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه.وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها"(١٨٥)

زيادة إيضاح

تتصف المرأة بالغيرة الشديدة – فهي تغار من ضرتها – ومن صاحبتها إذا تميزت عليها في شيء. في مسكن – حتى في تسريحة الشعر. وتغار من أختها إذا تفوقت عليها كذلك ونحن نوجه النظر إلى الاعتدال في الغيرة ونقول لكل أنثى من بنات حواء ما وجهنا إليه ربنا جل جلاله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ ﴾(١٨٦) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم "**إن من الغَيرْة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله عز وجل منها**"(١٨٧)......

ولكن

هل صحيح ما قيل أن السيدة سارة زوجة نبي الله إبراهيم عليه السلام غارت من هاجر لما ولدت سيدنا إسماعيل. وأوعزت إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام أن يبعدها هي وولدها عن وجهها. وأن سيدنا إبراهيم أبعد سيدتنا هاجر مع ولدها وأسكنها بواد غير ذي زرع.وتركها في الصحراء بلا أنيس؟؟؟

---

(١٨٥) متفق عليه.

(١٨٦) سورة الحجرات ١٢.

(١٨٧) رواه النسائي.

والإجابة – طبعا لا – وألف مرة لا – ذلك لأن سيدتنا سارة زوجة نبي عظيم – هو خليل الرحمن سيدنا إبراهيم عليه السلام. وهي امرأة سليمة القلب – نقية النفس – طاهرة السريرة – مخلصة في طاعة ربها – صوامة قوامة – تتسم بسمو الروح. وفوق ذلك فهي زوجة نبي – وأم نبي. وجدة نبي. بشـــرتها بذلك الملائكة بوحي من الله سبحانه. بعد أن بلغت من الكبر عتيًا. وقد أثنى الله عليها في قوله سبحانه ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[١٨٨] وإنما أسكن سيدنا ابراهيم عليه السلام أمنا هـــاجر مـــع ولـــدها اسماعيل عند بيت الله الحرام بأمر الله سبحانه. وليس كما يقال. وسكنها عنـــد بيت الله المحرم لحكمة كشفت عنها الأيام.

([١٨٨]) سورة هود ٧٣.

السيدة عائشة رضي الله عنها

هي الصديقة بنت الصديق. أبوها العظيم سيدنا أبو بكر رضي الله عنه. رفيق النبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة – وأنيسه في الغار. يقول الله سبحانه ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾(١٨٩) وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه. أول خليفة لرسول الله والسيدة عائشة رضي الله عنها – أثبتت للدنيا أن المرأة جديرة بأن تكون أعلم من الرجال في كل مجالات الحياة – الأدبية – الفقهية – الاجتماعية – السياسية. في السلم والحرب لها دور لا ينكر عليها ذلك أحد. لأنها تتلمذت وتعلمت في مدرسة النبوة. المدرسة التي خرجت العمالقة الذين أناروا الدنيا ونشروا العدل.ونادوا بالسلام. هذه الكريمة العظيمة. تعلمت على يد النبي الكريم وتتلمذت عليه. فحصلت من العلم والفضل والبيان ما جعل ذكرها له صدى في التاريخ خاصة وأنها كانت من أحب نساء رسول الله إلى نفسه الطاهرة. نقلت عنه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة أعز ما يتمناه الناس من أمور دينهم من هدى نبيهم ما لم يطلع عليه أحد إلا هي. لقد انفردت من دون الأئمة الأعلام بنقل أمور. لا سبيل لأحد أن يعرفها إلا القريب من الحبيب. فكانت بحق الأستاذة الأولى. خاصة ما يتعلق بأمور النساء. يتطاول البعض عليها وهم يجهلون قدرها وفضلها ومكانتها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال صلى الله عليه وسلم لها "أريتك في المنام ثلاث ليال – جاءني بك الملك

---

(١٨٩) سورة التوبة.

في سَرَقَة[١٩٠] من حرير. فيقول لي – هذه امرأتك. أكشف عن وجهك. فإذا أنت هي. فأقول إن يك من عند الله يمضه"[١٩١] ولقد سألت النبي صلى الله عليه وسلم وقالت – من أزواجك في الجنة؟ فقال "أما أنك منهن"[١٩٢] لقد علـم الصـحابة رضوان الله عليهم حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها– فإذا كان أحـدهم يريد أن يهدي أي شيء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يتحرى يـوم تواجـده عندها فيبعث بهدية لبيت سيدتنا عائشة رضي الله عنها.

(١٩٠) سرقة أي قطعة من قماش

(١٩١) رواه البخاري

(١٩٢) أخرجه الحاكم في المستدرك.

هل صحيح كانت سيدتنا عائشة رضي الله عنها عندها غيرة شديدة

المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان. وعلينا نحن أن نفرق بين امرأة لها مكانة اجتماعية مرموقة. زوجة عظيمة. لا شك أن نظرتنا إليهـا سـوف تختلف عن امرأة أخرى. لأن البيئة الاجتماعية. والتربية الأسرية. لهمـا أثـر كبير في تكوين الشخص. لذلك عندما نحلل شخصية السيدة العظيمـة. سـيدتنا عائشة رضي الله عنها. نجد أنها هي رضـي الله عنهـا – حـددت ملامـح شخصيتها عندما قالت. خلال فيّ ليس في غيري ولا أقول ذلك فخرًا– وإنما هو فضل الله علي.

١- نزل الملك بصورتي. ففي الحديث النبوي الشريف "إن جبريل عليـه السلام جاء بصورتها في خرقة حرير إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له"هذه زوجتك في الدنيا والآخرة"[١٩٣].

٢- وتزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرًا. فكانت خيـر زوجـة تؤنس زوجها. وتدخل السرور على قلبه. وتزيل عنه كل ما يلاقيه مـن عناء خارج البيت. كانت رضي الله عنها كريمة النفس.سخية اليد. صبرت مع النبي العظيم على الفقر والجوع فكان يمر عليها الشهر والثلاثة – ولا يوقد في بيتها نار – لطبخ أو خبز. لقد كانت رضي الله عنها مثالاً رائعًا في الإخلاص والوفاء. والانضباط.

(١٩٣) رواه الترمذي

٣- كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتها. وهي معه. ورأت جبريل عليه السلام.

٤- وأكرمني الله بأن نزل بسببي أية كادت الأمة أن تهلك لولا نزولها – أية التيمم.

٥- انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه في بيتها ودفن فيه– وهذا شرف لو تعلمون عظيم.

هذه هي السيدة عائشة رضي الله عنها والتي نشأت في بيت كله طهر. وصدق.ووفاء وكانت بين أبوين عظيمين.ورثت عنهما عمل الخير. ومساعدة الغير. وغرسا في قلبها حب الله – والاستعداد لليوم الآخر،وحب الداعية الأول. والالتزام بمنهج الدعوة ولذلك كان لها دور كبير في الدفاع عن حقوق المرأة حتى أصبحت زعيمة للمطالبين بنصرة المرأة والمدافعين عنها. وكانت عيون المضطهدات والمستضعفات تتطلع إليها لما لها من مكانة اجتماعية عظيمة.

مثل هذه السيدة العظيمة – تكون غيرتها مدمرة – لا – وإنما الغيرة عندها معتدلة – يدلنا على ذلك هذا الحديث النبوي الشريف "**تقول السيدة/ عائشة رضي الله عنها. ما غرت علي امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة "رضي الله عنها" بكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها. وقد أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبشرها ببيت لها في الجنة من قصب. وفي رواية قالت رضي الله عنها وما رأيتها ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها. فربما قلت له – كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة "رضي الله عنها" وفي رواية أخرى قالت السيدة/ عائشة رضي الله عنها استأذنت هالة بنت خويلد على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعرف استئذان خديجة "رضي الله عنها" فارتاع لذلك. فقال– اللهم هاله**

– تقول السيدة/ عائشة رضي الله فغرت– فقلت. ما تذكر من عجوز من عجائز قريش / حمراء الشدقين هلكت في الدهر – قد أبدلك الله خيرًا منها"(١٩٤) وفي حديث آخر تقول السيدة / عائشة رضي الله عنها **"أقبلت هالة أخت السيدة خديجة رضي الله عنها لزيارة المدينة. وسمع النبي صلى الله عليه وسلم صوتها وكان في فناء البيت. وكان صوت هاله يشبه صوت خديجة رضي الله عنها. ارتاع لها قائلاً "اللهم هاله" أخت خديجة. تقول السيدة/ عائشة رضي الله عنها – فغرت– فقلت. ما تذكر من عجوز من عجائز قريش هلكت في الدهر. أبدلك الله خيرًا منها – قالت. فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اهتز مقدم شعره من الغضب. ثم قال – لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها آمنت بي حين كفر الناس.وصدقتني إذ كذبني الناس. وواستني بمالها إذ حرمني الناس ورزقني منها الولد دون غيرها من النساء"**(١٩٥) إن السيدة خديجة رضي الله عنها ستظل في نفوس المسلمين لها المكانة السامية فهي التي اختارها الله لتكون شريكة الحبيب صلى الله عليه وسلم في المرحلة الأولى للإسلام. وأخطر دور في الدعوة لأمر يعلمه الله . والعظائم كفؤها العظماء.

إن الغيرة عند سيدتنا / عائشة رضي الله عنها. لم تكن مدمرة. ولم يخالطها حقد – ولا كراهية – لا – وإنما كانت لإرشادنا إلى الاعتدال. حتى عند الغضب أو إذا تحركت فينا ثورة نفسية. فعلينا أن نبادر ونسارع على التوبة والاستغفار. ولذلك تقول السيدة العظيمة/ عائشة رضي الله عنها.

---

(١٩٤) حديث متفق عليه/ وارتاع لذلك. لأن الطرق على الباب يشبه طرق خديجة رضي الله عنها. فظن أن خديجة حية فاضطرب ثم عرف أن هالة أخت خديجة وتشبهها في كل شيء ففرح بمقدمها والشدق جانب الفم . والهلاك – الموت.وخديجة رضي الله عنها لها مكانة عظيمة عند جميع المسلمين.

(١٩٥) رواه أحمد

لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء ولا سهر إلا لثلاثة.

١) لمصل يصلي – في الليل.

٢) عروس جديد.

٣) مسافر.

رضي الله عنك – يا أماه – يا ابنة الصديق – ويا زوج سيد المرسلين ويا معلمة الأجيال. ويا أستاذة العلماء. سلام عليك في الأولين والآخرين ولا ننسي – أمنا – العظيمة – سيدتنا أم سلمة رضي الله عنها. وهي هند بنت أبي أمية" زوجة النبي العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – عندما خطبها النبي صلى الله عليه وسلم قالت له "أنا امرأة غيور" فقال لها سأدعو الله فيذهب غيرتك فالغيرة المحمودة المعتدلة. شيء نظري لا شيء من ورائها. أما التعصب والغيرة الحمقاء المدمرة التي تؤدي إلى الطلاق – وهدم الأسرة – فهذا شيء لا يقره دين ولا يقبله عقل أبدًا...

إن في ذلك لذكرى. ومن وراء ذلك عبرة. لمن كان له قلب وعنده فهم. ويعرف تعاليم دينه. وهدى نبيه صلى الله عليه وسلم وسيرة السلف الصالح ورضي الله عن الجميع.

فالغيــــرة

هي أحد المشاعر الطبيعية الموجودة في أعماق كل شخص. وعلينا نحن أن نهذب النفس حتى لا تنمو الغيرة التي تؤدي إلى الغضب والتشنج– لأن القليل من الغيرة يفيد الإنسان حيث يكون ذلك حافزًا له على التفوق. لكن الغيرة إذا نمت وقويت أفسدت الحياة ويكون عائدها على الشخص شقاء ومرارة

وشعور مؤلم. إن المرء يصاب بالقلق بسبب عدم حصوله على شيء ما. هنا يأتي دور القناعة والزهد فيما في أيدي الناس كذلك الحسد. هو نوع من الغيرة وهو مرض خطير يؤثر على حياة الفرد ويسبب له صراعات نفسية متعددة. ويدفع بالشخص إلى عدم توافقه الاجتماعي لذلك علينا أن نعالج مرض الحسد. وتجفيف منابعه في النفس. وتكون الغيرة في أنفسنا معتدلة نحمي بها الشرف ونحافظ على العفاف. وتكون مظهرًا كريمًا لشخصية متوازنة – ذلك لأن الغيرة – تؤدي إلى الحقد – والحقد يؤدي إلى الحسد – وهو تمنى زوال نعمة الغير. وهو اعتراض على قدر الله لقوله سبحانه ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾[196] إن أكبر ضر ر يقع على الحاسد نفسه فيؤذي أهله ونفسه قبل أن يؤذي غيره. لذلك أمرنا الله بالاعتدال. لأن ما من أحد أغير من الله. من أجل ذلك حرم الفواحش وغيرة الله على أوليائه إذا أوذوا ففي الحديث " **من عادى لي وليًا فقد أذنته بالحرب**"[197] فالغيرة هي أحد المشاعر الطبيعية الموجودة عند الإنسان لكنها عامل مشترك في الكثير من المشاكل النفسية خاصة عند الأطفال كالطفل الذي يولد على رأسه طفل جديد. فيشعر الأول بانصراف الكل إلى الطفل الجديد وتلبية رغباته.وخيبة أمله هو في الحصول على ما يريد – لذلك علينا أن نكون قدوة ونعدل بين أبنائنا حتى في القبل والهدايا والمداعبة. وأن نتسم نحن الآباء والأمهات بالاعتدال في الغيرة خاصة

---

(196) سورة النساء ٥٤.

(197) رواه مسلم.

أمام الأطفال. وحثهم على ذلك. وتعليمهم الإيمان. وتدريبهم على الرضا بقضاء الله وقدره وحب الخير للناس أجمعين.

الفصل الثالث

المرأة في القرن العشرين

المرأة في القرن العشرين – هل تعلمت من الدروس التي مرت عليها – وهل استفادت من الأزمات والمصاعب والمتاعب التي تلاحقت عليها– ثم هل أعطتها هذه التجارب. الكثير من الدروس المستفادة. ومع ذلك فإن المرأة في الشرق – غيرها – في الغرب– فهي في الشرق لها دين. ونبي تؤمن به – وتعاليم إلهية – وهدى الأنبياء والسلف الصالح أمام عينيها. أنها تركت ذلك. واتجهت ببصرها إلى غير بيئتها. وإلى مجتمع تخلى عن قيم دينه. فبدأت تقلد. حتى ولو خالف هذا الشيء هدى دينها. وتقاليد بيئتها– وعرف قومها – وظهرت نغمة جديدة في حياتها. عندما تمثل أدواراً لا تتفق مع قيم دينها وتقاليد قومها. وعرف بيئتها. فتراها ترقص وجسمها عار وتدخل مسابقة – جمال السيقان – جمال العيون – الجمال العام للجسد. عرض الأزياء– الكوافير – تسألها – وأين الفضيلة؟ تقول لك. هذه دقة – وهذه دقة, مرة ترتدي الحجاب – وأخرى مكشوفة الشعر – وفتحة الصدر طويلة – فتسألها – ليه كده؟ تقول – المخرج عايز كده وهذا تقدم وتحضر تسألها من محرر النساء؟ فتقول لك – قاسم أمين فإن قلت لها – وأين دور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسكت. لأنها لم تقرأ سيرة هذا النبي العظيم. ولا تعرف الدور العظيم الذي قام به لإنقاذ البشرية كلها والمرأة على وجه الخصوص لذلك نقول للمرأة في القرن العشرين. اقرئي الصفحات التالية. لتعرفي من محرر المرأة ومن أي شيئ خلصها؟ وماذا كان وضعها في الأمم السابقة كيف كانت تعامل؟؟ وماذا أعطاها

هذا النبي العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وهي رحلة ممتعة في أعماق التاريخ نقلب في صفحاته ونقرأ السطور ثم الحكم في النهاية....؟

الجاهلية

عندما نسمع هذه الكلمة يتبادر إلى أذهاننا أنها الفترة التي عاشها العرب قبل أن يبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – وليس الأمر كذلك – إنما الجاهلية كل عهد – أو كل فترة مضت على الإنسانية– وقد حرمت من هدى الوحي الإلهي لأنبياء الله ورسله, إن المجتمع الجاهلي هو الذي غاب عنه نور النبوة – ونسي سكانه . هدى الأنبياء وما نزل من كتب فيها الوصايا الإلهية والتوجيهات الربانية ولهذا قال ربنا سبحانه وتعالى ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ﴾[١٩٨] بهديه وتعاليمه وتوجيهاته: لذلك – إذا ابتعد الناس عن هدى الله. وتعاليم دينه. واستبدلوا بذلك – أقوال الحكماء والفلاسفة فينطبق على هذه الفترة – جاهلية – ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[١٩٩] ويقول سبحانه ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ

([١٩٨]) سورة آل عمران ١٠١.

([١٩٩]) سورة الحشر ١٩.

﴿ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾(٢٠٠) فالجاهلية هي الزمن الذي يغير فيه الناس هدى الأنبياء ويغيب عن عقولهم. نور وحي الله لأنبيائه, من هنا نعيش في تاريخ الإنسانية لنتعرف على مكانة المرأة عند غياب تعاليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وضع المرأة في الجاهلية

قال الله سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيه المصطفى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(٢٠١) هذا إعلان من ربنا سبحانه الخالق المبدع. يبين لنا أن الله سبحانه لم يرسل النبي محمدا صلى الله عليه وسلم للجزيرة العربية – فقط – أو – لأي بقعة على الأرض في الشرق أو الغرب أو لقارة دون غيرها– بل أرسله الله سبحانه رحمة للعالمين – لكل العالم. إنسه وجنه. طيوره وحيواناته. نباته وأشجاره. فهو لكل من في هذا الوجود رحمة. وكان المفروض في مؤرخي العالم. وفلاسفته وأدبائه. ونوابغه وأذكيائه. أن يعرفوا هذا النبي العظيم الذي بسببه قال الحق سبحانه له ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(٢٠٢)

---

(٢٠٠) سورة الكهف ١٠٣– ١٠٥

(٢٠١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢٠٢) سورة الأنفال ٣٣.

يبحثوا في سيرته – يقرؤا ما نزل عليه من عند الله, يحللوا أقواله. ثـم يحكموا له– أو عليه– لكن للأسف. حكموا عليه – وحكمهم باطل لأنهم لم يقرؤا تاريخه وقالوا عن المسلمين بأنهم ظلموا المرأة ولو أنهم قرأوا عـن الإسـلام ومبلغه – عليه الصلاة والسلام – لعرفوا – أنه رحمة ورحمته – للعالم كله – وأن أكبر مظهر من مظاهر الرحمة التي تحلى بهـا – وأروع صـورة مـن صورها الجميلة أن ينقذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المرأة – ويبعد عنها مخالب الأسد وفي إنقاذه للمرأة إنقاذ للبشرية كلها من الهلاك والدمار والفنـاء. لهذا كان المفروض في المؤرخين. والكتاب. والأدباء أن يوجهوا الشـكر إلـى سيد السادات. ورسول رب العالمين سيدنا محمد صلى الله عليـه وسـلم. وأن يقدموا ما عرفوه إلى الإنسانية لتعرف فضل هذا النبي العربي الذي سعدت بـه الدنيا يوم أن نشر تعليماته وطبقها على نفسه. وأتباعه ولو لم يبعث هذا النبـي لغرقت سفينة الحياة بالجنس البشري وما صنعه من حضارة. ومـا لـه مـن محصول فكري. ورصيد فلسفي ولهذا يصور القرآن الكريم هذه الفترة وقـت البعثـة فيقـول الله سـبحانه ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[٢٠٣] فلقد تغيرت لدنيا وشرفت ببعثة هذا النبي العظيم ولكي تعـرف فضله على الإنسانية نتعرف على مكانة المرأة عند الأمم.

١- في أثينا – وهي أكثر الأمم القديمة – مدنية وتحضرًا. ومع ذلك عاملوا المرأة على أنها من سقط المتاع. تباع في الأسواق – ويشـتريها مـن يرغب. سلعة هكذا اعتبروها لماذا؟ لأنها في عرفهم رجس من عمل الشيطان. فهي لا يحق لها أن تجلس مع زوجها أو ولدها على مائدة الطعام. وإنما عليها

---

(٢٠٣) آل عمران ١٠٣

الخدمة وتربية الأولاد – وأباحوا للرجل أن يتزوج بأي عدد من النساء – كما يحلو له وما يشتهيه. لا ضمير يردعه. ولا قانون يمنعه....

٢- في إسبرطة – حددوا للرجل أن يتزوج بامرأة واحدة – وللمرأة أن تتزوج بأي عدد من الرجال كما تشاء. ولا سلطان لأحد عليها وتنسب المولود منها لمن تشاء هي من عشاقها.

٣- الدولة الرومانية – ينص قانونهم على أن المرأة تحرم من التعليم. وللزوج حق قتل زوجته ولا يسأل عن سبب قتلها.

٤- الإغريق – لهم كلام مأثور – قد يتمكن الإنسان أن يعالج من حرق النار. أو لدغة الحية ولكن لدغة المرأة ليس لها علاج.

٥- يقرر أرسطو – وهو فيلسوف وحكيم – بأن المرأة لم تزودها الطبيعة بأي استعداد عقلي حتى يعتد بها – لهذا فالمنزل وخدمته. وخدمة الرجل وأولاده هما أساس عملها.

٦- أفلاطون – أراد أن يضفي أي لون أدبي على المرأة. وأنها كالرجل فسخروا منه واتهموه بقلة العقل وعدم الفهم.

٧- عند اليابانيون – هي متاع للرجل الذي يجوز له أن يبيعها – وأن يبيع ابنته.

٨- في فرنسا عقد مؤتمر عام ٥٨٦م لمناقشة هل المرأة تعد إنسانة أم لا وانتهى المؤتمر إلى أنها إنسانة لكنها خلقت لخدمة الرجل. ليس لها أهلية ولا ذمة مالية.

٩- وفي الهند كان الرجل من حقه أن يتزوج بأكثر من مائة امرأة وإذا مات الرجل يحرق وتحرق معه جميع نسائه وهم أحياء وتوضع المرأة على المحرقة وهي حية وإذا لم تحرق فإنها تقضي بقية عمرها أرملة تحت وصاية أولادها أو أقارب زوجها ذليلة مهانة. لاكيان اجتماعي لها. ولاكرامة إنسانية

١٠- انجلترا إلى عهد قريب لم يكن للمرأة ذمة مالية وليس من حقها أن تبيع أو تشتري إلا برضاء زوجها. وهكذا كان مصير المرأة في كل المجتمعات القديمة والحديثة.

١١- أما عند العرب فكان الأمر أعجب. هناك قبائل رفعت ذكرها وعاملتها أعظم معاملة. وشهد المجتمع الإنساني ذلك حيث سجل التاريخ لها هذا الوضع - أن قطعة من أرض العرب يحكمها امرأة عاقلة ليبية رشيدة في حكمها الذي اتسم بالعدل - وشهد لها القرآن بأنها استعملت الشورى مع قومها. ولقد كان هناك بعض القبائل تئد بناتها - وإذا أخبر الرجل بأن زوجته أنجبت بنتًا فالويل له وسواد ليله ويحيط به الهم والغم وسواد الوجه والعار يحيط بزوجها وأهلها ويعيش الجميع في أوهام وتخيلات.

وفي بعض المناطق شبهوها بالكلب العقور فكمموا فمها حتى لا تضحك لأنها أحبولة الشيطان حتى عند بعض اليهود واعتبروا المرأة حتى ولو بنت الرجل فهي في منزلة الخادمة. ومن حق أبيها أن يبيعها - وهكذا إن شرقت أو غربت وجدت المرأة مهانة حقيرة. في مناطق تُوَرَثْ. ولا تَرِث. ولا تجلس مع زوجها. والبعض يخرجها من البيت أيام الدورة الشهرية. لأنها نجسة. ولايلامسها أحد. وتبتعد بعيدًا عن مجالس الرجال.

خبر يجب استيعابه

في سنة ١٩٣٠ نشرت صحيفة الضياء في ٢٠ ديسمبر قصة بعنوان (يبيع زوجته) [٢٠٤]

([٢٠٤]) هذا الموضوع والذي بعده نقلا عن كتاب "محمد المثل الكامل" لمحمد أحمد جاد المولي بك ص ٢٦٣ إلى ٢٦٦

من أغرب القضايا الي نظرتها محاكم لندن في الشهر الماضي قضـية رجل يدعى "إلن واتهام" كان شديد التعاسة في حياته الزوجية فانتهى به الأمـر إلى أن يبيع زوجته بمبلغ خمسمائة جنيه انجليزي وقد قرر المستر "إلن واتهام" أن حياته الزوجية لم تكن تطاق ولأن أخلاق زوجته لم تكن تتفق مع أخلاقه مع أن الزوجة أعلنت حبها وموافقتها على البيع – وقد اسـتدل محـامي المـتهم بالقانون الإنجليزي قبل مائة سنة وهو يبيح بيع الزوجات. وأنه في سنة ١٨٠١م كان ثمن الزوجة "ستة بنسات" أي ما يساوي (٢٤ مليمًا) يومها فردت المحكمة بأن هذا القانون كان موجودًا حقًا. وقد أصدرت الحكومة أمـرًا بالغائـه سـنة ١٨٠٥م وبعد المداولة حكمت المحكمة على بـائع زوجتـه بـالحبس عشـرة أشهر......؟

في فرنسا تصدر جريدة اسمها "الإسلام" أسسها أربعة مـن المسـلمين واحد مصري، ومراكشي – واثنان من الجزائريين" وكان ذلك في عام ١٩٣١م. نشرت هذه الجريدة مقالاً رائعًا. نقتطف منه ما يأتي:

من الأمور المعروفة أن النساء لهن الحظ الوافر في تطور الشـعوب. وتقدم الأمم لهذا عمد الرجال. من تلقاء أنفسهم. إلى التمشي رويدًا رويدًا ناحية المساواة بين جنسهم. ذلك الجنس اللطيف. مسوقين على توالي القرون يحكـم التطور الأدبي والمادي ولم يبد التطور الخلقي والأدبي على أشده إلا في تاريخ الأمة العربية فالمعلوم أن العرب عندما بلغوا أوج عظمتهم. وملكـوا دولتـي السيف والقلم. كانت المرأة عندهم عدل الرجل سـواء بسـواء. فلهـا حرمـة وكرامة. ولكن حدث بعد ذلك أن ساءت العادات من جـراء طغيـان الحكـام. وتدخل الأجنبي. فزالت تلك المـرأة العربيـة الحـرة الشـريفة ذات العـزة والاحترام.. ثم قال. كان للمرأة العربية منزلة ذات شأن خطير فهي في المدينة الآمرة الناهية في أمور المنزل والأسرة بل المشاركة بعقل وحصافة في القضاء

والسياسة. ومن هنا لا ينكر أحد دور امرأة الحارث بن عوف – التي أصلحت ما بين قبيلتين بعد أن نذرت كل قبيلة منهما لأختها الفناء والدمار.. ثم من منـــا لا يأسى ولا يأسف بعد ذلك على طي ذلك العهد. وما خلفه من عهد التســـري "الذي يشبه الزواج العرفي الآن" وما كان معروفًا في أثينا وإســـبرطه.. وقـــد وضع النبي العربي الكريم من الأقوال والأحكام ما سوى به بين المرأة والرجل في حرية التصرف والكرامة. لقد لبث العالم العربي القرون الأولى والمرأة لها مكان الاحترام. فكان بعض الفضليات العظيمات يعقدن مجالس العلـــم والأدب والمناظرة والمساجلة. ويحكمن بين العلماء والآداب فإذا ما شبت الحرب خرجن يشحذن من همم الرجال وينكين من عزمهم. ويوقدن من حماستهم. ويواســـين الجرحى.....

وإذا انتقلنا إلى الأندلس. وجدنا المرأة المسلمة بلغت هناك أوج العظمة. وحلت مكانا ساميا في الذروة.. لأن العرب كانوا قد توارثوا احتـــرام النســـاء ونقلوا ذلك إلى قرطبة ومنها تعلم الأوروبيون احترام السيدات. فإذا أراد المسلم الآن استرداد ما كان لهم من تاريخ مجيد.فما عليهم إلا أن يعملوا على إنهاض المرأة المسلمة إلى المستوى الذي كان لها في صدر الإسلام. ويجب أن نعمـــل على ذلك. فمن لاماضي له. لاحاضر له ومن لاحاضر له. لامستقبل له.

الإسلام والمرأة

عندما تفتح كتب التاريخ- وتقلب في صفحاته. سوف تقرأ ما سجله عن مكانة المرأة. وبين سطوره سيتبين لك دورها. فهي صانعة التاريخ بقوة صبرها. وعزيمتها. وإرادتها. فهي التي صاغت دور الأم بما فيه من حنان وعطف وحب. ثم دور الأخت الحانية التي تعتصر حنانًا ورعاية لأخيها. ثم دور العمة الممتلئة عطفًا ودور الخالة الحانية التي تبذل وتعطي. لأن الخالة والدة. ثم الزوجة. السكن النفسي والهدوء العاطفي. والاستقرار الوجداني. والحب. والرعاية التامة. ثم البنت الزهرة اليانعة. وريحانة الحب. والعواطف الجياشة. ثم المرأة الإنسانة. فهي إذًا شقيقة الرجل. توأم نفسه. وعماد حياته. فإن لم تكن هي صانعة التاريخ فقد شاركت في صنعه ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "**النساء شقائق الرجال**" (٢٠٥) وما نقول – لقوم كالإنجليز – مثلاً – الذين ظلوا حتى عام ١٨٥٥م يبيح قانونهم للرجل أن يبيع زوجته. ولا يعدونها من المواطنين. والقانون الفرنسي حتى قيام الثورة المرأة عندهم منزوعة الأهلية – لا يجوز لها أن تمتلك أي شيء ولا تبيع ولا تشتري إلا بإذن زوجها فلقد قاست المرأة في العصور المختلفة أسوأ مظاهر الاستبداد والقهر. والظلم. والعجب أن المؤرخين. والفلاسفة. والحكماء. لم يقرؤا هذا وإنما صور لهم عقلهم المريض. وفكرهم المتخلف. أن الإسلام هو الذي قهر المرأة. لأن الجهل طمس على عقولهم. والغباء سيطر عليهم. والحقد على الإسلام ملأ نفوسهم. فهلا قرؤا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وكيف أنصف المرأة. وبوأها منزلة عظيمة تليق بها كإنسانة تمثل نصف المجتمع.

---

(٢٠٥) رواه أبو داود.

١) سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آمن بأن الله سبحانه وتعالى. خلق آدم وحواء – الرجل والمرأة خلقهما سبحانه متحابان. متعاونان. ولم يخلقهما متباغضين متنافرين. وحين تحدث القرآن الكريم "كتاب الله" الذي فيه نبأ من قبلنا – وخبر ما بعدنا. جعل المرأة شريكة للرجل والأبناء ينتسبون لها – فالرجل أبًا – والمرأة أمًا – ولا تفاضل بينهما من جانب الإنسانية. والله سبحانه لم يعط لأحدهما حق الاستبداد بالآخر. وليس لأحدهما أن يظلم الآخر أو يقهره. وإنما هما متعاونان – يقول الله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾[٢٠٦].

٢) آمن الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ما قاسته المــرأة قبــل بعثتــه. مناقض تمامًا لسنة الحياة. وسبب ذلــك الجهــل بطبيعــة المــرأة. ومكانتهــا الاجتماعية. ودورها في الحياة. والتقليل من شأنها. ولقد أعلن الرسول صــلى الله عليه وسلم عدم رضاه عن ذلك. وقال "**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًــا وخياركم خياركم لنسائهم**"[٢٠٧] وفي حديث آخر "**خيركم خيركم للنساء**"[٢٠٨].

٣) تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة العظيمــة "خديجــة بنــت خويلد" وأنجب منها السيدة/ زينب ،السيدة/ رقية، السيدة/ أم كلثــوم، الســيدة/ فاطمة الزهراء / بنات أربع قبل نزول الرسالة – والنبي العظيم صلى الله عليه وسلم يعيش في مجتمع يسود وجه الرجل فيه إذا أنجب بنتًا. فما بالــك بــأربع بنات. وكان صلى الله عليه وسلم مع ذلك أسعد الناس ببناته. وزوجته. ويحمل

---

(٢٠٦) سورة النساء ١.

(٢٠٧) رواه الترمذي.

(٢٠٨) رواه الحاكم.

البنات على عاتقه ويمشي في الشوارع يقضي مصالحه وبناته على عاتقه وهو من أسعد الناس. لم يتأفف. ولم يتضجر. ولم نسمع عنه أنه قال لزوجته نريد أن نغير الجنس. وإنما كان سعيدًا فرحًا. ولما قال المشركون عنه أنه ابتـر أي – ليس له ذكر يحمل اسمه بعد موته. وغدًا يموت وينمحي أثره. فنزل قـول الله سـبحانه ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[٢٠٩] ثم بين الله فضله عليه ورعايته له فقال لـه ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾[٢١٠]فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكرم البنت من أول لحظة في حياته. وقبل أن تنزل عليه الرسالة. لأنه ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم.

٤)لما نزلت رسالة الله سبحانه على سيدنا محمد لينذر بها الناس أجمعين. أول من آمن به – زوجته العظيمة– المهذبة – الكريمة – الحنونة – العطوفـة "خديجة بنت خويلد" رضي الله عنها فأول الناس إسلامًا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. نبيًا ورسولاً. زوجته. لأنها ألصق الناس به وأعـرفهم بأخلاقـه. ولهذا قالت له "والله لن يخزيك الله إنك لتصل الرجم وتحمـل الكـل وتكسـب المعدوم وتعين على نوائب الدهر" أعظم شهادة تمنحها زوجة لزوجها. ولسـان حالها يقول, وماشهدنا إلا بما علمنا.

٥)سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أخبر الدنيا بما نزل عليه مـن ربـه بتكريم المرأة – علماً بأن أربعة أنبياء من خيرة خلق الله – قامت على تربيتهم

([٢٠٩]) سورة الزمر ٣٠-٣١.

([٢١٠]) سورة الكوثر.

سيدات. وعهد الله بهم إلى المرأة التي قامت بكل جدارة على تنشئتهم ورعاية أمرهم. وهذا من باب التكريم لها – والأنبياء هم:

١- **سيدنا إسماعيل عليه السلام** – قامت على تربيته سيدتنا – هاجر عليها السلام.

٢- **سيدنا موسى. عليه السلام** – قامت على رعايته وتنشئته أمه عليها السلام العظيمة وهي التي قال الله في شأنها ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ ﴾ (٢١١).

٣- **سيدنا عيسى عليه السلام**. والذي ولد من غير أب. معجزة خارقة وقامت سيدتنا مريم عليها السلام على رعايته وتربيته وكانت نعم المربية والمؤدبة.

٤- **سيدنا محمد عليه الصلاة وأزكى السلام**. قامت على رعايته – عدة نساء.

الأولى: الأم المباركة الطاهرة العظيمة – سيدتنا آمنة بنت وهب.

الثانية: الأم المرضعة المباركة– حليمة السعدية.

الثالثة: الراعية الحانية – زوجة أبو طالب "فاطمة بنت أسد. كانت نعم المشرفة وكانت خلفًا لأبي طالب في غيابه حتى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم. هي أمي بعد أمي.ويوم أن ماتت كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢١١) سورة القصص ٧.

في ثيابه. ونزل في قبرها واضطجع وسأل الله أن يوسعه عليهـا ولمـا سـأله الصحابة. عما فعله. ولم يفعله مع أحد غيرها – قالوا. ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعت معها؟ فقال. إنه لم يكن بعد أبي طالب أحنّ عليَّ منها, هكـذا كـرم الإسلام المرأة. ولم يكن يومًا متنكرًا لها. ولا كاتمًا لجميلها- حاشـاه. فالـذي بعث النبي محمدا صلى الله عليه وسلم بشيرًا ونذيرًا. حلاه بالأخلاق. وكملـه بالأدب. وجعله رحمة للعالمين ينشر العدل وينادي بالسلام. ولم يتنكر للمـرأة ولا لدورها الاجتماعي وتفاعلها بالمشاكل الاجتماعية لذلك. تبوأت مكانة خالدة في تاريخ البشرية. رغم كل ما أحاط بها من صراعات وأزمات...

٦) ساوى الرسول صلى الله عليه وسلم بين الذكر والأنثى. لأن الإسـلام أحدث ثورة اجتماعية في الحياة الإنسانية. وأكد على المسـاواة بـين الرجـل والمرأة في المنشأ والمصير – والحقوق والواجبات إلا ماشرعه الله وحدد معالم ذلك في القرآن. ولقد أحدث هذا الرأي ضجة واسعة في المجتمـع الإنسـاني. والقرآن الكريم نزل على النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم يؤكد على ذلك فيقول.

١- يقـول الله سـبحانه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[٢١٢].

٢- ويقول سبحانه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾[٢١٣]

---

(٢١٢) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢١٣) سورة النساء ١٢٤.

ويلاحظ أن المجامع الدولية قبل الإسلام. أجمعت على أن المرأة لن تدخل الجنة لأنها أحبولة الشيطان. وهي رجس نجس. فانظروا الفرق.

٣- وتأكيدًا على ذلك جاء ذكر المرأة في القرآن قرينا للرجل. تحقيقًا للمثلية في البناء والتكوين ولأنهما خلقا من نفس واحدة فهما في المثل سواء "الحقوق والواجبات" يقول الله سبحانه ﴿ ... ﴾ (٢١٤)

٤- أحدث الإسلام ثورة اجتماعية في الحياة الإنسانية لأنه جاء بخطاب عام لإحياء قلوب المؤمنين به من الرجال والنساء يقول الله سبحانه ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (٢١٥) وهذا أكبر شاهد على أن الإسلام لم يحرم المرأة من حقها في الكسب والعمل والإنتاج لأنهما متساويان في أصل النشأة ووحدة الهدف فهي والرجل متساويان في مسئوليتهما الإنسانية ولهذا قال الله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ

(٢١٤) سورة الأحزاب ٣٥.

(٢١٥) سورة النحل ٩٧.

وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[216] ويقول سبحانه ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[217].

٥- كان العالم أجمع لا يورث المرأة - أي لا ترث المرأة - ولا الغلام. من أبناء الميت.وإنما القاعدة عندهم في توزيع الميراث - من يقاتل في الحرب. ويلاقي العدو. وينازل الأعداء. هو الذي يرث. وغيره يحرم, فألغى الإسلام ذلك. ونظم المواريث. وحكم بأن المرأة ترث - مرة النصف. مرة الربع - مرة الثمن. مرة السدس. وحكم بان من يظلم المرأة - سواء ابنته - أو زوجته - أو أمه - أو أخته. من يحرم أي أنثى من الميراث - له خزي في الدنيا. وله في الآخرة عذاب شديد - لأن الله سبحانه بعد آية المواريث رقم ١١، ١٢ من سورة النساء يقول سبحانه ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤) ﴾[218]

إن الشريعة الإسلامية قررت للبنت قبل زواجها من ميراث أبيها ما يكفل لها حياة كريمة حتى لا تكون كلاً على إخوتها أو أعمامها فجعلت لها

([216]) سورة النساء ١.

([217]) سورة البقرة ٢٢٨.

([218]) سورة النساء ١٣، ١٤.

نصيبًا مفروضًا. وبهذا حفظ لها حياة كريمة. علمًا بأن نفقة الابن تجب على أبيه حتى يقدر على الكسب. طبقًا للعرف الاجتماعي. ومن حق الآباء أن يمنعوا النفقة عن الولد عند قدرته للسعي والكسب. أما البنت فإن نفقتها على أبيها حتى تتزوج. فتكون النفقة على الزوج. فإن طلقت صارت النفقة على الأب وليس للأب أن يلزمها بالسعي والكسب كما يفعل مع الابن.

وتأمل في هذه الرعاية التي أوجبها الإسلام. لقد استنقذت الشريعة الإسلامية المرأة من بلاء ومصائب. لأن المرأة كانوا يعدونها كالمتاع. يعني سلعة – تباع فكان الرجل يبيع زوجته – أو يقدمها لغيره – ليتمتع بها. بعوض. وليس من حقها أن ترفض. والإسلام حرم ذلك تحريما قطعيا.

إن الإسلام الذي أنصف المرأة نهى عن عضلها – والعضل هو منع المرأة أن تتزوج. وهي كالآتي– رجل ورث من أبيه متاع من بينه زوجة – فكان الابن يمنع زوجة أبيه من أن تتزوج – فإن رغبت في الزواج تقدم أي مبلغ من المال لابن زوجها ليسمح لها بالزواج – كذلك إذا طلق الرجل زوجته يمسكها حتى تقدم إليه أي مبلغ من المال فحرم الإسلام ذلك ونهى عن هذا الفعل وقال الله في ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا ﴾[٢١٩].

لقد كان الرجل يتفنن في إيذاء المرأة. فكان إذا كره زوجته تزوج عليها وأساء عشرتها – وأحيانًا يرميها بالفاحشة – والغرض من ذلك ابتزازها

([٢١٩]) سورة النساء ١٩.

وإذلالها. وكان الرجل يتزوج بأكثر من واحدة ومن كرهها لا يذهب إليها – ولا يكلمها وكان الغرض من كل ذلك ان ترد المرأة كل ما أخذته – من – مهر – شبكة– هدية قدمها إليها – وهذا ظلم فنزل قول الله سبحانه ينهي عن كل هذا ومنع الرجل من ظلم المرأة يقول الله سبحانه ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾[٢٢٠]

هذا من باب – التوبيخ للرجل الذي يسئ معاشرة زوجته حتى يبتزها ويأخذ منها ما يقدر عليه لكن هذا الفعل لايفعله إلا صاحب الوجه الكالح. لأنه استغل المرأة ولهذا يقول الله لذوي العقول والأفهام. وأصحاب الضمائر الحية. ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٢٢١] ويقول رسول الله صلى الله عليه "**ما أكرم النساء إلا كريم – وما أهانهن إلا لئيم**"[٢٢٢] ويقول عليه الصلاة والسلام "**خيركم خيركم لأهله. وأنا خيركم لأهله**"[٢٢٣] إن معاشرة المرأة بالمعروف أمر مطلوب. ونبه الله سبحانه أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة. تراعى فيها أوامر الشريعة . والعرف السائد بين العقلاء. بحيث تحفظ الكرامة لكل فرد وتصان الأعراض . لهذا قال الله سبحانه ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن

([٢٢٠]) سورة النساء ٢٠، ٢١.

([٢٢١]) سورة النساء ١٩.

([٢٢٢]) رواه ابن عساكر.

([٢٢٣]) رواه الترمذي.

﴿ كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾[٢٢٤]
ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم **"لايفرك مؤمن مؤمنة – إن كره منها خلقًا رضي منها آخر"**[٢٢٥] والفرك- كره – فالنبي عليه الصلاة والسلام يوصى المسلمين – إن كره الشخص من زوجته شيء فليتذكر أن لها أخلاقًا حسنة. فليتسامح. وعلى الرجل أن يشرك زوجته في أموره يستشيرها مراعاة لمصلحة الأسرة – ومن باب التدريب للأولاد حيث يعيشون في جو أسرة لها كيان اجتماعي وتماسك وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الفردية.

سيدنا سعد بن أبي وقاص – خال رسول الله صلى الله عليه وسلم شخصية عظيمة من أبطال الإسلام ومن الشخصيات الكريمة النبيلة – كان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه ويقدره – ويشير إليه ويقول – هذا خالي – فمن له خال كخالي – فليرني إياه – سيدنا سعد أحد العشرة المبشرون بالجنة – وكانت ذريته بنات – وكان المفهوم في عرف العرب أن البنات لا يرثن من الرجال شيء – وإنما الذي يرث "من يحمل السلاح ويحمى البيضة" فلما جاء الإسلام ألغى هذا المبدأ ونزل قول الله سبحانه ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾[٢٢٦] **"هذا ولقد مرض سيدنا سعد بن أبي وقاص بمكة مرضًا أشرف منه على الموت. فزاره سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال سيدنا سعد يا رسول الله – إن لي مالاً كثيرًا وليس يرثني إلا ابنتي –**

---

(٢٢٤) سورة النساء ١٩.

(٢٢٥) رواه مسلم.

(٢٢٦) سورة النساء ٧.

أفاتصدق بثلثي مالي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا - قال سيدنا سعد - فالشطر؟ قال - لا - قال سيدنا سعد - بالثلث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلث كبير إنك إن تركت ولدك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس. وإنك لن تنفق نفقة إلا أجرت عليها - حتى اللقمة ترفعها إلى في امرأتك"[٢٢٧] لقد هذب الإسلام طبائع العرب فأصبح الرجل يشعر بالمسئولية عن المرأة يحوطها برعايته وقوته يبذل دمه رخيصًا في سبيل الحفاظ على كرامتها. وينفق عليها من كسب يده. أما من يقهر زوجته أو يحرم ابنته من الميراث أو يأكل ميراث عماته وخالاته. فهو شخصية لا تستحق الاحترام. وعليها من الله غضب. ومن المجتمع اللعنة الدائمة.

---

(٢٢٧) رواه البخاري.

مشاركة المرأة للرجل
في الأعمال الاجتماعية

الإسلام – أفسح المجال للنساء كـي يشـاركن الرجـال فـي العمـل الاجتماعي والسياسي – والحربي – وكل عمل يحفظ علـى المـرأة كرامتهـا ويصونها.ونقرأ في القرآن الكريم قول الله سـبحانه ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[٢٢٨] لقد أباح الإسلام للمرأة – أن تحضر صلاة الجماعة – والجمعة – والعيدين. وشرع لهن ذلـك. ولـيس بواجب عليهن. وعبادة الحج مفروضة عليهن وهي عمل اجتمـاعي. ولـذلك حرم عليهن وضع النقاب على وجوههن. ولبس القفـازين فـي أيـديهن مـدة الإحرام. لأن الإسلام هيأ للمرأة تلك الوسائل ورفعها إلى أبعد ما يطمح خيالها. وساق لها من أي الذكر الحكيم ما بهر سناه بصرها. وأنصتت لما وصف الله به عباده المؤمنين والمؤمنات بعد أن قاست مرارة الهوان. وذلـك رحمـة بهـا. وأسمعها ماأعده للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر مما آثـار عاطفتهـا. وهز وجدانها. وأنار بصيرتها. لذلك نزل في القرآن الكريم – سورة النسـاء، سورة مريم. وذكر الله من أسماء النساء الكثيـر – كـأم موسـى – وزوجـة فرعون.وغير ذلك كثير تجده في القرآن الكريم. وأول من أسلم بسيدنا محمـد

([٢٢٨]) سورة التوبة ٧١.

صلى الله عليه وسلم سيدتنا خديجة. أم المؤمنين فكانت مبعث الغبطة. ومصدر السكينة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أعقبها كثير من النساء فتأثرن بهذا الدين تأثرًا هان في سبيله كل شيء. واحتملن في سبيل هذا الدين – أشد أنواع العذاب والإيلام ولعلنا نتذكر "سمية زوجة ياسر – وأم عمار بن ياسر – كان المشركون يعذبون السيدات اللواتي أسلمن – وسيدتنا سمية هي أول شهيدة في الإسلام. ماتت شهيدة بسبب أساليب العذاب القاسية الرهيبة. ومع ذلك ما ضعفت ولا تراجعت. وكانت وهي تعذب ترى زوجها المسن. وولدها الصغير وهما يعذبان. وهذا نوع من الألم النفسي علاوة على الحديد المحمي بالنار يكوي جسدها. لقد ألبسها المشركون دروع الحديد وكانوا يوقدون عليها النار. فما صدها ذلك أبدًا عن الدين – وما ضعفت وما وهنت أبدًا – وهناك – زنيرة – جارية عمر بن الخطاب. وقبل أن يسلم كان هو وجماعة من الناس يتعاقبون عليها ضربًا. ويجمعون الصبيان والشباب ليعبثوا بها حتى فقئوا عينيها. وكانوا يضعون عليها الحديد المحمي الذي يذيب اللحم. ويفتت العظم. ولقد تحملت المرأة العذاب ورضيت به حبًا في الدين وما كان ثبات المرأة. وقوة صبرها. وعظيم يقينها إلا حبًا في الله – وحبًا لرسوله صلى الله عليه وسلم – ولقد قص علينا القرآن الكريم – قصة زوجة فرعون وما لاقته من عذاب لاتحتمله الجبال الراسيات والذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات.والتاريخ أكبر شاهد على أن المرأة عندما عرفت الإسلام ونعمت به. دعت إليه. واقتنعت به.وتحملت في سبيله أقسى أنواع العذاب لإيمانها بأن ما عند الله خير وأبقى وفي سبيله يهون كل شيء.

قوة اليقين

مزق الإسلام حجب الفوارق بين الناس. وسمعوا قول الله سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[229] فلم يكن بين الإنسان والإنسان إلا الخير يفعله ويتقدم به إلى المجتمع في أدب وتواضع ليحظى بالسعادة في الدنيا والآخرة. ولقد شرع الله للمؤمنين والمؤمنات التسابق في فعل الخير فلم يفرق بين أحد إلا بشرف الفعل ونبل الهدف وفي ذلك جاء قول الله عزوجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ ﴾[230]. وقوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (١٠) ﴾[231]

فالمرأة في التشريع الإسلامي قسيمة الرجل - لها ماله من حق - وعليها ما عليه من واجب - ولا فضل للرجل إلا أن يقوم بعمله الذي يتطلب منه قوة الجلَدْ - وبسطة اليد - واتساع الحيلة. فهي رئاسة الأسرة. يحوط زوجته وأولاده بقوته - ويذود عنها بدمه وينفق على الأسرة من كسب يده - وتعب بدنه - وعرق جبينه. وفي هذا جاء قول الله سبحانه ﴿ ٱلرِّجَالُ

([229]) سورة الحجرات ١٣.

([230]) سورة الحج ٧٧، ٧٨.

([231]) سورة الجمعة ١٠.

قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ ﴾ (٢٣٢) فعلى الرجل أن يرعى أمر زوجته وأولاده بهمة ونشاط ولا يحاول أن يقهر شخصية زوجته. ولا يجحد أولاده. وإذا احتمل الرجل نار الظهيرة. وخاصة في غمرات الصراع. وتناثرت أوصاله تحت ظلال السيوف. فإن المرأة كذلك قامت على رعاية بيتها. وتربية أولاده وأولادها. فأحسنت المرأة وأخلصت وأسست بيتها على الطهر والعفاف فإن ذلك يعدل تعب الرجل في ميدان الحياة. وفي هذا تكلم الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى. سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول للسيدة – **(أسماء بنت يزيد الأنصارية – خطيبة النساء) لأنها دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه في المسجد النبوي – وقالت – يا رسول الله – أنا وافدة النساء إليك إن الله عزوجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة. فآمنا بك وبإلهك – إنا معشر النساء محصورات مقصورات. قواعد بيوتكم. وحاملات أولادكم. وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات. وعيادة المرضى. وشهود الجنائز والحج بعد الحج وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله عزوجل...وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا. أو مجاهدًا. حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم. وربينا لكم أولادكم. أفنشاركم في هذا الأجر والخير– فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله. ثم قال. هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن من مسئلتها في أمر دينها من هذه. قالوا يا رسول الله. ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا – فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها وقال لها افهمي أيتها المرأة – وأعلمي من خلفك من النساء. أن حسن تبعل المرأة**

---

(٢٣٢) سورة النساء ٣٤.

لزوجها وطلبها مرضاته. وإتباعها موافقته يعدل ذلك كله"[٢٣٣] لقد انصرفت المرأة وهي تهلل حتى وصلت إلى نساء قومها. وعرضت عليهن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن بذلك – وليس هذا فقط – فالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يبني المسجد – الذي هو بمثابة مبنى برلمان الأمة. وأعضاء هذا البرلمان. هم العابدون – الراكعون – الساجدون الذين يفعلون الخير.ويتمسكون بالحق. ويقيمون موازين العدل ويرفعون شعار المساواة – والتآلف والتعاون. هذا المسجد الذي أسس على التقوى. خصص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابًا للنساء. وهذا تأكيد على حقهن في المشاركة في العمل الاجتماعي ذلك لأن المجتمع له جناحان – الرجل. والمرأة. فإذا أصيب جناح بمرض أو قطع أو ضعف فلن يقدر المجتمع على النهوض أبدًا...

تحديد وقت لهن

عز على النساء أن يكون وقت النبي صلى الله عليه وسلم للرجال – حيث يلتف الرجال حوله والمرأة بطبيعتها عندها حياء ولاتستطيع مزاحمة الرجال– لذلك سأل النساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهن يومًا يخصص لهن. فأجابهن صلى الله عليه وسلم إلى طلبهن. فإذا كان اليوم المخصص لهن اجتمعن حوله. وجلسن بين يديه. يجيب على الأسئلة. ويرد برفق ويبين لهن النهج القويم. ويرشدهن إلى الصراط المستقيم. يهدي الحائرة ويرد بلطف على السائلة. وهو صلى الله عليه وسلم على أتم ما يكون من الرحمة والرفق يخفف عنهن. ولا يكلفهن فوق ما تحتمل نفوسهن. وتتمثل فيه صلى الله عليه وسلم الرحمة بأسمى معانيها. والرفق واللين والهدوء. والبشاشة.

---

(٢٣٣) رواه مسلم

والتواضع. وهكذا وتأمل في بساطته صلى الله عليه وسلم. وقفت امرأة متقدمة في السن. وكان صلى الله عليه وسلم يبايع النساء ومن بين بنود المبايعة – قال لهن – ولا تنحن على الموتى – يعنى لا ترفع المرأة صوتها بالصياح. وتلطم خدها. وتشق ملابسها. وقد تضع التراب على وجهها ورأسها. وهي تردد بعض ألفاظ. لا يرضى بها الله ولا رسوله. ولا المؤمنون مثل –يا جملي – يا سندي – يا فاتح بيتي – يا مطعمني – سايبني لمين. أروح بعدك فين. وهكذا – يحرم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ويرشد النساء لعدم العودة لمثل هذا. ويأخذ عليهن البيعة بذلك لكن المرأة العجوز قالت يا رسول الله "إن ناسا أسعدوني على مصيبة أصابتني وهم الآن عندهم مصيبة.وأريد أن أسعدهم. يعني تشاركهم في اللطم والنواح والبكاء لأنهن شاركنها.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم – انطلقي فأسعديهم. فذهبت ثم عادت فبايعت – أي خلق نبيل – لو منع المرأة لذهبت سرّا لأنها تشعر أن في عنقها ديناً لهؤلاء. فبدل العمل السري يكون العمل العلني خاصة وأننا في مراحل الدعوة الأولى ولم يتمكن الإيمان من النفوس. فالرفق مطلوب في كل مراحل الحياة. ومراعاة المشاعر والأحاسيس أمر مهم جدًا للداعية الحصيف. وذات مرة كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايعهن على أن يأتمرن بأوامر الله. ويتجنبن نواهيه. ثم قال – فيما استطعتن وأطقتن فقال النساء. الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا"[٢٣٤] لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في التعامل مع الغير بالرحمة. والموادعة. وترك الكلفة. واجتناب هُجْر الكلام وهو القائل. ما أكرم النساء إلا كريم...

([٢٣٤]) يراجع في كل ذلك الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧.

احترام رأيها

لقد ضل قوم طريق الحق. وغالطوا الحقيقة. ومال بهم الهوى. فتنكبوا الطريق وزعموا أن الإسلام انتقص حق المرأة وظلمها. وحكم عليها أن تكون قعيدة بيت لا رأي لها. ولا تستشار. ومهمتها تأكل وتنجب الأولاد. وليس لها نصيب من الحرية – وهؤلاء يريدون أن يشوهوا صورة الإسلام – لكن الحقيقة التي لا ينكرها المنصفون. هي – أن الإسلام ما شرع للمرأة أن تكون رهينة بيت او سجينة فيه. بل هي ملكة غير متوجة في منزلها – فهي ربة البيت. والقائمة على أمره. والحضن الدافئ لأفراده. والدم المتدفق في شرايينه. ولها حريتها الكاملة – وحرية رأيها. بحيث لا تطمع المرأة في شيء أعز عليها من ذلك. إن الإسلام اختص المرأة بنصيب من الحياة الكريمة. مثل الرجل تمامًا. لما تتمتع به من نصيب كبير في رقة القلب. وما تتمتع به من عاطفة جياشة وحنان متدفق. ثم هي مناط شرف الرجل – وموطن عرضه. لهذا اختصها بنصيب من الحرمة. وصانها عن ألسنة الكذابين. وأنزل الله غضبه على قاذفي النساء في أعراضهن. بأشد مما اشتد به على القتلة وقطاع الطريق.وحسبك في ذلك قول الله سبحانه. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾(٢٣٥) ويقول سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٢٣٦)

إن بعض الأفاكين. الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع. وهم الذين سماهم القرآن الكريم بالمرجفين. وسماهم المجتمع الدولي "بالطابور الخامس"

---

(٢٣٥) سورة النور ٤.

(٢٣٦) سورة النور ٢٣.

يظهرون بألسنتهم ما تكنه قلوبهم من الحقد والكراهية فيشيعون عن بعض ما تكن البيوت من أعراض الحرائر المحصنات. ويقولون إفكاً وزوراً وبهتاناً كلاماً لايليق أبداً عن الطاهرات العفيفات. لقد ضاق صدر هؤلاء بما فيه من غل وكراهية للبيوت الطاهرة والحرائر العفيفات. وقد يكون هناك شاب طموح. عنده أمال وتطلعات للمستقبل وهو مجتهد. ويتعب نفسه وبدنه ويسهر ليله. ليصل إلى ما يريد. فإذا بهؤلاء "الطابور الخامس" لا يجدون وسيلة للنيل منه. والحط من شأنه. إلا أن يطلق أحدهم لسانه. ليخوض في عرض أهل البيت. ويعبث بكرامة الأسرة. وهم يظنون – أن أمرهم لن ينكشف لكن الحقيقة – أن الله سبحانه مطلع عليهم. وأن عليهم كرامًا كاتبين – يسجلون عليهم ما يقولون. وقد يكون من يتكلم في أعراض المحصنات. أو في أعراض النابهين هم أنفسهم أعراضهم ملوثة – وشرفهم مهدر. وهم شخصيات صفيقة الوجه. ليست لهم كرامة – فهم ضلوا الطريق. وأشاعوا الفاحشة بألسنتهم. ولهذا يقول الله سبحانه﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾[٢٣٧] إنه في سبيل تكريم المرأة وصيانة عرضها لم يقف عند هذا الحد – بل كان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم العمل على اجتلاب ما يفرحها ويشرح صدرها. ويدخل السرور عليها ويسعى للترفيه عنها – فقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. لبعض أفراد الحبشة أن يلعبوا بحرابهم في مسجده الشريف ودعا السيدة العظيمة – الصديقة / عائشة رضي الله عنها. أن تنظر ووطئ لها عنقه وأحاط وجهها بيده الشريفة. وشهدت هذا المنظر البديع البهيج. وظلت تنظر حتى سئمت. ورجعت. ثم عادت مرة أخرى. وحدثت السيدة عائشة رضي الله عنها أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه

([٢٣٧]) سورة النور ١٩.

- دخل عليها - وبين يديها قينتان تغنيان وتضربان على الدف وكان ذلك في يوم عيد - ورسول الله صلى الله عليه وسلم - مضطجع بالقرب منها. فانتهرها سيدنا أبو بكر رضي الله عنها وعنف السيدة/ عائشة رضي الله عنها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعهم يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدًا. وهذا يوم عيدنا". وفي يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على السيدة/ عائشة رضي الله عنها. وسألها. هل أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت نعم. سألها. فقال لها. هل بعثتم مع العروس من يغني؟ قالت لا. قال. أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل - ألا بعثتم معها من يغني ويقول

أتيانكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا فلن نحلل بواديكم

حدث سيدنا "أنس بن مالك" رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أبصر نساء - وصبيانًا مقبلين من عرس) فقام ممتنًا لهم - وقال لهم "**اللهم أنتم من أحب الناس إلي**"[238] وحدثت السيدة/ الرُبَيِّع بنت معوّذ قالت "**جاء النبي صلى الله علين وسلم حين بني عليّ، وتعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم زار بيتها يوم أن تزوجت" فجلس على فراش - فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف - ويغنين - فقالت - يعنى وهي تغنى "وفينا نبي يعلم ما في غد" فقال صلى الله عليه وسلم "دعى هذا وقولي بالذي تقولين**" أي تتغنى بمفاخر القبيلة. وشرف العروس وغير ذلك[239]

([238]) رواه البخاري

([239]) رواه البخاري

وفاء المرأة

الوفاء قيمة أخلاقية عالية – أمر به كل دين سماوي. وأكـدت عليـه رسالة الإسلام الذي بعث الله به سيدنا محمدا عليه الصلاة والسـلام باعتبـاره خاتم الأنبياء ورسالته ختم الله بها الرسالات وقال لنا ربنا في القرآن الكريم ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢٤٠] وقد أكد الله علينا أن نكون أوفياء – لأن الوفاء بالعهد دليل على قوة الإيمان بالله سبحانه وهو دليل التقوى. فيقول الله سبحانه ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾[٢٤١] والإنسان الوفي يحقق الله له ما يتمناه ويعطيه سؤله– لأن الله يحب الأوفياء فيقول الله سـبحانه﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾[٢٤٢] ثم إن الوفاء بالعهد سيسأل الله سبحانه عنـه العبد يوم القيامة على رؤوس الأشهاد لذلك يقول الله سبحانه ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾[٢٤٣]. وعلاوة على كل ذلك فإن الوفـاء صـفة يتحلى بها أصحاب القلوب الطاهرة والنفوس الزكية. والهمم العالية فيقـول الله

([٢٤٠])سورة المائدة ٣.

([٢٤١])سورة آل عمران ٧٦.

([٢٤٢])سورة البقرة ٤٠.

([٢٤٣]) سورة الإسراء ٣٤.

سـبحانه ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [244] هذا بعض ما جاء في القرآن الكريم عن الوفاء بما يشير إلى أنه قيمة أخلاقية عالية يجب أن يتحلى بها الناس جميعًا. وعلى كل شخص أن يذكر غيره بالوفاء.

والمرأة العربية في جاهليتها كانت تتمتع بخلق نبيل – المرأة العربية الأصيلة. التي تفخر بقومها وتنتمي إلى عشيرتها. فلما أسلمت وآمنت وصدقت بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رفعها الإسلام إلى أبعد ما كانت تطمح إليه بخيالها. وما كانت تتمناه ورأت الدعوة الصريحة إلى التمسك بالقيم الأخلاقية فتمسكت بها. وعضت عليها بالنواجذ. لذلك تجنبت مزالق الشيطان. واحترست من عثرات الطريق ذلك لأن الدين تمكن من نفسها. وشعرت برقابة ربها. وبايعت النبي صلى الله عليه وسلم على عدم الكذب. والالتزام بالصدق والوفاء. ولهذا أتم الله على المرأة المسلمة نعمة الصبر. وحب الإحسان. والجود. والكرم. وكانت تتمسك بالوفاء والصدق. لذلك ذاع صيتها. وبلغت في ذلك المقام الأوفى. والمكانة العالية. ففي الوفاء لزوجها. وأولادها – وبيتها – والقدوة الحسنة والمثل العظيم وذلك بحكم إيمانها – وتأثرها بالمثل العالية من أمهاتها وجداتها. والقدوة الصالحة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد أهلت المرأة المسلمة نفسها على إرضاء زوجها. ومصافاته. وأخلصت له. وتحملت من غلظة القول. وهي تتحلى بالصبر. تحافظ على الرباط المقدس. وتلتمس له العذر. في ضيق صدره وتتحلى هي بطول البال وسعة الصدر. وعدم الضيق. لأنه ربما كان وهو في عمله حدث صدام مع صديق – أو مر بضائقة مالية – أو انحشر في وسائل المواصلات أو انزعج من رد الرئيس

---

(244) سورة الرعد ٢٠.

المباشر عليه عند عرض أوراق عليه. أو هدد بنزع منصبه.لذلك تلتمس له الزوجة العذر. وفي صبرها وتحملها ووفائها له.ما يعيد إليه صوابه ويكشف عنه الغمة.ويزيل عنه الكرب.لذلك عاشت الأسر حياة سعيدة. عندما فهم الناس الإسلام – لأنه كما قيل.

ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها سبيلا

ومن هنا نشأ الأولاد في أسرة متماسكة. علمتهم الأم. وربتهم على الفضائل. وكان الأب قدوة لهم في العمل والإنتاج. والابتكار في أسلوب العمل والتجويد في الأداء. فظهرت الاختراعات ونعم الناس في ظل حضارة أساسها "الأسرة المتماسكة" وإن أردت أن تعرف حضارة العرب وأثرها على أوربا اقرأ كتب الحضارة التي كتبها المؤرخون المنصفون من الغرب – وكتاب التاريخ الشرفاء– ولقد ظهر أثر المرأة العربية في تقدم الأمة ... لقد كانت بارعة في العمل الاجتماعي. لأنها قرأت القرآن وتأثرت به – وسمعت سنة النبي صلى الله عليه وسلم وتعلمتها – لذلك أثرت في غيرها وكانت هي قدوة.. وهنا يأتي السؤال – في أي المدارس تخرجن؟ إن العرب لم يعرفوا المدارس.ولا الجامعات. ولا المعاهد. وإنما عرفن المسجد. وقرأن القرآن. وسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم– ولقد تعلمت المرأة كما تعلم الرجل من القرآن وسنة النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم النظافة. النظام. التأني. الصبر. الحلم. والوفاء بالعهد. وحفظ الأمانة. والصدق. والعفة. والطهارة. وكانت مجالسهم وهي تعادل الآن. الصالون الثقافي. كانوا يذكرون الشعراء وأشعارهم. وفي خيامهم لأنها قصورهم. ولم يكن عندهم كهرباء. ولا مياه – ولا ثلاجات. ولا بوتاجازات. ولاغسالات وقامت على تربيتهن أمهات صدقن الله وقمن على رعاية أولادهن لأن الأولاد أمانة غالية بين أيديهن– فحفظن الأمانة.

ولقد أقام الله الأمهات على تنشئة أولادهن. واستخلفهن الله على صنائعه. وائتمنهن على قادة الأمم لعلم الله بأن هؤلاء هم قادة المستقبل ورعاة خلق الله. لقد كان الله سبحانه أبر بالناس – فضم رجال العرب إلى صدور أمهات قوية. سليمة – طاهرة – لأن الأم هي في الأسرة بمثابة القلب في الجسد. تحرك مشاعر الأولاد نحو الجد. والدفاع عن الحق لذلك. تجد العرب بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وثبوا وثبة ملئوا بها الأرض عدلاً. وأمنًا وحكمة. وعلمًا. وركزوا ألويتهم في قلب آسيا. وجبال إفريقية. وأطراف أوربا. ولم يستعملوا السيف. ولم يجبروا أحد على الدخول في دينهم ونحن اليوم نرى أن المستعمر لأي دولة بالقوة – يفرض لغته ودينه – وعادات بلاده على الدول الضعيفة التي استذلها واستعبدها– لكن العرب. بسبب ما تعلموه من دينهم – دين الرفق – والمحبة.والتسامح. وما نشره بينهم نبيهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – وهو نبي الرحمة استعملوا الرحمة واللين في القول ولم يكرهوا أحدًا على الدخول في دينهم لأن الله سبحانه يقول ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[245] ويقول سبحانه ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾[246] وقوله سبحانه ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾[247] لقد كانت نهضة المسلمين غريبة على المجتمع الدولي فريدة. رائعة لأن المرأة أدت فيها دورًا رائعًا. من الوفاء لدينها. وزوجها وعشيرتها.

---

(245) سورة البقرة ٢٥٦.

(246) سورة لكهف ٢٩.

(247) سورة الكافرون ٦.

أمثلة من وفاء المرأة

لقد كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها من أول لحظة ارتبطت به. وتظل وفية له بعد موته. أكثر من وفائها لأهلها وعشيرتها. فتظل تذكر فضائله. وتردد على مسامع الغير شمائله وقد لا تتزوج أبدًا – علمًا بأن الإسلام يبيح لها أن تتزوج. لكنها ترفض أن تتبدل بزوجها الأول غيره. وفاءً له. وتعيش على ذكراه. وتتمثل طلعته وهو تحت الثرى. وتخشاه كما كان في حياته. فلقد خرج سليمان بن عبد الملك. ومعه يزيد بن المهلب. في رحلة صيد فمرا على امرأة جالسة على قبر: فسلما عليها. فرفعت البرقع عن وجهها وردت السلام فإذا هي كالشمس نوراً واستدارة وجه فوقفا متحيرين وهما ينظران إليها. فأسدلت برقعها على وجهها. فقال يزيد بن المهلب. يا أمة الله – هل لك في أمير المؤمنين بعلاً – فنظرت إليهما ثم قالت:

فإن تسألاني عن هواي فإنه ... مدفون هذا القبر يا فتيان
وإني لاستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحيه وهو يراني

فانصرفا وتركاها – وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – أرسل يخطب امرأة – فقالت – يا رسول الله. إني عاهدت زوجي ألا أتزوج بعده – فقال – إن كان في الإسلام فوفي له.. وأي امرأة في العالم تتمنى أن ينالها شرف الانتساب إلى البيت النبوي وتصبح من أمهات المؤمنين. ولكن الوفاء للزوج الأول. جعلها تصبر وتحتسب – ومع ذلك فإن بعض النسوة كانت الواحدة منهن تعمد إلى موطن الجمال الذي يجعل الرجال يرغبون فيها. فتشوه هذا الجمال – حتى لا يتقدم إلى خطبتها أحد من ذلك– السيدة نائلة بنت القرافصة – زوج سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه – تكاثر عليها الخطاب بعد قتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وانقضاء عدتها فرفضتهم جميعًا – ثم

خطبها معاوية بن أبي سفيان وقد صار أمير المؤمنين. فسألته ما أعجب أمير المؤمنين بي؟ قال لها . حسن ثغرك. وكانت نائلة من أحسن الناس ثغرًا – فكسرت ثناياها. أسنانها. ثم برزت لمعاوية. وقالت له – أتراني أصلح زوجة؟ فلما رآها أعرض عنها.

كذلك صنعت – خولة بنت منظور بن زيان– وكانت متزوجة من– عبد الله بن الزبير وقد خطبها عبد الملك بن مروان – بعد مقتل زوجها – فحطمت أسنانها وشوهت أجمل ثغر أبدعه الله سبحانه"(٢٤٨) ونذكر أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم لخطبة – أم هاني بنت أبي طالب لكن وفاء منها لزوجها – وقياما على تربية أبنائها – والإسلام وإن لم يحمد من المرأة كراهيتها للزواج بعد زوجها الأول ومع ذلك شكر لها وفائها لزوجها وأجزل لها المثوبة إن اعتزمته برغبة صادقة. رعاية لحق الزوج. وقياما بحق الأولاد. وتربيتهم وحفاظًا عليهم حتى لا يضيعوا عند غير أبيهم. وذكر الأصمعي. أنه رأى بالبادية أعرابية لا تتكلم – فسأل – أخرساء هي؟ قالوا – لا – ولكن – مات زوجها – وكان معجبًا بنغمة صوتها – فلما مات أطبقت فمها فلم يسمع أحد صوتها بعده.

إن التاريخ لا يكذب ولانحن نجمله. لكن الواقع والمسجل بين ثنايا التاريخ كثير في هذا المجال ونكتفي بما قدمنا – ومن أراد المزيد فليرجع إلي أمهات الكتب ففيها إشباع رغبة من أراد المزيد.

---

(٢٤٨) يرجع في ذلك بلاغات النساء, والعقد الفريد, والمستطرف في كل من مستظرف جـ ١ ص١٠٤.

المرأة والحرب

يذكر المؤرخون أن حركة التقدم عند العرب. مرتبطة بتقدم المرأة ورقيها فإذا أراد المسلمون اليوم استرداد ما كان لهم من تاريخ مجيد. فما عليهم إلا أن يعملوا على نهوض المرأة على المستوى الذي كان لها في صدر الإسلام حيث كانت المرأة تجاذب الرجل أثر العمل. حتى في ميدان الحرب. وساحات الوغى وبين الأسنة. وتحت ظلال السيوف. واليوم- تحت وابل القنابل. وصوت المدافع. وأزيز الطائرات. كانت المرأة تسير مع الرجل جنبًا إلى جنب. وكانت تخرج مع الجيش تروى ظمأه حيث تقدم الماء إلى الجند. وتأسو جراحه وتجبر كسره. وتضمد دمه. علاوة على أنها كانت تثير حميته. وتهيج عواطفه ولقد ذكرت لنا كتب التاريخ. وصحف السير. الكثير من فضليات النساء خرجن في رفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم. للغرض الذي قدمناه. وربما استدعى الموقف أن تنزل إلى ساحة الحرب. حاملة سلاحها. وتصول بين الصفوف. وتعرض صدرها للسيوف والنبل وجسدها لطلقات المدافع. وجسدها للقنابل. لكنها تتمتع بصدق الرغبة في الدفاع عن الدين – والوطن – والعرض. ونذكر في هذا المقام.

١) السيدة/ الرُبَيّع بنت معوذ – رضي الله عنها تقول. كنا نغزو مع الرسول صلى الله عليه وسلم. نسقي القوم ونخدمهم. ونداوي الجرحى. ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة[٢٤٩].

٢) السيدة/ أمية بنت قيس الغفارية – وهذه السيدة – أسلمت صغيرة تقريبًا. وهي بنت أربعة عشر سنة – تقريبًا – وقالت لرسول الله صلى الله عليه

([٢٤٩]) يراجع في ذلك الإصابة – ج٨.

وسلم في نسوة من بني قومها. من قبيلة غفار. قالت يا رسول الله. أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا. وهو متجه إلى خيبر. نداوي الجرحى. ونعين المسلمين بما استطعنا. فقال على بركة الله.

٣) الطبيبة العظيمة. السيدة/ كعيبة بنت سعد – وهي طبيبة نجيبة من طبيبات العرب – وكانت مع قيامها على تقديم الرعاية الطبية للجرحى. وكذلك أي فرد يلم به ألم وقد نصبت لها خيمة في المسجد النبوي تداوي فيها المرضى. وتطبب الجريح. وقد قامت على رعاية سيدنا سعد بن معاذ رضى الله عنه في خيمته بالمسجد – تداوي جراحه حتى مات.

٤) السيدة العظيمة الكريمة/ أم حرام بنت ملحان. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدرها حق قدرها. وكانت متزوجة. من سيدنا عبادة بن الصامت رضى الله عنه. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم. يزورهم. وقد يغلبه الإرهاق فينام عندهم. وفي مرة استيقظ وهو يضحك. قالت أم حرام. ما الذي أضحكك يا رسول الله؟ قال. ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله. يركبون ثبج هذا البحر. ملوكًا على الأسرة أو – مثل الملوك على الأسرة – قالت يا رسول الله – أدع الله أن يجعلني منهم فدعا لها. ثم وضع رأسه ونام – ثم استيقظ وهو يضحك. قالت. فقلت. ما يضحكك يا رسول الله؟ قال. ناس من أمتى عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله – كما قال في الأولى قالت. فقلت يا رسول الله – أدع الله أن يجعلني منهم؟ قال أنت من الأولين[٢٥٠].

---

(٢٥٠) رواه البخاري, ومسلم, ويراجع في ذلك كتب السنة والسيرة.

وذكرت كتب التاريخ أن أم حرام بنت ملحان. ركبت البحـــر فـــي زمـــن معاوية. فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر - فماتت رضـــى الله عنها. قال بعض الرواة وقبرها معروف بقبرص......

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم. يمدح لهؤلاء النسوة فعلهن. بل وكان يقلد بعض النساء. وسام تقدير. فقد قلد. السيدة/ أمية بنت قيس. قـــلادة لـــم تغادر صدرها. وأوصت حين موتها أن تدفن معها. كما أنه صلى الله عليه وسلم أثنى على نسيبة بنت كعب وقد نزلت ميدان معركة غـــزوة أحـــد - ودعى لها ولأهلها.

ابتكار في أسلوب القتال

ميدان الحرب يلتقي فيه الجند. وهما فريقان- فريق ضد فريق- لكـــل منهما شعاره - وعلمه. وصيحات قادته- وخلف كـــل فريـــق. زاده - وبقيـــة سلاحه - وخيامه التي بها النساء الممرضات. وهنا يأتي سؤال. خلاصته - هل المرأة كانت تجلس في الخيمة حتى يأتي إليها المجـــروح؟ أم كـــان لهـــا دور عملي؟ للإجابة على ذلك نذكر النسوة اللواتي كن يخرجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وما لهن من أثر يذكر ولا ينكر - ولنقول للمـــرأة المعاصـــرة تعلمي الدرس من جداتك.

من هؤلاء
ليلي بنت طريف

أخت القائد "الوليد" وهو من أبطال الخوارج الذين خرجوا على حكـام زمانهم وهزوا عروش دول ومزقوا جيوشهم. الوليد – خرج علـى "الرشـيد" وفتك بجنده. وفرق شمل جيش هارون الرشيد – وكان من بين قيادات جـيش هارون الرشيد – يزيد بن مزيد الشيباني – وكانوا يلقبونه بثعلـب الميـدان – واستطاع يزيد – أن يقتل – الوليد – وعلى الفور قررت ليلى – أن تنزل ميدان المعركة. وأن تقود الجند بعد أن أعادت تنظيم الصفوف. وطوقت جند الرشيد. ونظروا إليها ورأوا رباطة جأش. وعزيمة. وقيادة. فانخلعت قلوبهم. من حسن تدبيرها في تنظيم الجند. وبسالتها وإقدامها. وألحقت بجـيش هـارون هزيمـة ساحقة ماحقة مزقت أوصالهم – وفرقتهم. فلما أبصر يزيـد – شـتات جنـده وتفرقهم خوفًا منها ومن جندها– تقدم إليها وصوب سهامه نحو فرسها. فنهضت فقال لها – أغربي عن وجهي. فقد فضحتي العشيرة "وكـان مـن عشـيرتها" فاستحيت ثم انصرفت. وظلت تبكي أخاها وتتحرق شوقًا لنزول المعركة حتـى تزيد في عدد القتلى. ثأرًا لأخيها. [٢٥١]. وقد ذكرناها لندلل على شجاعة المرأة وإقدامها وقدرتها على تنظيم الجند وفن القتال.

([٢٥١]) الأغاني ج ١١.

غزالة الحرورية

شخصية وقف التاريخ أمامها طويلاً. لأنها قيادية من طـراز فريـد – كفاءة – قدرة على التخطيط – تزوجت من القائد "شـبيب بـن زيـاد – قائـد الخوارج وبطلهم والقائم بالأمر فيهم لقد روع هو وزوجته جيوش بني أميـة. وملأ الخوف قلوب الجند– كانت هي وزوجها يليان قيادة جيش الخوارج. وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يلي قيادة جيوش بني أمية. ولقد سفك من الدماء فـي العراق الكثير. هذا الحجاج الذي كان إذا ذكر اسمه. يخاف السـامع. وينخلـع قلبه. ومع جبروته وشدة بطشه. إذا سمع اسم "غزاله" يخـاف خوفًـا شـديدًا. ويمتلئ قلبه رعبًا وهلعًا لقد خرج في أربعة آلاف جندي. وعندما شعر بالقرب من مكان معسكرها. اختلط عليه الأمر وانخلع قلبه ورجع فارًا هاربًا يخلط في قوله. بل عقل لسانه. ودخل الكوفة واحتمى بحصونها. فأقسمت غزالة. وهـي تتبع أثره لنصلين في مسجد الكوفة ركعتين تقرأ في الركعة الأولى سورة البقرة – بعد الفاتحة – وفي الثانية – سورة آل عمران, والكوفة يومها – دار إمـرة الحجاج – وبها كل جنده وحاشيته. وقد برت غزالة بقسمها. ودخلـت مسـجد الكوفة وصلت فيه – وأخذت تصلي هي وزوجها والحجاج متحصن في قصره. يحيط به جنده. ومع ذلك يعلوه الخوف. وفي ذلك كتب (عمران بن حطان) إلى الحجاج وكان يبحث عن عمران ليقتله فقال عمران:

أسـد علـي وفي الحـروب نعامـة ... ربـداء تجفـل مـن صـفير الصـافر
هلـى بـرزت إلى غزالـة في الـوغى ... بل كان قلبـك في جنـاحي طـائر
صـدعت غزالـة جمعـه بعسـاكر ... تركـت كتائبـه كـأمس الـدابر

ظلت غزالة تلتهم جيوش الحجاج – حتى إن اسمها إذا ذكر ذعر الجند وخافوا ثم دربوا لها فرقة مخصوصة لتغتالها خدعة. وتم لهم ما أرادوا. وقتلت. ومزق بعد قتلها جيش زوجها. وإذا كان الناس قد تناسوا التاريخ فإن التـــاريخ لاينسى[٢٥٢].

تعالوا بنا نعود إلى حديث عصر النبوة عندما بزغت شمس الحرية للمرأة العربية. وأسهمت بنصيب كبير في الحروب في صحبة خير الأنام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ذلك لأن نساء العرب في بدء الإسلام لم يدعن للرجل أن يتفوق عليهن وتجد المرأة سابقة. إليه. بدافع من دينها وعاطفتها نحو الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم إن التاريخ يقف وقفة احترام لسيدة عظيمة ضربت أروع الأمثلة في ميدان الحرب. والسلم. ونشر الإسلام. ولها مواقف عرفت عنها. وزاد ذلك من شرفها وكرامتها. وأصبح الحدث معقد فخر لها.

([٢٥٢]) الأغاني ج ١١.

"نسيبة بنت كعب"

من أوائل من أسلم من "يثرب" وقد حضرت – بيعة العقبة الثانية. وكانت من أشجع الشجعان. ولها دور عظيم في نشر الإسلام- كانت كاملة في خلقها وآدابها حسنة السمعة في علاقاتها الاجتماعية. مشهورة بالكرم والسخاء والجود أدت دورًا عظيمًا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نذكر من ذلك.

١) موقفها يوم غزوة أحد – حيث كانت في جيش المسلمين – تسقي الظمآن وتداوي الجريح – وفي بداية الأمر انتصر المسلمون. فترك الرماة مواقعهم. وأصبح الطريق خاليًا أمام سيدنا خالد بن الوليد/ لينقض على المسلمين فيوقع بهم الهزيمة. وقد انكشف المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد التف الأعداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. وهنا في هذا الموقف الصعب. والمنظر المؤلم. والسيوف المرفوعة من الأعداء والمصوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تظهر "نسيبة بنت كعب" ترفع سيفها وتحمل قوسها تصول يمنة – وتجول يسرة. وهي كالأسد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تضرب بالسيف وبجوارها زوجها. وحولها ولداها. وكانت إذا رأت الخطر يقترب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعت تتلقى الضربة عنه وتردها إلى مصوبها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما التفت يمينًا ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني" شجاعة نادرة. وبطولة فائقة. سبقت الكثير من الرجال. وتقدمت عليهم في مواطن الطعن . والضرب في ميدان الحرب. ولقد جرحت اثنى عشر جرحًا من بين طعنة برمح أو ضربة بسيف. لأنها كانت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم هي وأبناها – عبد الله – وحبيب – من زوجها – يزيد بن عاصم.

٢) موقف سجله التاريخ – وهو – أقبل – شخص – يسمى – ابن قميئة. وهو يصيح ويحمل سيفه. وهو لعنه الله – يريد قتل النبي صلى الله عليه وسلم. والموقف مهيأ له فالمسلمون في شغل. متفرقون – وقد رأت نسيبة رضي الله عنها هذا اللعين فاعترضته فضربها على عاتقها ضربة أحدثت غورًا في جسدها وتدفق الدم – لكنها بكل شجاعة تقدمت وسيفها في يدها تضرب يمينًا وشمالاً – ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان" ويقول عليه الصلاة والسلام لابنها عبد الله بن زيد "بارك الله عليكم من أهل بيت مقام أمك خير من مقام فلان وفلان. ومقام ربيبك "يعني زوج أمك" خير من مقام فلان. ومقامك خير من مقام فلان وفلان. رحمكم الله أهل بيت. قالت أم عمارة "نسيبة" أدع الله أن نرافقك في الجنة. فقال صلى الله عليه وسلم" اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة قالت أم عمارة – ما أبالي ما أصابني في الدنيا"[٢٥٣] عرف الأنصار. أم عمارة "نسيبة" بصيحاتها تقول "مالكم وللفرار – فأقبل أحد أبطال هوازن يريد أن يسكت صوتها فقتلته وأخذت سيفه.

٣) حدث ابنها عمار فقال. جُرِحتُ يوم أحد في عضدي اليسرى. وأخذ الدم يتدفق بشدة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. أعصب جرحك. فأقبلت أمي ومعها عصائب في حقويها فربطت جرحي. والنبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلينا. ثم قالت. أمي. انهض يا بني. فضارب القوم فردد النبي صلى الله عليه وسلم. ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة. وظهر الرجل الذي ضرب ولدها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. هذا ضارب ولدك. قالت فاعترضته. فضربت ساقه فبرك. قالت. فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. يبتسم حتى بدت نواجذه. وقال استقدت يا أم عمارة.

([٢٥٣]) يراجع كتاب امتاع الأسماع ص ١٤٩، طبقات بين سعد ج ٧.

ثم أقبلنا نُعلِّه بالسلاح "أي نضربه حتى أتينا على نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم الحمد لله – الذي أقر عينك من عدوك. وأراك ثأرك بعينك"[٢٥٤] هل كانت أم عمارة – خريجة كليات – أو – أكاديمية شرطة – أو جيش – لا – والله. وإنما هي خريجة خيمة في الصحراء العربية. ولكن – علمتها أم عظيمة. غرست فيها البطولة. ونمت فيها الشجاعة في جو تحكمه قوة فيها قيم أخلاقية وآداب عالية. وعرف اجتماعي يتسم بالطهر والعفة والأمن والسلام.

---

(٢٥٤) يراجع سيرةى بن هشام وطبقات بن سعد.

صفية بنت عبد المطلب

شخصية نبيلة – وأم عظيمة – سليلة بيت مجد. ساد مكـة – وسـقى الحجيج وأطعم الغادي والرائح. إنها – بنت – سيد مكة. وصاحب الكلمة فيها . وحافر بئر زمزم. وجد النبي صلى الله عليه وسلم. لذلك. فإن صفية – هي عمة النبي صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام. وهو واحد من القادة العظام في الإسلام. وأحد العشرة المبشرين بالجنة – سيدتنا صفية – ظهرت عبقريتها. في غزوة الأحزاب في هذه الغزوة – قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسـلم إلى صد العدو. جمع النساء والصبيان في حصن بني حارثة – وهو حصـن آمن. وذلك حتى لا يمسهم شيء من نيران الحرب وما يرميه المنجنيـق مـن قذائف. واعتصم بالحصن حسان بن ثابت وهو شاعر. وضعيف. تحصن مـع النساء والصبيان في الحصن. فبصرت صفية بفـارس مـن اليهـود يطـوف بالحصن. فتتبعت صفية هذا اليهودي. وعرفت أنه يريد أن يتعرف على مداخل الحصن ومخارجه. وأنه يريد أن يدل الأحزاب على ذلك الحصن ليأخذوا النساء والصبيان رهائن. وفي لحظة أو أقل. قالت سيدتنا صفية لحسان بن ثابت. انزل فاقتله فوالله ما آمنه أن يدل علينا من وراءنا من اليهود والمشركين – وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه. فقال لها. يغفر الله لك يـا ابنـة عبد المطلب. والله لقد عرفت ما أنا بصاحب ذلك. وعلى الفور احتجزت بثوبها – وخلعت عمودًا من خيمة. ونزلت إليه واليهودي مسلح بأحدث ما وصل إليه من الأسلحة. فنازلته. فقتلته. ثم نادت على حسان. إنزل فاسلبه. فإنه لم يمنعنى

من سلبه إلا أنه رجل – فرد حسان. وقال. مالي بسلبه من حاجة. يا ابنة عبـد المطلب"[٢٥٥].

إن من تعلم في مدرسة الإسلام. وقوى إيمانه بالله. ومن توكل على الله كفاه. ومن يتق الله يجعل له من كل ضيق فرجًا. ومن كل أزمة مخرجًا. ومـن يتوكل على الله فهو حسبه. والإيمان هو الذي يصنع الإنسان – وينمـي فيـه الفضائل الاجتماعية – وحب فعل الخير. وحب الوطن والدفاع عنه لأن حـب الوطن من الإيمان والنظافة العامة. والانضباط على القيم العالية من الإيمان.

---

(٢٥٥) يراجع الأغاني ج٤ وسيرة ابن هشام ج ٢.

خولة بنت الأزور

شخصية لها حضور عند الحديث عن القتال فهي إحدى عقائل العرب. ومن بيت ساد وحكم. ومن أسرة كل رجالها أبطال لهم مواقف مشهودة – أبوها – استشهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأخوها "ضرار بن الأزور" من الأبطال العظام الذي أدى دورًا رائعًا مع سيدنا خالد بن الوليد. في حرب الردة. كان لا يستطيع أحد أن يسد مكانه – أما هي – كانت تتسم بالجمال. ورباطة الجأش. وقوة اليقين. والمهارة في فنون الحرب. في حرب الردة. أسر أخوها "ضرار" كانت تحبه وكانت هي مع الجيش. وكانت معركة أجنادين، والقائد خالد بن الوليد" وكان القائد يحاول مع مجموعة من الجند وضع خطة لاستنقاذ ضرار من الأسر. فلمح خالد فارسًا ملثمًا ماسك بسيفه. معتقل رمحه. وهذا الفارس يقذف بنفسه على جند الأعداء. ولا يلوي على شيء إلا سحقه. وأوقع القتل في صفوف الأعداء فاتبعه خالد. فوجده يحمل على الأعداء. بقوة وهمة وكفاءة عالية يمزق صفوفهم. وقد فرق شملهم. وحطم العشرات منهم وجندل أبطالاً. وقتل رجالاً. واخترق صفوف الأعداء بقوة. ووقف خالد. ومعه العشرات من قيادات الجيش الإسلامي. وهم يشفقون على هذا الفارس غير المعروف. وقد تقدم الكثير من الجند يسألون خالد من هذا الفارس؟ فيرد – خالد – والله أنا أشد إعجابًا به ولكني لا أعرفه – فكلما اقتربت منه – ابتعدت عنه. وعندما انكشف جند الأعداء بسبب هذا الفارس الذي قتل منهم الكثير. وفر الباقي من أمامه خوفًا من سيفه. ورمحه فهو لا يخطئ في رميته. عندئذ أحاط به بعض جند المسلمين. وفي مقدمتهم خالد بن الوليد. فانتحت جانبًا فتقدم خالد. وأشار إلى الجند أن يبتعدوا. فقال الفارس الملثم. أيها القائد خالد العظيم إنني لم أعرض عنك إلا حياء منك. لأنك أمير جليل وبطل مغوار. وأنا من ذوات الخدور. وبنات الستور. وقد دفعني إلى مارأيت مني. أنني محرقة الكبد. مهمومة بأخي. فقال – من أنت؟ قالت. أنا خولة بنت الأزور كنت من نساء قوم

– فأتاني آت أخبرني بأن أخي أسر. فركبت وفعلت ما فعلــت. فصـــاح خالــد صيحة إعجاب. ودفع بالجند إلى المعركة وهي معهم حتى فرقوا شمل الــروم. وكانت هزيمة منكرة – لها دوي وظهر اسم الفارس المخيف الذي لعــب دورًا عظيمًا. بأنه امرأة عربية لها كيانها وكياستها وفطنتها وشجاعتها. وفكت أخاها من الأسر. ولكن هل وقفت المرأة العربية عند هذا الحد؟ لا. لقد كانت المــرأة العربية. عند الأزمة. لها حضور. لم تقف مكتوفة اليد. مشلولة التفكير. وإنمـــا لها تفكير تفك الأزمة. وتحل الصراع. من ذلك ما رأيناه من السيدة/ صفية بنت عبد المطلب عندما قتلت اليهودي بعمود خشب. وكذلك ما حدث من أم "ســليم" كانت في معركة غزوة حنين – ومعها زوجها سيدنا "طلحة" فرآها رســول الله صلى الله عليه وسلم تربط خنجرًا على وسطها وهي حامل. فقال لها ما هذا يا أم سليم قالت خنجرًا أدافع به عن نفسي. وتأملوا هذه القصة. وخلاصتها.

إن السيدة/ خولة بنت الأزور. فــي موقعــة. "صــحوراء"[٢٥٦] هــزم المسلمون. وأسرت النساء وكانت خولة من بين الأسرى. فأخذت تحمس النساء. وتثير نخوتهن. وتحرك العاطفة الدينية في نفوسهن. وتحثهن علـــى التماســك. والنزول إلى أرض المعركة. صفًا واحدًا فقالت النساء ليس معنا سلاح فكيــف نقاتل؟ قالت. نأخذ أعمدة الخيام وأوتادها ونحمل دفعة واحدة على هؤلاء اللئام. فلعل الله ينصرنا. وليتعلق قلب كل واحدة بالله نسأله العــون والنصـــر. قالـــت "عفراء بنت غفار" والله ما دعوت إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت. ثم تناولت كل واحدة عمودًا من عمد الخيام. ووقفت خولة. وقالت. لا ينفك بعضكن عــن بعض. وكن كالحلقة الدائرة. ولا تتفرقن. فتُملكن. فيقع بكن التشتيت وعلينا أن نهجم هجمة واحدة. وهدفنا تكسير السيوف. وتحطيم الــرؤوس. ثــم صـــاحت خولة. وصحن وراءها صيحة. خلعت قلوب الأعداء. واندفعت خولة وعمودها على عاتقها وخلفها النساء وقاتلن قتال المستميت. فتفرق جند الــروم وتشــتتوا

---

(٢٥٦) صحوراء هي منطقة قريبة من مدينة حمص بسوريا وقد وردت في كتب التاريخ باسم صحورة وسحوراء والأصح ماأثبتناه.

وانتصر المسلمون بفضل الذي يؤتى الحكمة من يشاء وعادت النساء بين جند المسلمين. والكل يردد

نحن بنات تبع وحمير وضربنا في القوم ليس ينكر
لأننا في الحرب نار تسعر اليوم تسقون العذاب الأكبر
(٢٥٧)

إن الحديث عن المرأة في الحرب ومواقفها الرائعة. يملأ صفحات التاريخ وكتبه. ولو أننا قرأنا واستفدنا. وعرضنا ذلك على أبنائنا وبناتنا. اعتقد - أن مسار التاريخ سيكون له شأن - ولم يكن نزول المرأة إلى ميدان الحرب - ظمأ إلى إراقة الدماء. ولم يكن ذلك أثرًا من آثار غلظة قلوبهن. ولم يكن ارتماء في أحضان الموت لتتخلص من حياتها لم يكن شيء من ذلك يخطر ببالهن - لأن قلوبهن مليئة بالرحمة. والحنان. والعطف والمرأة تعلم أن الإنسان صنعة الله - ملعون من هدم صنعته. وأن قتل الإنسان لنفسه حرام. إلا في ميدان الحرب وبيد الأعداء- حيث تدور معركة بين حق وباطل - لكن ما تحلت به المرأة مصدره قوة اليقين. وإيمانها القوي بأنها تدافع عن الحق. وحماية الأوطان. والأعراض. هذا. والعرب كانوا يقولون "الشجاعة صبر ساعة. فلم لا تكون أشجع الناس عند البلاء" كما ذكر الجاحظ أن "حبيب بن مسلمة الفهري. كان يحب الجهاد في سبيل الله. ففي مرة أراد الخروج للتوجه لميدان معركة. فقالت له امرأته. أين موعدك؟ قال سرادق الطاغية - أو الجنة إن شاء الله - قالت أني لأرجو أن أسبقك إلى أي الموضعين كنت به. فانتصر وذهب إلى سرادق العزاء فوجدها. (٢٥٨)

---

(٢٥٧) يراجع فتوح الشام للواقدين طبع مصر.

(٢٥٨) البيان والتبين ج ٢.

سيدات لهن أثر عظيم

ونحن نذكر المسلمين – والمسلمات. بنماذج مشرفة. ونجوم مضيئة في سماء المجتمع – لا ننسى أن نذكر بشخصيات. هذه بعض نماذج منها:

١) **قطر الندى** – زوجة المعتضد بالله. وأم المكتفي – وأسمها – أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون – جهزها والدها بجهاز لم يسبق له مثيل توفيت في بغداد ودفنت في قصر الرصافة – اشتهرت بالعلم وحسن الرأي. لذلك تولت الوصاية على ولدها لأنه تولى الإمارة قبل سن الرشد. فحكمت البلاد – وقضت بين الناس. وجالست العلماء– والشعراء – والأدباء – من الجنسين. وأصبحت مثلاً رائعًا في حسن التصرف في نظام الحكم.

٢) **شجرة الدر** – أم خليل – ملكها – الملك الصالح. واستولدها – خليل ثم تزوجها – وكانت صاحبة تدبير وكياسة وفراسة. مرض زوجها ومات فكتمت خبر موته. وتسلمت أمور السلطة. وتولت الحكم. وكانت تاسع من تولى الحكم في مصر من بني أيوب. وكان توقيعها على الورق باسم – أم خليل. وأصبح يدعى لها في المساجد. في يوم الجمعة . باسم – شجرة الدر. في مصر والشام. وضربت السكة باسمها ونقش عليها "السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين. والدة الملك المنصور خليل. تزوجها عز الدين أيبك. وتولى أمور السلطة. ولما أحست بأنه سيغدر بها قتلته – ثم قتلت خارج القلعة. ودفنت في المقبرة التي بنتها لنفسها بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها.

٣) **نور محل** – أو – مهر النساء – أو – نور الدنيا – هذه الأسماء لسيدة عظيمة. تزوجها الأمير سليم بن سلطان – محمد أحمد الأكبر. وقد تولى

سليم عرش فارس– وكانت نور محل – تتقن – اللغة العربية – والفارسية. وعلى درجة عالية جدًا من المعرفة بآداب اللغتين. ولها علم واسع بالموسيقى – كانت موفقة. تأخذ الأمور بجد وحزم – فأحبها الشعب – وكانت تستعرض الجند. وتستقبل حكام الأقاليم. والأمراء. والوزراء. وتناقشهم وتبدي رأيها. وكانت تركب الخيل للصيد ومعها وصيفاتها تتريض – وتقوم بالصيد. ذاع صيتها في الهند لأنها كانت ترعى الأيتام واليتيمات. وتقيم حفلات الزفاف لهن في جمع مشهود. وحفل رائع يلجأ إليها المظلوم فينصف. ويستجير بها المعدوم فتقضى حاجاته. ولا تجد – مدينة في الهند ولا قرية إلا ولها أثر يذكر – وحدث أن زوجها وقع أسيرا في بعض الحروب. فقادت الجيش حتى استخلصت زوجها من يد الأعداء – ولها ذكر شائع في آيات البر والإحسان.ولها مسجد في الهند باسمها في غاية الروعة والجمال الفني المعماري. بناه زوجها تخليدًا لذكراها.

تفاعل المرأة اجتماعيا

لقد وضع النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم منهجًا لرعاية المـــرأة المسلمة. وبفضل الله سبحانه وما شرعه في القرآن الكريم. وبلغه سيدنا محمـــد صلى الله عليه وسلم. فقد كان العامل الأكبر لتحرير المرأة من ظلمات الجهـــل والجاهلية. والأخذ بيدها لتمارس الحياة بفاعلية وإيجابية- وتسهم فـــي تطـــور المجتمع ورقيه. ولها ذمتها المالية المستقلة لأنه من المعلـــوم. أن دور المـــرأة المسلمة مع غيرها من نساء الأمة يشكلن دعامة قوية جدًا في بناء الأمة ويدفعن بالمجتمع إلى الرقي والتقدم والحضارة بمشاركتهن.

ونزول المرأة إلى ميدان العمل أمر معروف ومشهود وذكر منه القرآن نماذج لتكون بين أيدينا نهتدي بها حتى لا يشكك متشكك في مـــنهج الإســـلام. ويشيعون عنه ظلمًا أن الإسلام ظلم المرأة - كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا لهذا نوضح الأمر. حتى نكون على بينة واضحة لا لـــبس فيها ولا غموض.

ونقول بأن المرأة المسلمة نزلت إلى ميدان المجتمع في تفاعل وتنـــاغم وحركة ثابتة وهمة عالية وكفاءة واقتدار كانت المرأة تنزل لتعمل. وتبذل الجهد وهي ثابتة الجنان قوية العزيمة. تتسم بالحياء. وتتمسك بالعفة. وتصون العرض حفاظًا على كرامة الأسرة. وتدعيم ثقة الأبناء. لذلك وقف التاريخ أمـــام هـــذه الفترة. وهو مبهور لأنه يرصد هذه المرأة التي تشارك زوجها في الحقـــل. أو تعمل على مكتب. أو تمارس التجارة. أو تقوم بأي عمل. فإن الإسلام لا يمانع أبدًا ما دامت ملتزمة محتشمة. غير متبرجة أو ظاهرة الزينة. إن النساء شقائق الرجال والمجتمع لا ينهض إلا بالرجل والمرأة. لذلك لا بد من اللقاء الجاد بين

الرجل والمرأة في جدية ودون تكلف أو تعقيد أو حساسية وإن انطلاق المرأة ونزولها إلى ميدان الحياة الاجتماعية. وما ترتب على ذلك من لقاء الرجال فإن ذلك نهج قررته الشريعة الإسلامية. وسنة النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو يعلم ما في ذلك من تيسير على فعل الخير ويعلم على أن غير ذلك تضييق وحرج. ثم إن هذا اللقاء في ميدان العمل فيه إنضاج لشخصية المرأة حتى تتمكن من رعاية مسئوليتها الأولى نحو بيتها وزوجها وأولادها. إن المرأة المسلمة شريكة الرجل في تعمير الأرض إن تيسر الحياة أمام النساء أمر مطلوب حتى لا تتعطل الحياة ويتوقف دولاب العمل. ونبدأ بالآتي:

١- **طلب العلم** – وطلبه فرض على الرجل والمرأة ففي الحديث "طلب العلم فريضة على كل مسلم[٢٥٩] والدليل على أن طلب العلم فريضة على كل مسلمة إن النساء طلبن من رسول الله صلى الله عليه وسلم تخصيص وقت لهن. يعلمهن. ويتعلمن منه. فقد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت. يا رسول الله. ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يومًا فقال – اجتمعن في يوم كذا وكذا فاجتمعن فآتاهن[٢٦٠] إن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية مع لقائها بالرجال يتيحان لها التعامل في كثير من مجالات الخير بينما انعزالها يحرم المجتمع من هذه الخبرات – ويهبط بمستوى الأداء. ولا ينكر أحد أن الطيور على أشكالها تقع. فإذا خالطت العلماء – والصالحين. وعلماء علم الاجتماع والطب النفسي. زاد وعيها مع صلاحها. وهذا يقوي تأثيرها في أسرتها مع فطنتها وحسن تصرفها.

---

(٢٥٩) رواه البخاري.

(٢٦٠) رواه البخاري.

٢- **مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم لهن** - كالرجال تمامًا - وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قول الله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[٢٦١].

٣- **مشاركة النساء الرجال في الهجرة** إلى الحبشة في أول الدعوة أكثر من سبعة عشر امرأة - وهذا عمل عظيم وشرف لم ينله ملايين الرجال كما أن المرأة هاجرت إلى المدينة المنورة وكانت - أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرجت مهاجرة وكانت رشيدة فجاء أهلها يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعها إليهم فرفض طلبهم. لأن أباها كان من أشد المعاندين الكافرين ولن يتورع عن إيذائها وهي رشيدة بالغة تملك رأيها.

٤- العمل السياسي. لامانع من أن تشارك المرأة في العمل السياسي إذا كان عندها استعداد فقد قال الله سبحانه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

([٢٦١]) سورة الممتحنة ١٢.

ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢٦٢] والأمر بالمعروف والنهي عن المنكــر. والمساهمة في رقي المجتمع وأمنه عمل اجتماعي رائع.

٥- تجير من يلتجئ إليها – وهو ما يطلق عليه اليوم – اللجــوء السياســي – كانت المرأة المسلمة تجير من يلجأ إليها بطلب حمايتها, من ذلك.

أ) حسب الهارب الخائف المطارد أن يلجأ إليها فتجيره. فيشعر بـــالأمن والأمان – فسُبيعة ابنة عبد شمس بن عبد مناف. كانت زوجة لمسعود بن مالك الثقفي "سيد ثقيف" وقامت حرب الفجار الأكبــر – وقيــادة الجيش – لزوج سبيعة – وقيادة الجيش الآخر لابن أخيها. فهي بــين نارين – فاتخذت خباء بعيدًا عن أرض المعركــة. وهــي متحســرة. فذهب إليها ابن اخيها ليلاً يزورها فوجد الدموع في عينيها فقال لها ما يبكيك؟ قالت لما عسى أن يصيب قومي قال لها "من دخل خباءك من قريش فهو آمن. فأخذت توسعه. فلما انتهت الحرب. وهزم زوجها – قال لها ابن اخيها "ومن تمسك بأطناب خبائك فهو آمن. ومن دار حول خبائك فهو آمن فلم يبق أحــد مــن قبيلــة زوجهــا إلا ودار حــول خبائها"[٢٦٣].ونذكر أن سيد العرب "الحارث ابن عوف المري" تــزوج ابنة أوس بن حارث الطائي" وعندما دخل عليها وبدأ يخلع ملابسه – قالت له الفتاة – أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم – وكانت هنــاك حرب دائرة – بين – عبس – وذبيان – وكانت الحرب اشتد أوارهــا وعلا لهيبها – فقال زوجها. وماذا أفعل. قالت أخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم. فخرج لساعته. وترك عروسة. بناء علــى مشــورتها.

---

(٢٦٢) سورة التوبة ٧١.

(٢٦٣) الأغاني ج ١٩.

ومشى بين القبيلتين فأصلح بينهم واحتمل الديات. وكانت ثلاثة آلاف بعير على أن يدفعهم في ثلاث سنين. وهي والله ثروة كبيرة جدًا – ولكن وراءها امرأة تريد الصلح بين الناس. وهذا عمل سياسي. نتمنى أن نرى رجلاً يحمل هذه العواطف النبيلة والفكر العظيم"[٢٦٤]

ب) أم موسى عليه السلام – عاشت في فترة حالكة الظلام – فرئيس البلاد يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحي نساءهم. وهي من بني إسرائيل. وحامل. ونظرًا لشدة خوفها على من هو بين أحشائها. ألهمت من الله. بأن المولود إن جاء ذكرًا عليها أن ترميه في البحر. والمرأة تتميز عن الرجل بحسن الحيلة. فلما ولدت وجاء المولود ذكرًا صنعت صندوقًا محكمًا. ووضعت طفلها فيه. ورمت به في البحر ولما تحرك الصندوق بالمولود أصبح قلبها مشغولاً عليه. وكادت تصيح على الناس لإنقاذ الصندوق. لكن الله ألقى عليها الأمن النفسي. وفكرت وبسرعة. نادت على ابنتها. وقالت لها تتبعي أخاك ولا تفصحي عنه. ودخل الصندوق إلى بيت فرعون. والبنت تتبعه. ورأت أخاها وزوجة فرعون تعلن فرحها به. وتقول لفرعون "قرت عين لي ولك. ولم يشعر أحد من قصر الإمارة بأخت موسى وعينها عليه. وهم يطلبون له المراضع. وهو يرفض ويصرخ. فتقول أخته في حذر. ولباقة. وكياسة. وقالت لهم هل أدلكم على أهل بيت يرضعونه لكم. ويقومون على رعايته. وفعلاً قبلوا. وعينت أم موسى في القصر براتب عظيم.وولدها بين يديها. أليس هذا عمل سياسي اجتماعي على أعلى درجة وكفاءة في العمل الدبلوماسي لأنها بفطنتها وذكائها استطاعت أن تنقذ شقيقها من يد الجزار المتعطش إلى إراقة دماء لأطفال. تقول

([٢٦٤]) سيرة ابن هشام ج٢.

الفتاة في لطف وهدوء. هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم؟؟ قالت ذلك ولم يبد منها أي اهتمام بهذا الطفل. لكن القوم الذين أحاطوا بالطفل يتشاورون. فإن هموا بذبحه. صاحت زوجة فرعون لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا – ولذلك تقول أخته. أنا سأرشدكم إلى أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون – فقال القوم. وما يدريك أن من يكفلونه لكم – سيكونون له من الناصحين؟ هل تعرفين أهله؟ إن كنت تعرفين هذا الغلام. وأهله فدلينا عليهم؟ فقالت ما أعرفهم. ولكن كفالتهم له ونصحهم سيسعد الملك.وهم سيعملون على كل ما يسعد الملك ويرضيه فطلبوا منها إحضار من تقصد. فذهبت إلى أمها وأحضرتها وأخذت موسى ورجعت به سعيدة إلى بيتها. وهكذا تم وعد الله....

لقد أبرز القرآن الكريم مواهب المرأة.. وبين أنها لم تكن ابدًا أقل من الرجل. سجل لها قوة الفراسة. وحسن الحيلة. وبعد النظر. ولديها الكفاءة والقدرة على إدارة الحكم. وتدبير الملك.

بنات الرجل الصالح

سيدنا موسى عليه السلام في صباه ضرب رجلاً. فمات. يعبر القــرآن عن ذلك بقوله سبحانه ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ ﴾ [٢٦٥] ولم يكــن ســيدنا موسى عليه السلام يريد ذلك وهي ضربة يجمع الكل على أنها لا تفضي إلــى الموت. لكن تم ذلك لحكمة يعلمها الله بعد ذلك. حدثت أحداث على أثرها هاجر سيدنا موسى عليه السلام من مصر إلى أرض مــدين وهنـــاك وجــد النـــاس يجتمعون حول بئر ماء. وعلى البعد فتاتان خلفهما أغنام فســألهما ﴿ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ ﴾ [٢٦٦] وعللنا نزولهما لرعي الغنم وهــي يومهــا وظيفة عظيمة لها مكانتها الاجتماعية. والعلة هي ﴿ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴾ [٢٦٧]

البنتان اللتان سقي لهما سيدنا موسى عليه السلام كان عندهما بعد نظر – وقوة فراسة وحسن حيلة. إن البنتين لم يريا موسى قبل ذلك. لكنهما نقلا مــا حدث من سيدنا موسى عليه السلام بدقة. وأمانة إلى أبيهما وفي نهاية الحــديث إلى الأب ﴿ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ ﴾ [٢٦٨] وعللت هذا العرض من

---

[٢٦٥] سورة القصص ١٥.

[٢٦٦] سورة القصص ٢٣.

[٢٦٧] سورة القصص ٢٣.

[٢٦٨] سورة القصص ٢٦.

جانبها بقولها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٢٦٩] قال بعض المفسرين إن أبا الفتاة سألها. وما علمك بهذا ؟ قالت. إنه قوي لأنه رفع غطاء البئر وحده. وهذا الغطاء لايقدر على رفعه إلا خمسة من الرجال على الأقل. وإنه أمين. لأنني لما دعوته ليحضر إليك كنت أمشي أمامه فلعب الهوى بملابسي. فقال لي. كوني من خلفي. فإذا اختلف الطريق. فقولي يمينًا أو شمالاً. إن الله سبحانه وهو يعرض علينا هذه النماذج من قصص القرآن الكريم يريد سبحانه أن نتلمس الحكمة ونستخرج الموعظة. حتى تكون العبرة أمام أعيننا واضحة جلية.

ملكة سبأ

قصة هذه الملكة. فريدة في سلوكها- جديدة في إدارة مملكة قوية- مبتكرة في أسلوب الآداء بحكمة وفراسة وبعد نظر- ملكة جديرة بالاحترام والتقدير- لديها جيش قوي. مطيع لها منفذ لأوامرها - لأنها تتخذ الشورى لها منهجًا. متواضعة. غنية جدًا وليست بمستبدة برأيها. اكتشف أمرها هدهد. لأنه قد تعجب منها مع موفور عقلها. وبعد نظرها. تسجد للشمس من دون الله. وكان هذا بداية القصة التي أدى الهدهد فيها دور السفير أو الداعية الحصيف- حامل الرسائل بين نبي عظيم. وملك لم ينله أحد من العالمين, وبين ملكة لها عرش عظيم, حتى كانت النتيجة أن هذه الملكة أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

إن سيدنا سليمان عليه السلام الذي بادر بإرسال خطاب إلى الملكة. حمله الهدهد. وسلمه إليها - بفن ومهارة . وحصافة- وإدارة. فعندما قرأت

---

(٢٦٩) سورة القصص ٢٦.

الخطاب. استدعت قيادات الشعب وعرضت عليهم خطاب سليمان إليها. وقالت لهم أشيروا عليّ قـالوا لهـا ﴿ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾[٢٧٠] انتهى الأمر إليها – وهي تعلم أن قيـادة الشـعب تتطلب الحكمة وإدارة الرأي والفكر واستعمال الحكمة. والسياسة. وإدارة الأمر ببعد النظر والخبرة. فذلك قبل شجاعة الشجعان. وبعد استنفاذ ذلك يـأتي دور المدفع والقنبلة. لهذا كان قادة شعبها شخصيات تفهم دور الرجولة والقوة لأنهم نشروا الأمن والسلام في بلادهم. فهم أمة ينعمون في ظل ذلك. ولهـذا قـالوا الأمر إليك لمعرفتهم بحكمتها وطول بالها وحسن سياستها. وصبرها فاستعملت العقل. واستمعت إلى صوت الحكمة. لذلك فكرت الفكـر السـليم. واسـتبعدت استعمال القوة وإشعال نار الحرب. فاتخذت موقفاً يدل على حصافة الرأي وعدم التكبر والغرور. وانتهت إلى رأي ناضج فيه حكمة. وعمـق فكـر فقـررت إرسال هدية. فإن قبلها فهو ملك. طامع فيما لديها. وإن ردها فهو نبي يريد لهم الخير. لأنه يريد أن يبلغ هدى ربه. ثم أعدت هدية تدل على ثراء وقدرة وتليق بملك. واختارت كل ما فيها بعناية لأنها هدية ملكة عظيمة فائقة الغنى واختارت رجلاً من أشراف قومها وأسمه "المنذر بن عمرو" ومعه بعض الناس من ذوي العقل والرأي. ووجهت إلى رئيس الوفد وصية قالت له "أنظر إلى الرجل تقصد "سيدنا سليمان" إذا دخلت عيه. فإن نظر إليك نظرة فيها غضب فأعلم أنه ملك. فلا يهولنك أمره. ولا تخف منه. فنحن أعز منه. وإذا رأيته هاشًا باشًا لطيفًـا فهو نبي. فتفهم قوله. وأجب على سؤاله. فلما أبلغوها برد الهدية وأنـه يتسـم بالهدوء. ووجهه منير. وابتسامته مريحة. ثم كان لقاؤها هي به فعرفت أنه نبي:

([٢٧٠]) سورة النمل ٣٣.

فأعلنت أنها "أسلمت مع سليمان لله رب العالمين" وانتصر العقل وساد السلام. بحكمة امرأة لها حكمتها وسلامة تفكيرها. وبعد نظرها وحصافتها.

بطلة كربلاء

سيدة من أعظم النساء. لأنها صبرت على مشاهدة أخطر الأحداث إنها – أم المساكين – وراعية الأيتام . وصاحبة الديوان. وراعية الضعفاء سيدة جمعت بين كرم الأصل. وشرف النسب والحسب. فهي تمثل عنصرًا نسائيًا رائدًا. بسبب إيمانها ونقاء سريرتها وصدق اتجاهها لربها. إنها تمثل شخصية المرأة الكريمة النسب الشريفة الطاهرة – العابدة لربها – المتبتلة إليه. جمعت بين العمل الجاد لأنه عبادة. وبين العبادة الصادقة المخلصة. والعلم النافع المفيد كانت صابرة محتسبة عند الله ما نلاقيه. وما شهدت من مصارع آل بيت النبوة رضوان الله عليهم أجمعين. ولعل قولها عندما وقفت على أخيها الشهيد "الإمام الحسين" رضي الله عنه. وعن آل بيت نبينًا صلى الله عليه وسلم قالت رضي الله عنها وهي تنظر إلى جثمان سيدنا الحسين "اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان" ولما رأت رأسه الشريف على الرمح قالت....

يا هلالا لما استتم كمالا غاله خسفه فأبدى غروبا
ما توهمت يا شقيق فؤادي كان هذا مقدرًا مقدورا

لقد كانت مسلمة أمرها لله. تجتهد وتمحص وتختار ما فيه الأصلح. لكنها مع تخطيطها وتنظيمها مستسلمة لقضاء الله وحكمه سبحانه. وفي ذلك سعادة النفس وراحة البال.

كانت رضي الله عنها "ثابتة القلب قوية اليقين. يدلنا على ذلــك ردهــا على "ابن زياد" قاتل الإمام "الحسين" رضي الله عنه. قال لها . وهي حزينــة. تعتصر الهم بعين باكية. وقلب مصدوع. أرأيت صنع الله فيكم وفي أهل بيتــك وأخيك" نظرت إليه. وهي في قمة الشجاعة والقوة والثبات تعتصم بربها وتلوذ به وتحتمي بإيمانها. وقالت "مارأيت إلا خيرًا. هؤلاء – و أشارت إلى المقتولين – قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم يوم القيامة. فانظر لمن الفلاح – والنصر والظفر. يومئذ ثكلتك أمك يابن مرجانــة" هذه صورة من البطولة لسيدة عظيمة ينبغي أن يعرفها شبابنا وشيوخنا. ونساؤنا مثل هذه الصور الرائعة قدوة لبناتنا وما أكثرهم في تاريخ الإسلام. لقد كانــت تردد – قولها

ســهرت أعــين ونامــت عيــون
لأمــور تكــون أو لا تكــون

إن ربا كفاك ما كـان بالأمـ
ـس سيكفيك في غد ما يكون

فــأدرأ الهــم عــن الــنفس
فحمــلانــك الــهــم جنــون

إن الأمم التي تعتني بتاريخ عظمائها. وتذكر الأحفاد بهم. وبمآثرهم – هي الأمة الحية التي ترتكز على أقوى الدعائم التي تنهض نهضة عظيمة. لذلك فإن النفوس المتطلعة إلى المعالي والمتعطشة إلى معرفة تاريخ الآباء والأجداد– رغبة في الاقتداد بهم والساعية إلى أخذ الأسوة منهم – عليها أن تحافظ علــى آثار من مضى من عظماء أمتها ليتذكر اللاحق أمجاد هؤلاء الكرام الذين نقشوا على صفحات التاريخ أعمالهم العظيمة. وليس في التاريخ أعظم ولا أمجــد – بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم – من آل بيته الأطهار وسلالة ابنته الأماجد

– فعلينا أن لا نهمل سيرتهم. ولا ننسى أعمالهم ولا نطوي صفحتهم. فهـؤلاء أقطاب البيت النبوي. طهرهم الله تطهيرًا– ونحن مأمورون بالاقتـداء بـالنبي صلى الله عليه وسلم وبآل بيته الأطهار – لأنهم في ذورة الكمال – يقول عنهم القائل

هم العروة الوثقى المعتصم بها
مناقبهم جاءت بوحي وإنزال
مناقب في شورى وسورة هل أتي
وفي سورة الأحزاب يعرفها التالي
وهم آل بيت المصطفى فودادهم
على الناس مفروض بحكم وإسجال

ويقول آخر

رأيت ولائي آل طه فريضة
على رغم أهل البعد يورثني القربا
فما طلب المبعوث أجرا على الهدى
بتبليغه إلا المودة في القربى

ويقول آخر

يا آل بيت رسول الله حبكموا
فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكموا من عظيم الفخر أنكموا
من لم يصل عليكم لا صلاة له

من هذه السيدة

شمس البيت النبوي بعد جدها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وجدتها العظيمة – الطاهرة – الكريمة سيدتنا خديجة بنت خويلد زوجة الحبيـــب الهـــادي الغالي سيدنـــا محمـــد صلى الله عليه وسلم – إنها

السيدة/ زينب– رضي الله عنها وأرضاها أبوها/ الإمام علي بن أبـي طالب رضي الله عنه– فأبوها ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم والدتها/ سيدتنا الطاهرة المصونة – فاطمة الزهراء – بنت سيدنا رسول الله صـلى الله عليـه وسلم أخت / الإمام – الحسن – الإمام الشهيد/ الحسين بن علي كرم الله وجهه.

جدها لأبيها – أبو طالب: الدرع الحامي لسيدنا محمد صلى الله عليـه وسلم وهو عم النبي المصطفى الأمين

جدتها لأبيها – السيدة النبيلة الكريمة العظيمة – فاطمة بنت أسد ونذكر عنها نبذة لما لها من فضل سابق

هي السيدة المهذبة العاقلة المدبرة – فاطمة بنت أسد بن هشام بن عبد مناف بن قصي.

أمها – فاطمة بنت هرم بن رواحه – وينتهي نسبها إلى لؤي.

زواجها

تزوجت السيدة/ فاطمة أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم. وقـد أوصاه عبد المطلب جد النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. أن يضم سيدنا

محمدا صلى الله عليه وسلم إلى رعايته وكفالته لأن سيدنا محمـداً صـلى الله عليه وسلم يتيم الأب – والأم – وكان جده عبد المطلب هو الذي يكفله ويرعى أمره – وقد أحس بدنو الأجل – وبعد موت "عبد المطلب" انتقل سـيدنا محمـد صلى الله عليه وسلم اليتيم الصغير إلى كفالة عمه – وسيدتنا – فاطمة بنت أسد زوجة لأبي طالب – ودخله قليل – وعياله كثير. ولكن التاريخ يذكر أن فاطمة بنت أسد – استقبلت الوافد الجديد. بكل الحب. ومشاعر الحنان. وشملته بعناية فائقة. وكان أبو طالب يحكي لزوجته. ما يقوله اليهود عن النبي المنتظر. وأن العلامات كلها تنطبق على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فيزداد حبها لـه. والعناية به. وقد أسلمت وحسن إسلامها. وهاجرت. وعاشت في بيـت ولـدها سيدنا علي كرم الله وجهه وزوجته. سيدتنا الزهراء البتول "فاطمة بنت محمـد صلى الله عليه وسلم" ولما مرضت. زارها النبي صلى الله عليه وسـلم. ولمـا انتقلت إلى الرفيق الأعلى حضر إليها وجلس عند رأسها. وقال لها "رحمك الله يا أمي – كنت أمي بعد أمي تجوعين. وتشبعينني. وتعرين وتكسينني. وتمنعين نفسك طيبها وتطعمينني. تريدين بذلك وجه الله والدار الآخرة"(٢٧١) وقد شـارك رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر قبرها ثم نزل قبرها واضطجع فيه ثم قال "الله الذي يحيي ويميت. وهو حي لا يموت اللهم اغفر لأمي – فاطمة بنت أسد – ولقنها حجتها. ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلـي فإنك أرحم الراحمين" هذا وقد كفنت في قميص النبي صلى الله عليه وسلم. إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أوفى الأوفياء. فجزاه الله عنا خير ما جـزى نبيًا عن أمته – أمين.

---

(٢٧١) رواه الطبراني في معجمه الكبير.

عود لسيدتنا زينب

أم اليتامى – ولدت في المدينة المنورة – وكان كل من فيها ينتظـــر أن يسمع النبأ السعيد – بان السيدة الجليلة القدر – فاطمة الزهراء الحبيبة إلى قلب الوالد العظيم. والرسول الكريم. وكان قد سبق لها أن وضعت مولودين كريمين – السبطين الحبيبين إلى القلب الطاهر قائد الغر المحجلين صلى الله عليه وسلم "الحسن والحسين. وعند الوضع كانت السيدة/ أسماء بنت عميس – في استقبال المولودة الطاهرة. وكان ذلك في السنة السادسة من هجرة الرسول صـــلى الله عليه وسلم في شهر شعبان. والبيئة العامة تعبق بالإيمان. ويحيط بها الجمـــال. والجلال. والنور والسرور. والإخلاص للرسالة التي بشر بها الجد العظيم. الذي رفع راية العدل. والنظام والإحسان. والسعي الدائم لتغييـــر عبـــادة الأصـــنام. وإلغائها والاتجاه بالعبادة لله الواحد الديان.

كانت سيدتنا زينب وهي تشب يومًا بعد يوم تنظر إلى الحياة فتشهد هذه التحولات والتي تحدث. ويبلغ مسامعها هذه الأحداث العظيمة وتـــرى الفـــرح والسرور على وجوه آل البيت. وخاصة الأم – العظيمـــة. والأب المجاهـــد– الصابر. الشجاع. وعاشت سيدتنا تنعم بحب الجميع. وتقلدهم فـــي صـــلاتهم. وتصوم معهم. وتشهد قيام الليل. وهي في قمة السعادة والسرور إلى أن بلغـــت الخامسة من عمرها. شاهدت تغيرًا على الوجوه. وغابت الابتسامة مـــن علـــى الشفاه – ذلك – لأن الحبيب الغالي لحق بالرفيق الأعلى فخلت الحياة من أعظم شخصية عرفها التاريخ. حيث انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى– ولقد غادر الرسول صلى الله عليه وسلم الدنيا بعد أن صار العرب أمة واحدة – وأصبحوا قادة أمم – والجسور الموصلة لرسالة الإسلام إلـــى العـــالم شرقًا – وغربًا – لأن الدين للعالم – كانت سيدتنا شديدة الذكاء قوية الملاحظة لما يجري حولها. وبعد أشهر – غادرت السيدة العظيمة النبيلة السيدة فاطمـــة

الزهراء لتلحق بالركب المبارك الذي يسعى نورهم بين أيديهم يتقدم الحبيب الغالي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذا الركب المبارك. وتركت الدنيا لتكون في هذا الموكب العظيم تقدمت سيدتنا زينب بهمة عالية. وأخذت ترعى أخوتها. وقامت على شئون أبيها. علمًا بأن سنها صغير لكن القلب الكبير لا يعرف ضعف الهمة. وإنما يعرف الواجب وينهض بأدائه. وبعد انتقال الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. وحدث تصدع في الجزيرة العربية. وتحمل الصديق أبو بكر رضي الله عنه المسئولية. ونهض بها واستطاع أن يهزم المرتدين. وأجبر مانعي الزكاة على إخراجها لقد أدى أبو بكر رضي الله عنه مهمة جليلة. وكان ذلك بداية للانتصارات الإسلامية على دولتي الفرس والروم – بعون الله وتوفيقه.

في مهب الريح

كانت سيدتنا العظيمة – أم الأرامل . زينب بنت الإمام علي كرم الله وجهه يعتصرها الحزن. على جدها الحبيب الغالي – سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وعلى أمها النبيلة البتول – سيدتنا – فاطمة الزهراء – رضي الله عنها. ولكنها تؤمن بأن كل حي لابد أن يموت. ولايبقى إلا وجه الكريم. ولقد عاشت أحداث الانتصارات بقيادة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان لمشاركة أبيها وأخويها في الأحداث. ونقل الأنباء إليها مايهدئ نفسها. وهي ترقب والدها وهو مشارك في الأحداث وله أثر فعال. ومع كونه مشهور بالبلاغة والفصاحة. فكان يصور لها ما يجري على الساحة. كأنها بنفسها فيها. ترى بعيونها مايجري. وكانت سيدتنا زينب شديدة الذكاء قوية الملاحظة. شديدة الاهتمام للتعرف على ما يجري على أرض الوطن من أحداث. ومع صغر سنها. إلا أنها بحكم النشأة تسبق عمرها. فهمًا ووعيًا وإدراكًا لما يحدث من

تغيرات – اجتماعية – حربية – سياسية – اقتصادية – في بيئتها الاجتماعيــة. وكان قلبها الطاهر يمتلئ فرحًا وسرورًا.

ثقافتها

تميزت سيدتنا زينب بأنها كانت على درجة عالية من الثقافة الدينيــة. حافظة للقرآن الكريم مستوعبة للسنة النبوية المطهرة – كيف لا – وقدوتها أمها الطاهرة وأبوها البليغ الفصيح – وكان والدها من أحرص الناس على تعليمهــا وشرح فرائض الإسلام لها. وكان يوقظها لقيام الليل الذي هو دأب الصالحين. وقربة من الله سبحانه – ومكفر للسيئات ومنهاة عن الإثم – ولها فضل عظيم. وثوابها كبير. وورد أنها وهي بنت السنين الخمس. كانت تسابق أمها في قراءة القرآن. وفي إسباغ الوضوء وتتجه إلى المحراب تصلي مع أمها – فإذا فرغتا من الصلاة تضمها أمها إلى صدرها بحنان الأم العطوفة على ابنتها العزيــزة. وتقول لها "جعل الله فيك الخير وفي أبنائك البررة الأتقياء وكأني بك يا بنيتــي العزيزة أنظر إليك وأنت تدافعين عن الحق المهضوم بمنطق فصــيح ولســان عربي مبين" لقد نشأت السيدة زينب في بيت الرسالة. ورضعت لــبن الصــفاء النفسي من صدر أمها الزهراء وغذيت بغذاء الكرامة والفصاحة والبلاغة مــن أبيها ابن عم النبي المصطفى الأمين. فنشأت على سمو الروح. وطهارة القلب. وتربت تربية روحية فيها السمو النفسي والأمن الأسري. فكانت صوامة قوامة. قانتة لله – ولقد كانت رضي الله عنها في الذروة العليا مــن مكــارم الأخــلاق ومحاسن الشيم تتحلى بالأدب العالي والحياء. خاشعة لله. داعيــة النــاس فــي مراحل حياتها إلى حسن الثقة بالله والاعتماد عليه– مع التخطــيط للمســتقبل. وتتشفع بالنبي صلى الله عليه وسلم. وكان لعبادتها رضي الله عنها وخشوعها له سبحانه وسمو روحها وكثرة اطلاعها على حل الأزمــات وفــك الصــراعات

والعمل الاجتماعي التطوعي. أثر كبير في سعة أفقها. وقوة ذاكرتها. وتأثير في كلامها. وتقرأ لها.

وكم لله من لطف خفي
يدق خفاه عن فهم الذكي
وكم يسر أتى من بعد عسر
وفرج كربة القلب الشجي
وكم أمر نساء به صباحا
فتأتيك المسرة بالعشي
إذا ضاقت بك الأحوال يوما
فثق بالواحد الفرد العلي
تشفع بالنبي فكل عبد
يغاث إذا تشفع بالنبي
ولا تجزع إذا ما ناب خطب
فكم لله من لطف خفي

لقد كان كل من يعرفها أو يقترب منها يلقبونها – بالعاقلة الفطنة الرشيدة– وعقيلة بني هاشم. وعقيلة الطالبين وبالموثقة – والعارفة – والعالمة – والكاملة. والفاضلة. وعابدة آل علي. وكان لفظ السيدة إذا أطلق فيعرف السامع أنها هي. لقوة شخصيتها ومعرفة مايحيط بها. وكان الرواة وطلاب العلم وعشاق المعرفة إذا أرادوا شيئًا ليعرفوه. يشيرون إلى بيتها ويقول المشير. هنا الراوية هنا العلم والأدب والمعرفة العامة– هلا نذهب إليها. فيقصدونها طلبًا للمعرفة. لأن العلم من أفضل المزايا والصفات التي يتحلى بها البشر. ومما يروى للدلالة على فصاحتها وتبحرها في العلم. حدث أن أخويها – الحسن والحسين – كانا يتذاكران مرة ما سمعاه من جدهما صلى الله عليه وسلم حول قوله "الحلال بين والحرام بين. وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس.

فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام. كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه" ألا وإن لكل ملك حمي. ألا وإن حمي الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"[٢٧٢] فقالت "اسمع يا حسن ويا حسين – إن جدكما رسول الله صلى الله عليه وسلم – مؤدب بأدب الإله. أدبه ربه فأحسن تأديبه وعبر عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله "أدبني ربي فأحسن تأديبي" وقد هيأه الله من بداية الخلق لحمل رسالة الحق والدعوة إلى الله رب العالمين. ومن كجدي الذي اصطفاه الله واختاره ليبين للعالم طريق الخير ويأمر بالسير فيه وطريق الشر وينهي عن السير فيه يحذرنا من الشر وأهله. في أسلوب عذب وبعبارة واحدة ممتعة. ثم قالت. هناك ثلاث درجات في الدين :

(١) حلال　　　(٢) حرام　　　(٣) مشتبه به

أما الحلال – فهو ما أحله الله تعالى. ووضح ذلك في القرآن الكريم. وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه الواضح – كحل البيع والشراء. والأمر بإقامة الصلاة في أوقاتها. وإخراج الزكاة. وصوم رمضان – وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. والالتزام بالصدق– والنهي عن الكذب. والتمسك بالأمانة. والنهي عن الخيانة والوفاء بالوعد. والنهي عن النفاق. والإحسان إلى الجيران، وعدم إلحاق الضرر بهم. وأداء الحقوق لأصحابها. والنهي عن الغش. وحب الخير للناس جميعًا. والتعايش السلمي مع الناس جميعًا. ورحمة اليتيم والعطف على الضعيف. والرحمة بالحيوانات. والتحلي بالآداب الاجتماعية والأخلاق العالية.

---

(٢٧٢) رواه البخاري.

أما الحرام - فهو ما حرمه الله تعالى وبين ذلك في القــرآن الكــريم. وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو على النقيض من الحلال: كالغيبــة والنميمة. والتهرب من المسئولية. والانعزالية. والإفساد في الأرض- والإساءة إلى الآخرين. والسلبية. والكذب. والخيانة. والنفاق.

أما الأمور المشتبه فيها - فهي الأمور التي لم يرد فيها نص من قرآن ولا سنة لكن المسلم يتعرف على ما فيها من نفع - أو ضرر - كالتليفزيون - فيه، وفيه فأنا كمسلم آخذ منه ما فيه نفع. وابتعد بنفسي عن الأشــياء المفســدة والتي لا استفيد منها - كإنسان - صاحب رسالة. وكالدخان - ثبت ضرره وأنه السبب في ضياع الأموال. وتلويث البيئة. وغير ذلك من الأشــياء المســتحدثة على الساحة الاجتماعية - وكل شخص أدرى بمصلحته فنقيس الأمور. نافعة - وضارة. فإذا جاء على مثيلاتها مما جاء فيه نص. فما ثبت نفعه فهو حــلال. وماثبت ضرره وفساده فهو حرام وهكذا ولهذا قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم "إتق المحارم تكن أعبد الناس"(٢٧٣).

إن المؤمن والمؤمنة بعضهم أولياء بعض. يتبادلون النصائح. لأن الدين النصيحة. ويتشاورون لكل ما من شأنه يحقق لهم السعادة النفسية. ويحــافظون على قيم دينهم ليحققوا لأنفسهم سعادة دائمة بحبهم لله - وحب الله لهم - المهم - المسلم يسير في الطريق الذي رسمه القرآن. وبين منهجه رسول الله صــلى الله عليه وسلم. وما أجمع عليه المسلمون فإنهم لا يجتمعون إلا على خير - فيد الله مع الجماعة. إن من سار في طريق الشر وابتعد عن القرآن فلا يــأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرم الله. ألا وإن لكل ملك حمى بجوار ملكه أمــا حمــى ملك الملوك. خالق السموات والأرض فإنها محارمه التي حرمها فــي القــرآن وفي أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم إن الله سبحانه أودع في الإنسان

---

(٢٧٣) رواه الترمذي.

مضغة وجوهرة لطيفة إذا صلحت فإن الجسد كله يكون صالحًا نقيًا من الأدران والعلل. ذلك هو القلب. فإن كان سليمًا فإن صاحبه يكون يقظًا لأمور دينه ومبادئ شريعته. يرى السعادة كلها في الاستقامة على هدي القرآن والسنة. ومن سلك هذا المسلك وسار على هذا الهدي واتبع المبدأ "أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا" فقد فاز فوزاً عظيماً إن حياتنا الدنيا مرحلة نعمل فيها بإرادتنا وحرياتنا حتى نصل إلى – إما إلى رضاء الله وعفوه. وجنة النعيم. وإما إلى نار وقودها الناس والحجارة.....

زهدها

كانت سيدتنا زينب رضي الله عنها – وهي في بيت أبيها – أو وهي متزوجة – وأم لأولاد. قانعة بعطاء الله. راضية بما في بيتها لا تتطلع إلى ما عند الغير. ثم إن الزاهد – هو الذي يحب ما يحبه خالقه والذي خلقك يحب منك أن ترضى بما قسم الله لك. وأن تتجنب فعل المعاصي. وأن يكون عندك ثبات على الحق – ولا تميل مع الهوى. وتتحلى بالأدب والحياء – إن بعض الناس يظن. أن الفقير. هو الذي لا يجد ما ينفقه لذلك فهو الزاهد. وهذا خطأ في فهم معنى الزهد. لأن الزاهد هو القانع بما عنده مع سعيه الدائم بقيم دينه للعمل. لرفع مستواه ولايتطلع إلى ماعند غيره – والزاهد كذلك هو الغني الذي عنده مصانع – وحسابات في البنوك. وعمارات. وأراض زراعية. وحركة عمل إيرادها اليومي يبلغ – بالملايين أو الآلاف. ولكنه زاهد في الدنيا – يتصرف في ماله بما يرضي الله – لا يضيع وقته. ولا يمسك بسيجارة في يده – ولا يقبل على الشيشة. وما وراء ذلك. وإنما المساجد تعرفه. والصالحون يجالسونه. والفقراء يذكرونه. وهو متواضع يثق بأن المال. مال الله. وهو أمين عليه ينميه ويستثمره. ويؤدي حقه وبزيادة. لا يمن ولا يتعالى.

إن الزهد هو "إزهد في الدنيا يحبك الله. وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس" لأنه إذا أراد الله بعبده خيرًا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة. وفقهه في الدين. وبصره بعيوب النفس" وكذلك "من أراد أن يؤتيه الله علمًا بغير معلم. ويهديه إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة. فليزهد في الدنيا "ومن زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة في قلبه. فأنطق بها لسانه. وعرفه داء الدنيا ودواؤها. وأخرجه منها سالمًا إلى دار السلام" ولقد كان قدوة السيدة زينب رضي الله عنها في ذلك هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلقد جاء أمين الوحي سيدنا جبريل عليه السلام بمفاتيح كنوز الأرض – وقال – يا محمد – خذها ولا ينقص من حظك عند ربك شيء. فردها عليه السلام ورفع رأسه إلى السماء قائلاً "يا رب– أجوع يومًا وأشبع يومًا. فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك. وأما اليوم الذي أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك"[٢٧٤] وأمها الزهراء البتول – سيدتنا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – كان فراشها حصيرًا من سعف النخيل – وجلد شاه – وكانت تلبس الكساء من صوف الإبل. وتطحن بيدها الشعير. وتعجن وتخبز. وتقوم بعمل البيت كله بيديها الطاهرتين" وأبوها الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. تولى خلافة المسلمين وكساؤه مرقع. ومجلسه على حصير. وهو أمير المؤمنين. وبيت المال ملئ بالملايين. ومع ذلك لا يمد يده إلى هذا المال. وإنما هو راض. وهذا هو الزهد. وسيدتنا زينب أعرضت عن زهرة الدنيا– والمال تحت يدها وفير. لأن زوجها "عبد الله بن جعفر" ثري وتاجر عظيم. لكنها تحلت بالقناعة والزهد. والبعد عن متاع الحياة الدنيا. لهذا كانت مثالاً طيبًا يحتذى بها في الزهد – وعدم التطلع إلى ما في يد الغير. ومن يرضي بما قسم الله له. فهو الغني السعيد. العزيز في قومه الذي رضي الله عنه ورضي هو عن الله رب العالمين.

---

(٢٧٤) رواه الترمذي.

دوامة الأحداث

آل البيت النبوي رضوان الله عليهم. مرت عليهم أحداث لو نزلت على جبل لتفتت. لأن ما حدث لم يكن بالشيء اليسير. وآل البيت يعلمون أن ما نزل بساحتهم وحل بهم شيء من علم الله معلوم. ولهذا كان رد سيدتنا زينب رضي الله عنها. يوم أن قال لها ابن زياد – وسيفه يقطر دمًا من أجساد آل البيت – يقول لها في تشف والسيف في يده. أرأيت كيف صنع الله في أهل بيتك وأخيك؟ فردت عليه في عزة وتعال عليه. ثم ثقة في الله القائل ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[٢٧٥] ولهذا كان رد سيدتنا زينب رضي الله عنها على ابن زياد "ما رأيت إلا خيرًا هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فخرجوا إلى مضاجعهم" إن القدر ألقى على عاتق السيدة/ زينب رضي الله عنها – وهي صغيرة – بنت السبع سنوات – أو – أقل إدارة بيت أبيها – ورعاية شئون إخوتها – والأيام تمر عليها. وتشهد الأحداث الدامية. والصراعات البشرية. لقد شهدت مصرع أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– شهيد المحراب. ثم شهدت الفتنة العامة في أواخر ولاية سيدنا عثمان ذو النورين. ثم استشهاد، والدها الإمام علي رضي الله عنه. ثم موت أخيها الحسن بعد تنازله عن الخلافة – و أشيع بأنه مات مسمومًا – وكان آل البيت وفي مقدمتهم سيدتنا زينب يعيشون هذه الأحداث. لذلك وطنوا أنفسهم على "أولاً– الصبر – وهو أفضل الخصال التي يتحلى بها الإنسان. وقيمة أخلاقية نبيلة. ويتحقق بالإيمان

([٢٧٥]) سورة الحديد ٢٢، ٢٣.

القوي. والثقة في الله. والاعتماد عليه. ولذلك عرف العلماء بأن الصبر هو "حبس النفس على تحمل المشاق تسليمًا لأمر الله تعالى. وحبسها عن الشهوات. نزولاً على حكم الشريعة.

وقد مدح الله الصابرين . في كتابه الكريم . فقال سبحانه ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾(٢٧٦) ويقول ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥﴾(٢٧٧) ويقول سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾(٢٧٨) ولقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم وقيل له – "أي الإيمان أفضل؟ قال: الصبر والسماحة"(٢٧٩) وقال صلى الله عليه وسلم "الصبر الضياء" ويقول عليه الصلاة والسلام "ما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر"(٢٨٠) يقول الإمام علي كرم الله وجهه "الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. فإذا قطع الرأس مات الجسد. ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له". ويقول ابن مسعود رضي الله عنه الإيمان نصفان – نصف صبر. ونصف

---

(٢٧٦) سورة البقرة ١٧٧.

(٢٧٧) سورة الحج ٣٤، ٣٥.

(٢٧٨) سور ة الرعد ٢٢.

(٢٧٩) أخرجه البيهقي.

(٢٨٠) أخرجه أحمد.

شكر" وقال الحسن البصري رضي الله عنه "الصبر كنز من كنـوز الخيـر لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده" وقال أحد الشعراء:

إن الأمـور إذا انسـدت مسـالكها
فالصبر يفتح منها كل ما ارتتجا
لا تيـأس وإن طالـت مطالبـة
وإذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته
ومـدمن القـرع للأبـواب أن يلجـأ

ويقول آخر

الصـبر مثـل اسمـه مـر مذاقتـه
لكـن عواقبـه أحلى من العسل

وقال أكثم بن صيفي :حيلة من لا حيلة له الصبر" ومن أمثال العـرب "فقد الصبر أدهى المصيبتين"

إن الأحداث التي مرت بالمجتمع الإسلامي والتي بدأت بقتل سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه – جعلت المجتمع يعيش فـي قلـق واضـطراب. خاصة "المدينة المنورة" على ساكنها أفضل الصلاة والسلام– فكانوا يعيشون في فزع بين الحين والحين وخوف من تفاقم الأحداث والصراعات التي لا تتوقـف ولقد كانت سيدتنا عقيلة بني هاشم. ترقب ذلك وخوفها على أبيها وأخويهـا – إلى أن استشهد الإمام علي كرم الله وجهه فاعتصر الحزن قلبها وقرح الـدمع عيونها. وجعلتها الأحداث تردد

سـهرت أعـين ونامـت عيـون
لأمـور تكـون أو لا تكـون
إن ربا كفاك ما كـان بالأمـ
ـس سيكفيك في غد ما يكون
فأدرأ الهم ماا ستطعت عن النفـ
ـس فحملانـك الهمـوم جنـون

ويقول الإمام الحسين رضي الله عنه

إذا مـا عضـك الـدهر
فـلا تجـنح إلى الخلـق
ولا تسـأل سـوى الله
تعـالى قاسـم الـرزق
فلـو عشـت وطوفـت
مـن الغـرب إلى الشـرق
لمـا صـادفت مـن يقـدر
أن يسـعد أو يشـقى

العاصفة الشديدة

تمر الأحداث الرهيبة. فتتزلزل الأرض. وتتخلع القلوب. وتدمي العيون ويبقى أثرها في القلب. ثم يكون السلوان. لأن المسلم يتحلى بالصبر ويرضى بالقضاء والقدر. إننا نؤمن بأن الأيام دول – يوم لك. ويوم عليك فالإنسان يشكر الله على نعمه. ويصبر عند البلاء – لأن ما يصيبني. يصيب غيري ولهذا يقول الله سبحانه ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[٢٨١] ويقول الإمام علي كرم الله وجهه "إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور. وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور" ولذلك – بعد استشهاد الإمام علي رضي الله عنه بويع الإمام الحسن خليفة لأبيه أمير المؤمنين. لكنه تنازل لمعاوية بن أبي سفيان وغرضه من ذلك – جمع كلمة المسلمين. وحقنًا لدماء المسلمين. تصديقًا لنبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم "إن ابني هذا سيد. ولعل الله أن يصلح بيه بين طائفتين" ولقد خلى الجو لمعاوية بن أبي سفيان. فأحاط نفسه بكل ما استطاع من وسائل الترف. والأبهة والحراس و الحاشية. ثم عمل على تحقيق هدفه. وأخذ البيعة لولده يزيد. جاعلاً الحكم والملك احتكارًا لبني أمية. وبهذا تحول نظام الحكم الإسلامي. المبني على الشورى. والانتخاب المؤسس على الصدق والأمانة إلى نظام ملكي قائم على الوراثة. حتى ولو لمن لا يصلح للإمارة من هنا بدأت المعارضة تظهر وبشدة. غيرة منهم على الدين. ومنهجه. وتم القضاء على الشورى ومعاوية. وهو السياسي المحنك ما كان يغيب عنه أن هذا الأمر سيلقى معارضة شديدة. ويؤمن بأن المعارضة ستشتد ضد ولده يزيد الذي يتسم بالقصور العقلي. وعدم استيعاب الأحداث. وعدم القدرة على حل المشاكل بلباقة وفهم.

إن معاوية توقع أن يلقى ابنه "يزيد" معارضة قوية. إذا تولى الحكم بعد وفاته. وهو يدرك أن المسلمين لن يقبلوا هذا لغيرتهم على حق الأمة في الشورى. ولأن يزيد ليس على المستوى الخلقي لأنه مشهور عنه الفسق والمجون ولهذا فهو ليس بأهل لولاية المسلمين. لكن معاوية جلس في مجلس الحكم وعرض رأيه. ومدح يزيد وأثنى عليه. ووجم الناس. وتكلم المنافقون

([٢٨١]) سورة البقرة ٢١٤.

وشجعوا وأثنوا خيرًا على يزيد – لكن – "الأحنف بن قيس. وهــو معــروف بحكمته – وهدوء أعصابه. ورجاحة عقله قال "نخافكم إن صدقنا. ونخــاف الله إن كذبنا. وأنت يا أمير المؤمنين أعرف بيزيد في ليله ونهاره. وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه. فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضاء فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا. وأنت سائر إلى الآخرة" أما أهل الشــام فقالوا – إنك أمير المؤمنين. فإذا مت فأمير المؤمنين يزيد. فمن أبى غير ذلــك – فهذا – وأخذ بقائم سيفه فسله من غمده. وقد بدأ السرور على وجه معاويــة وبدأ إعجابه. واشتدت المعارضة في المدينة المنورة والأمصار وكبــر علــى الناس. أن يحرم من الخلافة – أجدر الناس بها وأقربهم إلى رسول الله صــلى الله عليه وسلم وأحسنهم سمعة وماأكثرهم. ولديهم القدرة على حــل المشــاكل ويتصفون بالعلم والحكمة والكفاءة, مات معاوية – وبايع أهل الشام – يزيــد – الذي بادر وكتب إلى واليه على المدينة المنورة وقال له خذ لنا البيعة من أهــل المدينة عامة. ومن أبناء الصحابة خاصة. ثم أكد – يزيد على عامله بالمدينــة. أن يكون شديدًا قويًا مع الحسين – وخشي الوالي. وهو – الوليد بن عتبــة أن يتحمل أمر الحسين رضي الله عنه وحده. فأشرك معه في الرأي شيخ الأمويين "مروان بن الحكم – وأشركه في الرأي – فأشار بأن يعرض الأمر على الحسين رضي الله عنه فإذا أبى فاضرب عنقه بالسيف فدعى الوليــد الإمــام الحســين رضي الله عنه فقال أمهلني لغد. فقال مروان. لا تدعه يخرج. احبســه. حتــى يبايع وإلا فاضرب عنقه – وسمع الإمام الحسين رضي الله عنه ما تكلــم بــه "مروان" فقال الإمام الحسين رضي الله عنه "ويلي عليك يا ابن الزرقاء. أأنــت تأمر بقتلي – أم هو – ثم وجه٩ كلامه للوليد – أمير المدينة. وقال له – يا أمير – إنا أهل بيت النبوة. ومعدن الرسالة. بنا فتح الله. وبنا ختم. "ويزيد بن معاوية" فاسق فاجر. قاتل النفس المحرمة. معلن هذا ومثلي لا يبايع مثله. ولكن نصبح

وتصبحون وتنظرون أينًا أحق بالبيعة والخلافة) لقد خرج الإمام الحسين رضي الله عنه. مغضبًا. أما الوليد فقد التفت إلى مروان – وقال له. ويلك. أتشير علي بذهاب ديني بدنياي. والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها. وأقتل الحسين. سبحان الله. أأقتل الحسين لأنه قال لا أبايع؟ والله ما أظن أن أحدًا يأتي يوم القيامة ويلقي الله بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان. لا ينظر الله إليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم. وما أن خرج الإمام الحسين رضي الله عنه من دار "الوليد بن عتبة" حتى بادر إلى مغادرة المدينة متوجهًا إلى مكة. وكان قد أفضى بخواطره لشقيقة الروح سيدتنا زينب رضي الله عنها. وتشاور معها في الأمر. وقد لقيه "عبد الله بن مطيع" وهو خارج من عند شقيقته فقال له – إلى أين يا ابن بنت رسول الله. جعلت فداك؟ قال – إلى مكة. واستخير الله في ذلك. قال. خار الله لك كل خير. وجعلنا فداك. فإذًا أتيت مكة. فإياك أن تذهب إلى الكوفة. فإنها بلد شؤم مشؤومة بها قتل أبوك. وخذل أخوك. واعتل بطعنة كادت تأتي على نفسه. إلزم الحرم. فإنك سيد العرب. لا يعدل بك أهل الحجاز أحداً. ويتداعى إليك الناس من كل جانب. لا تفارق الحرم. فداك عمي وخالي. فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك.

تســـــاؤل

لماذا امتنع الإمام الحسين رضي الله عنه. عن مبايعة يزيد؟ الإمام الحسين رضي الله عنه – لم يكن يطمع في الخلافة – أو يطلب إمارة. وقد كان يرى أن هذا حق المسلمين يبدونه. دون تهديد أو تلويح بالوعيد. كما أن الإمام الحسين رضي الله عنه كان يرى أن يزيد بن معاوية لا يمتلك ذرة من الصلاحية التي تؤهله لأن يلي الخلافة ورعاية أمة، ثم إن الإمام الحسين رضي

الله عنه حريص على الحفاظ على كلمة المسلمين واتحادهم. إعلاء لشأن الدين. وحفظًا على كلمة التوحيد. وكان الإمام الحسين محقًا في هذا. ولكن الأمـــر لله يفعل ما يشاء وهو القوي العزيز.

مواقف مؤسفة

تبوأ يزيد أمر الدولة. وظهر فساده ومجونه. وانتشرت الرشـــوة وعـــم الفساد الذي ظهر في البر والبحر. وبدأ أهل العراق خاصة الكوفة يكتبون للإمام الحسين رضي الله – وبلغت المكاتبات الآلاف. ويقولون له. نحن شيعة أبيـــك وشيعتك والناس بالآلاف يستنجدون بك وينتظرونك. ولا مخلص لهـــم غيـــرك فالعجل العجل – فقد اخضرت الجنات. وأينعـــت الثمـــار. وأعشـــبت الأرض. وأورقت الأشجار فأقدم إذا شئت فإنما تقدم على جندك. والسلام

وقد بعث الإمام الحسين برسل من قبله من يستطلع له الـــرأي. فعلـــم عامل يزيد بأمرهم. فحبسوهم وعذبوهم وقتل بعضهم. ولحكمـــة يعلمهـــا الله – تحرك الإمام الحسين رضي الله عنه. ولم تكن أخبار رسله قد وصلت إليه. ولما علم "عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي لرسل الإمام قال يا إمـــام " إني أتيتك مستنصحًا. فهل تقبل مني؟ وإن كنت لا تقبل نصحي كففـــت؟ قـــال الإمام الحسين رضي الله عنه قل فوالله ما أظنك بسيئ الرأي – قـــال – عبـــد الرحمن المخزومي– قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق. وإني مشفق عليك من مسيرك. إنك تأتي بلداً فيه عمال يزيد وأمراؤه ومعهم بيوت المال. والناس عبيد الدرهم والدينار. ولا آمن عليك أن قاتلك من وعدك النصر. ومـــن أنـــت أحب إليه ممن يقاتلك معه. قال الإمام الحسين رضي الله عنه – جزاك الله خيرًا يابن عم. فقد والله علمت أنك مشيت بخير وتكلمت بعقل ونصـــحت بصـــدق.

ومهما يكن من أمر. أخذت برأيك أو تركت. فأنت عندي ناصح. ومشير حكيم. وما إن خرج "عبد الرحمن المخزومي" إلا ودخل على الإمام عبد الله بن عباس. وقال له – يا ابن عم – قد أرجف الناس انك سائر إلى العراق. فبين لي ما أنت صانع؟ قال الإمام. قد جمعت المسير في أحد يومي هذين إن شاء الله فقال ابن عباس. أعيذك بالله من ذلك. أخبرني رحمك الله. أتسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم. ونفوا عدوهم. فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم. وإن كانوا إنما دعوك إليهم. وأمرهم على بلادهم. قاهر لهم. وعماله تجبي بلادهم. فإنما هم دعوك إلى الحرب والقتال ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك. ويخالفوك. ويخذلوك. وأن يستنفروا إليك فيكونوا أشد الناس عليك" قال الإمام الحسين رضي الله عنه وإني استخير الله. وأنظر ما يكون. فلما كان الغد. جاء عبد الله بن عباس إلى الإمام رضي الله عنه للمرة الثانية ليعلم ما استقر عليه رأيه. فقال للإمام الحسين. يا ابن عم. إني أتصبر ولا أصبر. أني أتخوف عليك الهلاك والاستئصال. إن أهل العراق قوم غدر. فلا تذهب إليهم. أقم بهذا البلد. فإنك سيد العرب. فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا. فاكتب إليهم فلينفوا عدوهم. فإن أبت ذلك فلاتخرج. فسر إلى اليمن. فإن بها حصونًا وشعابًا. وهي أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة. وأنت عن الناس في عزلة – إلى أن قال – فإن كنت سائرًا – فلا تسر بنسائك وصبيتك – فوالله إني أخاف أن تقتل كما قتل عثمان – ونساؤه وولده ينظرون إليه" إلى آخر ما قاله ابن عباس للإمام الحسين رضي الله عنه – ولحكمة يعلمها الله صمم الإمام الحسين رضي الله عنه إلى الخروج. ولم يعمل بنصيحة الناصحين – وقرر الذهاب إلى الكوفة اعتمادًا على كثرة الخطابات التي وصلت إليه من أهل الكوفة. وخرج الإمام بكل أهله وعشيرته. فلقيه الفرزدق – وهو شاعر معروف فقال للإمام – أعطاك الله سؤلك. وأمّلك فيما تحب. فقال الإمام الحسين رضي الله عنه بيِّن لي خبر

الناس خلفك؟ فقال – من الخبير سألت. قلوب الناس معك. وسيوفهم عليك لأنهم مع بني أمية. والقضاء ينزل من السماء. والله يفعل ما يشاء. قال الإمام الحسين رضي الله عنه – صدقت لله الأمر – والله يفعل ما يشاء. وكل يوم ربنا في شأن. إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه. وهو المستعان على أداء الشكر – وإن حال القضاء دون الرجاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه. وهو المستعان على أداء الشكر. وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته. والتقوى سريرته. ثم إن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب زوج الطاهرة النقية أم المساكين سيدتنا زينب. أرسل إليه بخطاب يرجوه فيه أن يرجع وجاء في الخطاب – إني مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك. وإن هلكت اليوم طفئ نور الأرض. فإنك علم المهتدين. ورجاء المؤمنين. فلا تعجل بالمسير فإني في أثر كتابي. والسلام. وأرسل بالخطاب مع أولاده الذين أمرهم أن يحيطوا بالإمام وأن يكونوا معه لايفارقونه.

في مهب الرياح

كان الإمام الحسين رضي الله عنه. يرسل بالأشخاص ليستطلعوا الأمر وعاد بعضهم وأخبر الإمام بمقتل "مسلم بن عقيل" رسوله إلى أهل الكوفة. وهنا وثب "بنو عقيل" وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم. فقال الإمام الحسين رضي الله عنه لاحول ولاقوة إلا بالله. وإنا إليه راجعـون, فقال له بعض من حوله "إنك والله لست كمسلم بن عقيل. ولو قدمت الكوفة لكان الناس أسرع إليك" وكان الإمام الحسين رضي الله عنه. أرسل أخاه من الرضاع "عبد الله بن بقطر" إلى الكوفة فلم يعد – لأنهم قتلوه – فلما بلغ الإمام الحسـين ذلك قال "لا حول ولا وقوة إلا بالله خذلتنا شيعتنا – ثم التفت إلى الـذين معـه جميعًا وقال لهم "من أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منـا مـلام" فتفرق عنه الناس. ولم يبق معه إلا أهله. وأولاد عمومته. ومـن لديـه صـلة قرابة. ولما تحرك بأهله وأقاربه. تقدم منه رجل وأمسك بلجام فرسه ثـم قـال "أنشدك الله لما انصرفت. ووالله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف. إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كما كتبوا أوفياء لكانوا في اسـتقبالك. ومهـدوا لـك الطريق. والتفوا من حولك ولكن وأنت على هذه الحال. فلا أرى لك أن تذهب إليهم. فقال الإمام الحسين رضي الله عنه– لا يخفي على ما ذكرت. ولكـن الله عزوجل لا يغلب على أمره" ثم نزل الإمام الحسين رضي الله عنه عنـد بلـدة تسمى "الخزيمية" وأقام بها يومًا وليلة وفي صباح اليوم التالي جاءته عقيلة بني هاشم "سيدتنا زينب رضي الله عنها" وقالت يا أخي سمعت الليلة هاتفًا يقول

ألا يـا عـين فـاحتفظي بجهـد
ومـن يبكـي علـى الشهداء بعـدي
علـى قـوم تسـوقهم المنايـا
بمقـدار إلـى إنجـاز وعـدي

فقال الإمام الحسين – يا أختاه – كل الذي قضي الله فهو كائن – كـان يعترض ركب الإمام الحسين رضي الله عنه قائد جيش يسمى "الحـرين يزيـد التميمي" ومعه ألف مقاتل – وقد منعه من التقدم – وقد حانت صلاة الظهـر – فأذن مؤذن الحسين – وأقيمت الصلاة. فقال الإمام الحسين رضي الله عنه لقائد الجيش "الحر" أتصلي بقومك. ونصلي معكم. فقال الحر – بل صلّ أنت ونصلي معكم" ثم كان الإمام الحسين رضي الله عنه يخطب في الناس ويذكرهم بقـول رسول الله صلى الله عليه وسلم "ومن رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحـرم الله. ناكثًا لعهد الله. مخالفًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان. فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقًا علـى الله أن يدخلـه مدخله" ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركـوا طاعـة الـرحمن – وأظهروا الفساد. وعطلوا الحدود. واستأثروا بالفئ وأحلوا ما حرم الله. وحرموا ما أحل الله. وأنا أحق من غيري. وقد أتتني كتبكم. ورسلكم ببيعتكم لي. وأنكم لا تسلموني. ولا تخذلوني. فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم. وأنا الحسين بن علي – ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى اله عيه وسلم. نفسي مـن نفسكم – وأهلي من أهلكم. فإن لم تفعلوا ونقضتم عهـدي. وخلعـتم بيعتـي. فلعمري ماهي لكم بنكير. لقد فعلتموها مع أبي وأخي. وابن عمي مسـلم بـن عقيل وغير ذلك كثير. فالمغرور من اغتربكم فحظكـم اخطـأتم. ونصـيبكم ضيعتم. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه. وسيغني الله عنكم" عقب الحر علـى ذلك بقوله "إني أذكرك الله في نفسك فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن. فـرد عليـه الحسين قائلاً. أبالموت تخوفني؟ وهل يعدوا بكم الخطب أن تقتلوني. وما أدري ما أقول لك – ثم أنشد

سأمضي وما بالموت عار على الفتى | إذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وواسى رجالا صالحين بنفسه | وخالف مثبورا وقاتل مجرما
فإن عشت لم أندم وإن مت لم ألم | كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

عاد الإمام الحسين رضي الله عنه – إلى أهله. ثم سار بهم ليلاً. وبينما هو على فرسه إذ خفق برأسه خفقة ثم انتبه. وهو يقول. إن لله وإنا إليه راجعون. والحمد لله رب العالمين" حدث ذلك مرتين – كان ابنه علي بن الحسين رضي الله عنهما يلحظ ما حدث فاقترب وقال له أبت جعلت فداك. سمعتك استرجعت وحمدت الله؟ قال عَنَّ لي فارس على فرسي – فقال – القوم يسيرون. والمنايا تسير إليهم. فعلمت أن أنفسنا نعيت إلينا. فقال – علي – يا أبت لا أراك الله سوءًا – ألسنا على الحق؟ قال الإمام بلى والذي يرجع إليه العباد – قال – علي – إذن لا نبالي أن نموت على الحق. قال الإمام جزاك الله من ولد عن والده خيرًا.

مواقف مؤلمة

يزيد بن معاوية بدأ في إرسال الجنود لتحيط بالإمام وتجبره على أن لا يتحرك حتى لا يهيج عليه الشعب. فتخير أربعة آلاف مقاتل من الشخصيات الميتة القلوب. المتحجرة العواطف. وتخير قائدًا عليهم "عمر بن سعد بن أبي وقاص" لكن ابن اخته "حمزة بن المغيرة" نصحه أن يتخلى عن قيادة الجند ولا يقبل أن يشترك في أي معركة ضد الإمام الحسين" وكان مما قاله "يا خالي أنشدك الله أن لا تسير إلى الحسين فتأثم. وتقطع رحمك. فوالله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك. خير لك من أن تلقى الله بدم الحسين.

فقال – أفعل – أخذ – عمر بن سعد – يفكر إنه موعود بإمارة "الري" وبات ليلة لم يرقد على جنبه ولم تغمض له عين. وسمع وهو يردد

فـــوالله مـــا أدرى وإنــــي لحـــائر
أفكــر في أمــري علـــى خطــرين

أأتـــرك ملــك الــري والــري رغــبتي
أم أرجــع مــذموما بقتــل حســين

وفــــي قتـــــله النـــــار الـتي ليـــس دونها
حجـــاب وملـــك الـــري قـــرة عيــــني

وأخيرًا استقر رأيه. فباع أخرته بإمارة الري. التي وعد بها بعد قتــل الإمام الحسين ولقد أراد الإمام الحسين رضي الله عنه أن يكتب إلى أهل الكوفة لأنه على مقربة منها فمنعه "عمر بن سعد" الذي كان قد صدرت إليه الأوامر أن يمنع الإمام الحسين من الاقتراب من الماء – هو ومن معه. وقد نادى جندي من جيش عمر – يا حسين – ألا تنظر إلى الماء كأنه كبد السماء فوالله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشًا. وكان الجندي يسمى "عبد الله بــن أبــي الحصــين الأزدي" فرد عله الإمام الحسين رضي الله عنه "اللهم اقتله عطشًا. ولا تغفر له أبدًا... وقد استجاب الله دعوة الإمام لأن الحصين مرض مرضًا شــديدًا فــإذا شرب الماء تقيأ. ثم يشرب فيتقيأ ويطلب الماء فلا يرويه فمات وهو عطشان.

اشتد العطش على الإمام الحسين رضي الله عنه. فكان من معه يملئون أي قربة بالقوة وتحت أسنة السيوف. والتهديد والوعيد. ولذلك حاول الإمام أن يقنع عمر بن سعد. بأن يترك كل واحد منهم الأمر ويخرجا إلى يزيد بن معاوية في دمشق. لعل اللقاء بين الإمام – ويزيد يصل إلى التفاهم. ويكون فــي ذلــك حقن الدماء – لكن عمر بعد نقاش – قال له دعني حتى اكتب إلى ابن زياد أمير الجند ليرى رأيه – فكتب عمر إلى ابن زياد رسالة قال فيها.

"إن الإمام الحسين عرض على أن يختار. ونوافقه على ما نريد.

الأولى – أن نتركه يرجع من البلد الذي جاء منه.

الثانية – أن يوجهوه إلى بلد يعيش فيه مع المسلمين يؤدي ما عليـه. ويأخـذ ماله.

الثالثة – أن يذهبوا به إلى يزيد بن معاوية – ويضع يده في يده. ويلزم الإمام الحسين أصحابه ببيعة يزيد.

ولقد روج أتباع يزيد البند الثالث. ونشـروا ذلـك فـي جميـع بـلاد المسلمين. ولقد ذكر المنصفون بأن البند الثالث لم يرد على لسان الإمام الحسين ولم يكتب به لا سرًا ولا جهرًا واستدلوا على ذلك بقول "عقبة بن سمعان" وهو من الذين رافقوا الإمام الحسين رضي الله عنه في كل تحركاته. وخرج معه إلى العراق حيث خذله أهل الكوفة. والعراق بل ومنعوا عنه الماء وعمن معـه – واشتد بهم العطش – يقول عقبة "صحبت الحسين في خروجه إلى العراق. ولم أفارقه حتى قتل. وسمعت جميع مخاطباته للناس إلى يوم مقتله. فوالله ما سمعت منه ولا من غيره أن أعطاهم ما أشاعوه بين الناس ولم يصرح ولم يصدر عنه أنه يوافق على أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية – أبدًا. ولم يطلب مـنهم أن يسيروه إلى أي بلد وإنما قال – ما دام أهل العراق خذلونا وأنكروا كتابتهم إلينا فدعونا نرجع إلى البلد الذي جئت منه. فعمر بن سعد كتب شيئًا لم يقله الإمـام الحسين. ثم إن الجيش الذي يحاصر آل البيت جميعًا. منعوا عنهم الماء – ولقد كان ابن زياد على وشك أن يقبل رأي الإمام – ويتركه يرجع إلى مكة – لولا أن تدخل شخص – هو الملعون "شمر بن ذي الجوشن" الذي قال لابن زيـاد – قائد الجند "أتقبل هذا منه. وقد نزل بأرضك وإلى جنبك – والله لئن رحل مـن بلادك ولم يضع يده في يدك – ليكونن أولى بالقوة منـك والمنعـة والعـزة.

ولتكونن أولى بالضعف والعجز. فلا تعطه طلبه فإن أعطيته فإن ذلك وهن منك وضعف. ولابد له أن ينزل على حكمك. هو وأصحابه. فإن عاقبت كنت ولي العقوبة. والله لقد بلغني أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين. فقال ابن زياد – نعم ما رأيت – وكتب ابن زياد كتابًا حمله "شمر بن ذي الجوشن" المنافق الملعون – وفحوى الكتاب "يقول ابن زياد" القائد العام "لعمر بن سعد" قائد الجند الذين يحاصرون الإمام في كربلاء – من العراق "يقول ابن زياد – لعمر – إني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه. ولا لتمنيه. ولا لتقعد معه. أنظر فإن نزل الحسين وأصحابه على رأيك واستسلموا فابعث بهم إلي سلمًا. وإن أبوا فارجف إليهم حتى تقاتلهم وتمثل بهم. فإنهم لذلك مستحقون. فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره. فإنه عاق قاطع للرحم ظلوم. هذا رأيهم "وأخزاهم الله في الدنيا والآخرة" فإن أنت مضيت لأمرنا. جزيناك جزاء السامع المطيع. وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا. وخل بين شمر. وبين العسكر. والسلام.

خطاب يحمل الموت بين كلماته صادر من جاحد ملعون – إلى – مطرود من رحمة الله. ملعون, حمله – منافق ملعون مطرود من رحمة الله. والكل يتآمر وهدفهم الحصول على الأموال – من – يزيد بن معاوية – الفاسق الماجن الذي لم يرع حرمة الله. ولم يحافظ على أهل البيت وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس. وطهرهم تطهيرا. كما أن الوحي نزل من علياء السماء في بيوتهم يشهد لهم بالخير وقد شبههم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم كسفينة نوح من تعلق بها نجى وقال الوحي لنا معبراً عن قول رسولنا صلى الله عليه

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[٢٨٢]

(٢٨٢) سورة الشورى ٢٣.

ولما وصل "شمر بن ذي جوشن" بخطاب ابن زياد – إلى عمر بن سعد فلما قرأه قال – يخاطب شمر "قبح الله ما جئت به. والله إني لأظن أنك السبب وراء ما كتب. فأفسدت علينا أمرًا كنا نرجو أن يصلح به الله الأمور ولن يستسلم الحسين أبدًا.. والله إن نفس أبيه لبين جنبيه"

كان شمر قد دعا العباس وهو من أولاد الإمام علي كرم الله وجهه – وهو أخو الإمام الحسين من أب. وشمر خالهم. وقال "شمر للعباس وإخوته أنتم آمنون يابني أختى – فقالوا له. لعنك الله. ولعن أمانتك. أتؤمننا لأنك خالٌ لنا. وابن بنت رسول الله الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم "حسين مني وأنا من حسين" لا أمان له) – قبحك الله من خال – وسمع أحد الشباب وهو يقول – أنا لي خال خيالي – كرمه على حرام وكرم الغير يحلالي. وحيات مقام النبي أبو مقام عالي. ميخون العيش إلا الصاحب الغالي.

كانت الرسائل والرسل بين الإمام وبين عمر بن سعد – متبادلة. وكانت الأيام تجري – في اليوم الثامن من شهر الله المحرم. بعد صلاة العصر سمعت السيدة الأمينة عقيلة بني هاشم زينب. أخت الإمام. سمعت ضجة. أقدام خيل – قادمة من بعيد. فأسرعت إلى أخيها الإمام العظيم الحسين بن علي رضي الله عنهم جميعًا. وقد كان يجلس أمام مخيمه محتبيًا سيفه – وقد خفق برأسه على ركبتيه. فدنت وأيقظته. فرفع رأسه. وقال لها "إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام. فقال لي "إنك تروح إلينا" فصاحت "ياويلتاه" فقال لها – ليس لك الويل يا أخيَّة. اسكتي رحمك الله" جاء ركب "عمر بن سعد" ودارت مفاوضات – مع العباس – أخ الإمام – وقال عمر بن سعد جاءنا الأمر – إما أن تستسلموا. وإما الحرب. فقال العباس "لا تستعجلوا وارجعوا حتى أعرض الأمر على أبي عبد الله – فأعرض عليه ما ذكرتم". فوافقوا – وتأجلت المفاوضات إلى غد – إن شاء الله – ٩ – محرم – جمع الإمام الحسين كرم الله وجه أبيه ورضي عنهم أجمعين. كل من جاء معه. وأهل بيته وإخوته وأبناؤهم

وأبناء عمومته. وقال لهم – بعد مقدمة طويلة – فإني لا أعلم أصحابًا أوفى ولا أخير منكم. ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتي. فجزاكم الله جميعًا عني خيرًا. ألا وإني لا أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدًا. ألا وإني قد أذنت لكم جميعًا. فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام. وفي هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه سترًا. وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي. ثم تفرقوا في البلاد – وجزاكم الله عنا جميعًا خيرًا. فإن القوم يطلبونني فإن أصابوني لهوا بي عن طلب غيري" فتكلم القوم: وقالوا – لن نفعل هذا أبدًا. ولا أرانا الله ذلك أبدًا – فقال الإمام – يا بني عقيل. حسبكم من القتل "مسلم بن عقيل" اذهبوا فقد أذنت لكم فقالوا. وما نقول للناس؟ نقول. تركنا شيخنا وسيدنا. وبني عمومتنا خير الأعمام ولم نرم معهم بسهم. ولم نرم برمح. ولم نطعن أو نضرب بسيف. ولا ندري ما صنعوا لا والله لا نفعل ذلك أبدًا. ولكنا نفديك بأنفسنا وأهلينا وأموالنا. ونقاتل معك حتى نرد موردك. فقبح الله العيش بعدك. كان الحزن يعتصر الإمام فقام إليه "مسلم بن عوسجه" وقال له. أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله في أداء حقنا. أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي – والله لو لم يكن معي سلاحي. لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت. وتكلم الجميع بنحو هذا....

وفي ليلة العاشر من المحرم سمعت سيدتنا زينب رضي الله عنها في منتصف الليل الإمام الحسين وهو في خباه – يمسك بسيفه ويقول.

يا دهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل

وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حي سالك السبيل

فلما سمعت شقيقة الروح العقيلة الهاشمية. وهي امرأة ومن شأن النساء رقة الطبع. وسمو العواطف. سريعة الجزع. لم تملك نفسها ووثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس. حتى انتهت إليه – وقالت. يا أخي. هذا كلام من أيقن بالقتل؟ قال – نعم يا أختاه. فصاحت – واثكلاه. ليت الموت أعدمني الحياة حتى لا أشهد هذا اليوم. يا حسيناه. يا سيد القوم. يا بقية أهل بيت النبوة – خذلك أهل العراق. واستقتلت حتى يئست من الحياة اليوم مات جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم – اليوم ماتت أمي فاطمة الزهراء. واليوم مات أبي علي بن أبي طالب. واليوم مات أخي الحسن. يا خليفة الماضي. وغياث الباقي فنظر إليها الإمام بعيون مليئة بالدموع. ولغة الواثق بالله. المؤمل في نصره. ومع دموع العيون بسمة أمل عريضة. على الشفاه.. فنظر إليها وقال لها – "يا أخية لا يذهبن بحلمك الشيطان – يا أخية. تعزي بعزاء الله. واعلمي أن أهل الأرض يموتون. وأهل السموات لا يبقون. وكل شيء هالك إلا وجه الله الذي خلق الخلق بقدرته ويميتهم بإرادته. ويبعثهم بمشيئته. ويحاسبهم على أعمالهم بقدرته وعظمته. وهو في كل شيء واحد أحد فرد صمد لا شريك له. ولا سلطان لأحد عليه يفعل ما يشاء. وهو القوي العزيز.. جدي خير جد – وأبي خير أب. وأخي خير أخ وخير مني. ولي ولكم ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة" فقالت عقيلة بني هاشم "يا ويلتاه – افتغتصب نفسك اغتصابا – ثم قالت – يا أخي الحسين. يا قرة العين – ويا رمز البطولة والجهاد. ويا خيرة الماضين – بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبي وأمي أنت الأمل المدخر. يا أيها الحبيب الذي لم يبق لي غيره. لا تقطع كبدي وتدميه. وتبكي عيني أبق لي وللمسلمين رمز وفاء. لا تموتن. لا تنزعن فؤادي. وتحرقن حشاشتي" كانت تتكلم ودموعها تسبق لسانها ويبكي حولها سائر النساء. ومن شدة الألم على نفسها خرت مغشيًا عليها. فصبوا على وجهها الماء حتى

فاقت من غشيتها.. فقال لها الإمام – يا أخية إني أقسمت عليك فأبري قســمي. ولا تشقي على جيبا ولا تخمشي على وجها. ولا تدعي بالويل والثبور. إذا أنا استشهدت. فردت عليه لأهلكن دونك يا عترة النبي. ويازهرة البيــت النبــوي الكريم. ثم خرج الإمام إلى أصحابه. فأمرهم. أن يقربوا بيوتهم من بعض. وأن يدخلوا الحبال في بعضها. وأن يكونوا بين البيوت ليستقبلوا القوم من وجه واحد – ووصى أصحابه. ثم دخل إلى خيمته يصلي ويستغفر. ويصلى علــي جــده. وتضرع إلى الله. وأصحابه كذلك. ثم استقبل أصحابه بعد صلاة الفجر وقــال لهم. "قد نزل من الأمر ما ترون. وإن الدنيا قــد تغيــرت وتنكــرت. وأدبــر معروفها. وانتشر المنكر حتى لم يبق منها إلا كصبات الإناء ألا ترون الحق لا يعمل به. والباطل لا يتناهي عنه. ليرغب المؤمن في لقاء الله عزوجل. وإنــي أرى الموت سعادة. ولا أرى الحياة مع الظالمين إلا ضجرا".

إحساس بالظلم

إذا شعر الإنسان بالظلم فإن النوم يجافيه. لذلك قضي أهل البيت ليلــة ليلاء – صلوا فجرها بوضوء العشاء – وأمضى المؤمنون جميعًا لم تغمض لهم عين, والعقيلة الطاهرة سيدتنا زينب شاردة بفكرها ترسل عينيها وهي في جمود إلى الظلام المخيم على الصحراء. فإذا ارتد إليها وعيها قامت فطافت بمضاجع بنيها وإخوتها تتزود بالنظر إليهم لفراق يطول – كان الإمام الحسين رضي الله عنه ينظر إلى جيشه الذي يتكون من ثلاثين فارسًا وأربعين رجلاً – لأن الإمام رضي الله عنه. اعتمد على مئات الآلاف من الرسائل التي وصلت إليه من أهل الكوفة – والعراق – لكنهم نقضوا عهدهم وكذبوا. وخانوا الوعد وأخلفوه..

في صباح اليوم العاشر من المحرم – تقدم – عمر بن سعد – مع جيش يزيد على الأربعة آلاف مقاتل – لقد أرسل ابن زياد هذا العدد – وهو يعلم عدد من مع الإمام الذي خرج وهو واثق من نصر الله – إما الشهادة – وهذا ما يتمناه كل مسلم. وإما النصر. ولذلك كان يردد

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
إذا ما نوي حقا وجاهد مسلما
وآسى رجالا صالحين بنفسه
وخالف مثبورا وفارق مجرما

وقف الإمام الحسين رضي الله عنه. ورفع عينيه ويديه إلى السماء داعيًا ربه بقوله "اللهم أنت ثقتي في كل كرب. ورجائي في كل شدة. وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من هم يضعف فيه الفؤاد. وتقل فيه الحيلة. ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو. أنزلته بك. وشكوته إليك. رغبة مني إليك عمن سواك. ففرجته وكشفته. فأنت ولي كل نعمة. وصاحب كل حسنة. ومنتهى كل رغبة وما كان يظن أعداء الإمام إنهم سوف يواجهون شجاعة كشجاعة الإمام فليس له نظير. ثبات. وإقدام. وقلب ثابت. ومن حوله العديد القليل جدًا لكنهم فرسان. منتهى آمالهم. الاستشهاد رغبة فيما أعده الله للشهداء والذين يدافعون عن الحق. وقدوتهم الإمام العظيم – الحسين رضي الله عنه. أما جيش النفاق والسفهاء فهم يقاتلون طمعًا فيما عند السلطان...

أمر الإمام الحسين رضي الله عنه. بإشعال النار في الحطب. فلما رأى ذلك. الفاجر الملعون شمر بن ذي الجوشن النار. نادى على الإمام رضي الله عنه قائلاً. تعجلت نارك في الدنيا عرف الإمام الحسين رضي الله عنه صوته. فرد عليه "أنت أولى بها صليًا". ثم نادى الإمام الحسين رضي الله بصوت يسمعه كل الناس فقال "تبًا لكم أيها الجماعة. أحين استصرختمونا والهين. لبينا صرختكم. فلما جئنا إليكم سللتم علينا سيوفكم. وأشعلتم علينا نارًا كان الأولى أن

تؤجحوها على عدوكم. فأصبحتم جمعًا على أوليائكم. ويدًا عليهم مـع عـدوكم لغير عدل أفشوه لكم. ولا أمل أصبح لكم فيهم. فهلا – لكم الويـل. تركتمونـا نرحل. فبعدًا لكم وسخطًا لطوا غيث قومكم شذاذ الأحزاب. ونبذة الكتاب الذين جعلوا القرآن عضين. ولبئس ما قدمت لهم ولكم أنفسكم أن سـخط الله علـيهم وعليكم في العذاب كلكم مخلدون ثم قال بعد كلام كثير. أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا في حتى أعظم بما يجب لكم علي. وحتى اعتذر إليكم من مقـدمي عليكم. فإن قبلتم عذري. بعد سماع قولي وأنصفتموني كنتم بذلك أسعد. ولم يكن لكم عليّ سبيل. وإن لم تقبلوا منى العذر فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكـن أمركم عليكم غمة. ثم أقضوا إلي ولا تنظرون ثم قال "ألا وإني زاحـف بهـذه الأسرة مع قلة العدد وكثرت العدو – وخذلة الناصر. ثم لا تلبثون إلا بقدر مـا يركب الفارس حتى تدور بكم دورة الرحى. وتقلقون قلق المحور. عهد عهـده إلى أبي عن جـدي ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾[٢٨٣] فلما سمع أخوته وبناتـه قولـه – صـحن وبكـين وارتفعـت أصواتهن. فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه عليا – ليسكتهن – وقال – لعمري – لسوف يكثر بكاؤهن – فلما سكتن – قال – "أيها الناس. انسبوني– فقولوا مـن أنا؟ ثم راجعوا أنفسكم. فعاتبوها. وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي. ألست ابن بنت نبيكم وابن عمه. و وصيه. وزوج ابنته. وابن أولي المؤمنين من أنفسهم. والمصدق لرسوله – أوليس "حمزة" سيد الشهداء عم أبي. أوليس جعفر الطيار – الشهيد عمي – أولم يبلغكم القول المستفيض عن جدي خاتم المرسلين محمد بن عبد الله رسول رب العالمين قال لي ولأخي "أنتما سيدا شـباب أهـل الجنة. وقرة عين أهل السنة. فإن صدقتموني. بما أقول فهو الحـق. ووالله مـا

---

(٢٨٣) سورة الأعراف ١٩٦.

تعمدت كذبًا منذ علمت أن الله يمقت عليه أهله. وإن كذبتموني فإن فيكم من إذا سألتموهم عن ذلك أخبروكم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري. أو. سهل بن سعد الساعدي أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أما في هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمي وانتهاك حرمتي" قال شمر بن ذي الجوشن الملعون – تقول هذا لمن كان يدري ما تقول – فرد عليه "حبيب بن مظاهر" وقال والله إني أراك تعبد الله على سبعين حرفًا. وأن الله قد طبع على قلبك فلا تدري ما تقول ولا ما تسمع فقطع الإمام الحسين كلامهما وقال – فإن كنتم في شك مما أقول. أو تشكون في أني ابن بنت نبيكم. ووالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم. أخبروني أتطلبونني بمال – أو بدم قتيل قتلته – أو قصاص عن جراحه؟ سكتوا ولم يرد منهم أحد. ثم نادى الإمام على أشخاص بأعينهم من زعماء أهل الكوفة – والعراق – وقال لهم "ألم تبعثوا إلي بكتبكم وترسلوا لي برسلكم أن أقدم عليكم؟ قالوا – لم نفعل – قال كتبكم شاهدة عليكم. ومن أرسلتموهم أحياء بينكم. سكتوا. فقال – فإذ قد كرهتموني فدعوني أنصرف إلى مأمني من الأرض فقال – قيس بن الأشعث – لابد أن تنزل على حكم ابن زياد. فإنك لن ترى إلا ما نحب – فقال الإمام الحسين لقيس بن الأشعث – أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم "مسلم بن عقيل" لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل. وإني عذت بربي أن ترجمون. أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب" بعد ذلك برز رجل من جند الإمام الحسين رضي الله عنه يسمى "زهير بن القين" على فرس له في السلاح صنعته وبيده قوسه. وقال يوجه كلامه إلى جند "عبيد الله بن زياد" يا أهل الكوفة. نذار, لكم من عذاب الله نذار إن حقا على المسلم نصيحة المسلم. ونحن الآن إخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف. وأنتم للنصيحة منا أهل. فإذا وقع السيف انقطعت العصمة

وكنا نحن أمة. وأنتم أمة. إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه و سلم لينظر ما نحن وأنتم فاعلون معهم. إنا ندعوكم إلى نصرة الحسين. وخذلان الطاغية ابن الطاغية "عُبيد الله بن زياد" فإنكم لا تدركون منه ومن غيره ممن على شاكلته إلا السوء فهم سوف يسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم. ويمثلان بكم. ويعلقانكم على جذوع النخل. ويقتلان أماثلكم وقراءكم" فصاح أهل الكوفة وسبوه وأثنوا على ابن زياد عليه اللعنة. وقال أهل الكوفة. والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك "يقصدون الإمام الحسين رضي الله عنه" ونقتل من معه. أو نبعث به وأصحابه إلى الأمير "ابن زياد" قال "زهير بن القين" من جيش الإمام الحسين رضي الله عنه – يا أهل الكوفة. إن ولد فاطمة الزهراء رضوان الله عليها – أحق بالود منكم والنصر – من ابن سمية "يقصد ابن زياد" فإن كنتم لم تنصروه. فأعيذكم بالله من أن تقتلوه وأصحابه. خلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية. فلعمري أن يزيد بن معاوية ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين".

وقام شمر بن ذي الجوشن يرمي – زهيراً – بسهم – فأخطأه. فقال ابن ذي الجوشن – لعنه الله وقال – سأحاول أن أسكتك لقد أبرمتنا بكثرة كلامك. فرد زهير – رضي الله عنه وقال لشمر "أيا ابن البوال على عقبيه – ماإياك أخاطب إنما أنت بهيمة. والله ما أظنك تحفظ من كتاب الله آيتين. وأبشر بالخزي يوم القيامة. والعذاب الأليم. فقال – شمر الملعون– إن الله قاتلك وصاحبك من ساعة فرد زهير. رضي الله عنه – أبالموت تخوفني؟ والله للموت مع الحسين أحب إلي من الخلد معكم وملك الدنيا. ثم – قال. يا أهل الكوفة – لايغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي. فوالله لا ينال شفاعة محمد قومًا أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته. وقتلوا من نصروهم ودافع عن أعراضهم وحمى حريمهم – ثم اتجه إلى الإمام الحسين رضي الله عنه. وقال والله لوددت أني

قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل أكثر من ألف مرة بين يديك. ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك. وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك, شجاعة في الحق. وبطولة نادرة. وإيمان بالحق. كل ذلك – والعقيلة الطاهرة تشهد هذه المواقف. وقلبها ينفطر على أهل بيتها وفي مقدمتهم الإمام. وقد أنهكهم العطش. والعدو يحيط بهم. وليس هناك تكافؤ في العدد البشري والعدة القتالية – فالإمام ومن معه لايزيد عددهم عن الاثنين والسبعين مقاتلاً– بينما جيش العدو يزيد عن الأربعة ألف مقاتل وعندما تحرك جيش عمر بن سعد. تقدم "الحر بن زياد" وهو الذي وقف في وجه الإمام. وضيق عليه الطرق. وأجبره أن ينزل بعيدًا عن الماء وبعيدًا عن القرى يعنى في الصحراء. وهو جندي شجاع من جنود – عدو الإمام – لكنه – بعد أن سمع هذا الحوار الذي دار مع السيد/ الإمام – الحسين بن علي – رضي الله عنهم جميعًا – استيقظ ضميره فجأة وإذا بالحر – يتقدم من عمر وقال الحر– أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال – عمر – أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس. فقال الحر– أفلا تقبلون واحدة من الخصال التي عرضها عليكم؟ قال – عمر – لو كان الأمر بيدي لقبلت. ولكن أميرك أبى ذلك. وعلى الفور تحرك "الحر" بفرسه واتجه إلى الإمام وما أن تقدم منه حتى أخذته رعْدة – فقال له رجل من قومه هو "المهاجر بن أوس" والله ما رأيت منك في موقف قط. مثل ما أراه الآن. ولو قيل من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك" – فقال الحر – "إني والله خيرت نفسي بين الجنة والنار – ولا أختار على الجنة شيئًا. ولو قطعت وحرقت" ثم اقترب من الإمام الحسين رضي الله عنه – ووقف وقال – "جعلني الله فداك يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم – وأنا الذي حبستك عن الرجوع – وسايرتك في الطريق. وحبستك في هذا المكان. ووالذي لا إله غيره. ما ظننت أن القوم يردّون عليك ما عرضت عليهم – ولا يبلغون منك هذه المنزلة. أبدًا. فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع

القوم في بعض أمرهم. ولا يرون أني خرجت من طاعتهم. وأما هم فيقبلــون بعض ما تدعوهم إليه – ووالله ما ظننت أنهم لا يقبلونها منك وإني قــد جئتــك تائبًا. مما كان مني – مواسيًا لك بنفسي حتى أموت بين يديك. أفترى ذلك توبة. ويغفر الله لي؟ فرد الإمام – يتوب الله عليكم ويغفر لكم" واســأل الله أن يقبــل توبتك" انصرف "الحر بن يزيد" واتجه إلى قومه "أهل الكوفة" وقال لهم "يا أهل الكوفة – لأمكم الهبل والعبر – أدعوتم الإمام حتى إذا جــاءكم – أســلمتموه. وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه – ثم انقلبتم عليه لتقتلــوه. أمســكتم بنفســه. وأحطتم به. ومنعتموه الماء. ولم تتركوه حتى يتوجه إلى البلد الذي جاء منه. أو بلد أخرى حتى يأمن على نفسه ويأمن معه أهل بيته. فأصبح كالأسير لا يملك لنفسه نفعًا. ولا يدفع عن نفسه ضرًا. ومنعتموه ومن معه مــن مــاء الفــرات الجاري. والذي يشرب منه اليهودي والنصراني والمجوس. ويتمرغ فيه خنازير السواد – وكلابه – وها هو وأهله قد هدهم العطش وصرعتهم حرارة الشمس. بئسما خلفتم محمداً صلى الله عليه وسلم في ذريته لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم فيه....

كان أهل الكوفة يسمعون – وهم لاهون – وما أن انتهى الحــر مــن كلامه. حتى رموه بالنبل – فرجع الحر – ووقف أمام الإمام – بينمــا تقــدم – عمر بن سعد. وأخذ سهمًا ورمى به قبل الإمام ثم قال لجيشه اشهدوا أنــي أول رام. فقال الإمام الحسين رضي الله عنه – لقد اشتد غضب الله على اليهود. إذ جعلوا لله ولدًا. وعلى النصارى إذا جعلوه ثالث ثلاثة. وعلى المجوس. إذ عبدوا الشمس والقمر. واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبــيهم. والله لا أجيبهم إلى شيء مما يطلبون. حتى ألقي الله تعالى وأنا مخضــب بــدم مغلوب على أمري. وبدأت الأحداث تظهر بالغة القســوة والضــراوة. وغيــر متكافئة في العدد والعدة. وأقبل الرجال يحملون الرماح والنبل والسيوف. ولقــد

خرج من صفوف الأعداء مقاتل يقال له "ابن حوزة" ونـادى قـائلا – أفـيكم الحسين–؟ فلم يجبه أحد. فرددها ثلاثًا – فقالوا نعم. فينا الحسين – فما حاجتك؟ قال ابن حوزة ياحسين أبشر بالنار – فقال له. كذبت. بل أقدم على رب كـريم رحيم. فمن أنت؟ قال ابن حوزة – فرفع الحسين يديه وقال – اللهم عذبه فـي الدنيا – وادفع به في الآخرة إلى نار جهنم. فغضب ابن حوزة ودفع بفرسه إلى النهر فاقتحمه. وقد شهر سيفه. فانتفض الفرس فسقط ابن حوزة – وتعلقت قدمه بالركاب. وجالت به الفرس فسقط عنها. فانقطعت فخذه وساقه. وبقي جنبه معلقًا بالركاب. والفرس يجري به فيتخبط في الحجر ويرتطم بالأشجار حتى مات بعد فترة طويلة.. رأى الناس هذا المنظر حتى قال "مسروق بن وائل الحضـرمي" وكان يفكر كيف يصل إلى الإمام الحسين رضي الله عنه. وفي نيته أن يقتلـه ويحمل رأس الإمام – إلى ابن زياد – عليه اللعنة ليصـيب منزلـة. ويحظـى بمكافأة مالية. فلما رأى ما حدث لابن حوزة بسبب دعاء الإمام الحسين رضي الله عنه تراجع عن رأيه. وقال. لقد رأيت من أهل البيت شيئًا. فلن أقاتلهم أبدًا. وأهل الكوفة والعراق رأوا ذلك ولكنهم لم يتعظوا. . ثم دارت المعركة بالغـة القسوة ويحتدم القتال. وكان أصحاب الإمام يتساقطون أمام عينيه. ونزل الإمام الحسين رضي الله عنه إلى المعركة. بطلاً مغوارًا وفارسًا لا يشق له غبـار. يضرب بسيفه على الرؤوس فتتساقط وعلى الهامات فتنحنى. ولم يظن أعـداء الإمام رضي الله عنه أنه بهذه البسالة والشجاعة ولم يدر بعقولهم أنهم سـوف يواجهونه وهو بهذه الجرأة والإقدام وهذه الشجاعة المنقطعة النظير– ولكن ماذا تنفع الشجاعة وحدها مع الكثرة في العدد– والقوة في العدة والسلاح– نقف مع المرحوم الأستاذ / عباس العقاد/ وهو يصف أعداء الإمام الحسين رضـي الله عنه ويحلل شخصية بعض القيادات (بأنهم – جلادين وكلاب طراد لصيد كبير وكانوا في خلائقهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه الطعمة مـن النـاس.

ونعنى به مثال المسخاء المشوهين. أولئك الذين تمتلئ قلوبهم بالحقد على أبناء آدم ولاسيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة، فإذا بهم يفرغون حقدهم في عدائه وإن لم ينتفعوا بأجر وغنيمة فإذا انتفعوا بالأجر والغنيمة. فذاك هو حقد الضراوة الذي لا تعرف له حدود، وشر هؤلاء جميعًا هم. شمر بن ذي الجوشن، ومسلم بن عقبة، وعبيد الله بن زياد، ويلحق بزمرتهم على مثال قريب منهم. عمر بن سعد، فأما – شمر بن ذي الجوشن – وهو الـذي قتـل الإمـام الحسين رضي الله عنه. والقاتل باء بغضب من الله – كان أبـرص – كريـه المنظر. قبيح الصورة. كان يتمسك بالمذهب الخارجي "الخوارج ليجعله حجـة يحارب بها الإمام عليا كرم الله وجهه وابنيه. رضي الله عنهم. كان يتخذ الدين حجة للحقد. ثم ينسى الدين والحقد في حضرة المال، ومسلم بن عقبة. مخلوق مسمم الطبيعة في مسلاخ إنسان وكان– أعور. أبخر – ثائر الرأس. كأنما يقلع رجلين من وحل إذا مشي. وقد بلغ من ضراوته بالشر كأنه معجون منه. وهو شيخ تقدم به العمر مريض. أباح مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثـة أيام واستعرض أهلها بالسيف جزرا. كما يجزر القصاب الغنم حتـى سـاخت الأقدام في الدم. وقتل أبناء المهاجرين والأنصار. وذرية أهل بدر وأخذ البيعـة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه، من الصحابة والتابعين وقد استباح ذلـك على أنه عبد قن لأمير المؤمنين....

أما – عبيد الله بن زياد. فكان متهم النسب في قريش. لأن أبـاه زيـاد كان مجهول النسب. ولم يعرف له أب – فكانوا يسمونه زياد بن أبيه ثم ألحقـه معاوية بأبيه سفيان. فقد ظهر نبوغ زياد في الحرب والمكر والدسائس فضـمه معاوية إلى أسرته لينتفع به وزعم أن أبا سفيان قد سكر ليلة بالطائف. فالتمسوا له بغيًا. فجاؤوه بجارية تدعى سمية. فقالت له بعد مولد زياد بأنها حملت به في

تلك الليلة. وأما أم عُبيد الله بن زياد الحقيقية- فكانت جارية مجوسية تدعى مرجانة - فكانوا يعيرونه بها...

هؤلاء هم أمراء جيش النفاق - الذين جندهم "يزيد بن معاوية" لقتل الإمام العظيم سيدنا الحسين رضي الله عنه - الذي وجد من أهل الكوفة - الخسة. والنذالة والخيانة والغدر، ويصورهم العقاد بقوله "وهكذا كان ليزيد أعوان إذا بلغ أحدهم حده في معونته. فهو جلاد، مبذول السيف. والسوط في سبيل المال" قلوبهم معلقة بالدنيا. ولذلك حرموا الإمام الحسين رضي الله عنه ومعه صحبه وأهل بيته. منع عنهم أهل الكوفة الماء. الذي جعل الله منه كل شيء حي.

لذلك ارتفعت أصوات الأطفال والصغار بالبكاء طلبًا للماء. ولكن ماذا يجدي ذلك البكاء وتلك الأصوات الملهوفة مع قوم ختم الله على قلوبهم. وجعل على سمعهم وأبصارهم غشاوة. فكانوا متجردين من كل معنى للإنسانية. لقد رموا عبد الله بن الحسين - رضي الله عنه. بسهم وهو بين يدي أبيه يبكي طلبًا للماء. فناداهم الإمام رضي الله عنه "اتقوا الله في الطفل إن لم تتقوا الله فينا" تقدم الإمام الحسين رضي الله عنه إلى نهر الفرات ليروي ظمأه ويحضر معه للأطفال الصغار مايرويهم فقام الملعون "حصين بن نمير. ورما الإمام بسهم أصاب فمه الشريف فانتزع السهم. وتدفق دمه الذكي. فشخص ببصره إلى السماء. يشكو إلى السميع البصير - ظلم العباد - بعد غدرهم به وقال يناجي ربه "اللهم إن كنت حبست عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه وانتقم لنا من القوم الظالمين" وقد اشتد القتال. وتتابعت السهام وهاجمت الخيالة معسكر الإمام. ويحتدم القتال، ويبرز "علي بن الحسين رضي الله عنه" الأكبر وهو لم يصل إلى العشرين من العمر. وصاح بأعلى صوته

أنــا علـــي بـــن الحســـين بـــن علـــي
نحـــــن ورب البيـــــت أولى بـــــالنبي
تـــاللــــه لا يحــــكم فينــــا ابــــن
الدعـــــي

وكان يقاتل بشجاعة منقطعة النظير، وتتكاثر عليه السيوف حتى وقــع على الأرض مثخنًا بالجراح. وأسرع إليه الإمام الحسين رضي الله عنه فيحمله إلى الخيمة حيث عمته الشريفة الطاهرة زينب. وهي التي كانت تــرى ابــن أخيها ينبض بالحيوية ويمتلئ جسده قوة. وتتوثب روحه شجاعة وإقداماً. وهــا هو بين يديها – جثة هامدة مزقتها السيوف. فتبكي بكاءًا حارًا. وخاصة أنهــا رأت أهل الكوفة. قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة هذه القلــوب التـــي لا تــرحم ضعيفًا، ولا تعرف الرحمة، أي قلوب هذه. ومن أي طينة خلقت. لقد سمعوا – علي بن الحسين – الذي كان يقاتل من الصباح لبعد الظهر. وقتل جمعًا كثيــرًا من عدو أبيه. سمعوه وهو يقول. قتلني العطش وأضعفني. فبكى الإمام الحسين. وقال. وغوثاه. صبرًا يا ولدي فسوف تلتقي بجدك محمد صلى الله عليه وســلم ويسقيك بكأسه الأوفى.

بينما الإمام في الحديث مع ولده إذ تقدم الملعون "منقذ العبدي" فطعنــه طعنة صرعته. فرأى الإمام الحسين رضي الله عنه مصرع ولده، وقد أقبلــت السيوف من كل صوب تطعنه. فقال الإمام "قتل الله قومًا قتلوك يا بنـــي. مــا أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة رسوله. على الدنيا بعدك يا ولدي العفاء" وأقبل الإمام على ولده. ومن حوله بقية أهله. فقال لهم "أحملوا أخاكم" وقد قتلت – أم علي – زوجة الإمام – ليلى بنت أبي مرة بن عروة بن مســعود الثقفيــه أصابتها رمية من يد فاسق ملعون– وقد بدأ الرجال يتساقطون حــول الإمــام الحسين رضي الله عنه بعد أن دافعوا عنه دفاعًا كبد العدو الكثير من القتلـــى .

حتى بقى الإمام الحسين رضي الله عنه وحده يدافع عن نفسه. وكان الأعداء يهابون ويخافون الاقتراب من الإمام. فمن رآه فر من أمامه، لأنهم جبناء خونة غدروا بالإمام واشتروا الدنيا, أما الإمام الحسين البطل الشجاع فكان يردد (القتل أولى من ركوب العار – والعار أولى من دخول النار)

كان اللعين "شمرّ بن ذي الجوشن يحرض على قتل الإمام. ويدفع بالناس ليحيطوا به من كل جانب. فإذا اقترب منهم تفرقوا وابتعدوا عنه، ولقد خرجت العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضي الله عنها وهي تقول ليت السماء انطبقت على الأرض. ولم أر ما أرى, كان عمر بن سعد يسمع كلام الطاهرة. وهو قائد الجيش الذي يتربص بالإمام. فقالت له – يا عمر – أيقتل أبو عبد الله. وأنت تنظر؟ فدمعت عنياه وسالت دموعه على خديه ولحيته، وصرف وجهه عنها، لماذا لم يرق قلبه لأنه طمعان في منصب ومال. فختم الله على قلبه. وظل الإمام يقاتل ببسالة. وهو يردد – أعلى قتلي تجتمعون؟ أما والله لا تقتلون بعدي عبدًا من عباد الله. يكون أسخط عليكم لقتله مني، وايم الله إني لأرجو أن يكرمني الله بهوانكم. ثم ينتقم منكم لي من حيث لا تشعرون. أما والله لو قاتلتموني سيجعل الله بأسكم بينكم. وسفك دمائكم، ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب" ولكم أن تتصوروا "سيدتنا زينب رضي الله عنها. تتابع خطوات الإمام الحسين رضي الله عنه. وترسل بصرها في الأفق البعيد. والشمس تميل للغروب بعد نهار طويل. كل لحظة فيه حزن على استشهاد شخص من آل البيت النبوي الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. ثم تنظر إلى المعركة. فترى شقيقها الإمام العظيم الحسين رضي الله عنه وقد عرفته. قوي الإيمان. عظيم الثقة في ربه. زاهدًا في الدنيا. ورعًا تقيًا – قوام الليل صوام النهار – عابدًا لربه – محبًا لجده النبي المصطفى الأمين. ندي اليد كريم العطاء. طيب القلب. لا يعرف الخداع. لا تأخذه في الحق لومة لائم. هذا

الإمام – العزيز – الغالي – الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم "أنا من حسين. وحسين مني" ترى السيدة الصابرة شقيقها هـذا وهـو يقاتـل وحـده. وبضراوة وشجاعة. والمعركة بالغة القسوة. لكن الحبيب الغـالي شـقيق روح الطاهرة– شجاع مغوار. فارس لا يشق له غبار. وماكان يظن أعداؤه أنه بهذه الشجاعة. وأوشكت الشمس أن تغيب بعد قتال مرير والإمام الحسين. وحـده. يقاتل بشجاعة نادرة. وقد استشهد جميع من معه – وليس إلا الأطفال الصـغار الذين لايقدرون على حمل السلاح– والسيدة زينب. وتكالب عليه الأعداء. الذين كتبوا إليه. وخدعوه بتوسلاتهم ورجائهم. ثم خانوه. وقد سـقط علـى الأرض وتكاثرت عليه السيوف. والرماح يرمون بها من كل جانب. إلـى أن فاضـت روحه الطاهرة تشكو إلى الله ظلم هؤلاء الناس – كلاب السـلطة – وطـلاب المنافع – والباحثون عن المال والمنصب الذين يلعقون الأحذية – ذلاً وخسـةً. وهواناً. لقد أعلنوا عداءهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم لـم يحاربوا الإمام محاربة شريفة. يتبعون فيها تقاليد الحرب كما بينها رسـول الله صلى الله عليه وسلم. لقد نهى عن الإجهاز على جريح. أو تمثيل بالأجساد كما نهى عن قتل الأطفال. ومنع الماء. ولكن طلاب المناصب والمال لايعرفون إلا الخسة والفجور لبئس مافعلوا. فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين – لقـد رأت سيدتنا زينب رضي الله عنها – الأعداء وهم يهجمون على خيام الأطفال والنساء ويحرقونها. ورأت خسة القوم ونذالتهم وكأنهم وحوش في أشكال آدمية ينهبون ما يرون ويسلبون ما على الشهداء من ملابس وأسلحة – مأساة مؤلمة. تثير العديد من الأسئلة. ما الذي دفعهم إلى التنكيل بـأولاد سـيدتنا الجليلـة – فاطمة الزهراء؟ أي قلوب تحملها هذه الأجساد؟ كانت سيدتنا زينب رضـي الله عنها ترى هذا المنظر الرهيب الحزين الكئيـب ببصـرها وبعقلهـا. وقلبهـا وأحاسيسها ومشاعرها – خاصة وهي ترى رؤس آل البيت بما فـيهم الإمـام

الصابر محمولة على أسنة الرماح ويطاف بها في شوارع الكوفة. والنساء تزغرد والأطفال تهلل. والكبار يصفقون. أي حقارة بعد هذا. أهؤلاء بشر؟ لا – وألف مرة لا– لقد نزعت الرحمة من قلوبهم. لقد رأت السيدة الطاهرة زينب رضي الله عنها. ورأت خسة القوم ونذالتهم. ثم شاهدت عمر بن سعد. والذئاب البشرية تحوم حول البطل الشهيد. فقالت. يا عمر – أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه فخجل وأدار وجهه. ودموعه تتساقط على خديه. وقد سمع من فم الإمام الحسين رضي الله عنه – قبل أن يسقط وهو يقول "اللهم أمسك عنهم قطر السماء. وأمنعهم بركات الأرض اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا – واجعلهم طرائق قددا. ولا ترضيّ عنهم الولاة أبدًا فإنهم دعونا لينصرونا. فعدوا علينا فقتلونا" ورأت السيدة زينب. رضي الله عنها. وضاعة هؤلاء الذين طلبوا من الإمام أن يحضر إليهم لنصرته. فإذا بهم يقاتلونه بوجه آخر. ويد مدججة بالسلاح. وها هم أمام عينيها يجرونه من ملابسه عندما خر صريع الغدر و الخيانة. والسماجة. ثم تنظر فترى المنطقة التي تقف فيها مليئة بالجثث والأجساد مقطعة. والخيل تخوض في الدماء. وسمعت الأوامر وهي تصدر إلى الجند. خذوا النساء والصبيان إلى دار عبيد الله بن يزيد فلم تملك نفسها وصاحت.

يا محمداه – يا محمداه
صلت عليك ملائكة السماء
هذا الحسين بالعراء. مقطع الأعضاء
يا محمداه – وبناتك سبايا
وذريتك مقتلة – تسفى عليها
الصبا

لم ينته أسى السيدة الجليلة – عقيلة بني هاشم بانتهاء اليوم المشئوم الذي كان أطول يوم في حياتها. طويل جدًا. وقد توجه الموكب الحزين إلى دار عبيد

الله بن يزيد – الملعون على لسان المؤمنين– وكانت رؤوس الشهداء على أسنة الرماح. والناس ينظرون "أهل الكوفة" ولسان حالهم يقول

أحب الحسين ولكنما
لساني عليه وقلبي معه
حبست لساني عن مدحه
حذار أمية أن تقطعه
إذا الفتنة أضرمت في البلاد
ورمت النجاة فكن إمعة

كان السفلة من جند ابن زياد. قد اقتحموا فسطاط النساء – أهل البيت. ومن معهن. وأعمل الجند أيديهم سلبًا ونهبًا وحرقًا. غير مبالين بأي شيء. وغير مكترثين بحرمة الأموات. وجثثهم تحيط بهم من كل جانب. لكن الجند أظهروا من الحقد والقسوة والغلظة في معاملة النساء ما لم يعرف به أحد من قبل. إن الجند لم يكتفوا بهذا. بل أشعلوا النار في الخيام وفيها النساء والأطفال ثم ساقوا نساء آل البيت أسرى. وقد أركبوهم الجمال بغير غطاء. وطافوا بهذا الموكب تتقدمه الطاهرة. ووقعت أبصار النساء والأطفال على أبشع منظر. رأوا الشهداء بلا رؤوس. والعظام طحنتها أرجل الخيل والأجساد ممزقة من وقع أقدام حوافر الخيل على الأجساد. والدماء تجري تروي الصحراء. ولما أقبل الركب على الكوفة الملعون أهلها تتقدمه الزهرات اليانعات من آل بيت النبوة – عقيلة بني هاشم. وأختها أم كلثوم. وابنتا الإمام الحسين– السيدة/ سكينة – وفاطمة – وبقية من نساء بني هاشم. عز على عقيلة بني هاشم مافيه آل البيت النبوي الكريم. السيدة زينب رضي الله عنها فصاحت في أسى وألم وحزن ومرارة وقالت.

إلى الله المشتكى – وإلى محمد المصطفى
وإلى علي المرتضى – وإلى فاطمة الزهراء
وإلى حمزة سيد الشهداء

يـا محمـداه – هـذا حسـين بـالعراء تسـفى عليـه الصـبا قتيـل أولاد البغايـا – واحزنـاه – واكربـاه عليـك يـا أبـا عبـد الله اليـوم مـات جـدي محمـد رسـول الله – يـا أصـحاب محمـداه – يـا محمـداه هـؤلاء ذريـة المصـطفى – يسـاقون سـوق السـبايا وهـذا حسـين محـزور الـرأس مـن القفـا مسلوب العمامة والـرداء – بـأبى مـن أضحى معسكره يـوم الاثـنين منهوبـا بأبى من قسطاطه مقطع العرى – بأبى من لا غائب فيرجى. ولا جـريح فيـداوى بابى من له نفسي الفدا – بأبى المهموم حتى قضى – بـأبى مـن جـده المصطفى بـأبـى مـن جـدتـه خـديـجـة أم المـؤمـنـيـن

كانت كلماتها تصدر من قلب جريح. وصورت الموقف بكلامها أبلـغ تصوير. فهزت بكلامها قلب كل عدو وصديق. وأثرت في أحاسـيس النـاس فحركت مشاعرهم. ودخل الركب الموجوع ركب السـبايا – تتقدمـه العاقلـة الطاهرة أم هاشم على جمل بغير غطاء. ويتكون الركب من أربعين جملاً – بلا غطاء. وفي حالة يرثى لها من الضعف والعطش والجوع وعـدم النـوم وقـد أصابهم الضعف الشديد والمرض, ورؤوس الشهداء الكـرام خلفهـم تـذكرهم بأجسادهم التي مازالت في أرض المعركة يغطيها رمل الصحراء الذي حملتـه الرياح. وكان الإمام علي زين العابدين – وقد تركوه ولم يقتلوه لمرضه وصغر سنه. وكان يردد كلام والده رضي الله عنه – الإمام الحسين.

يـا أمـة السـوء لا سـقيا لـربعكم
يـا أمـة لم تـرع أحمـد فينـا
لـو أننـا ورسـول الله يجمعنـا
يـوم القيامـة مـا كنـتم تقولونـا
تسـيرونا علـى الأقتـاب عاريـة
كأننـا لم نشـيد فيكمـو دينـا
بـني أميـة مـا هـذا الوقـوف علـى
هـذي المصـائب لم تصـغوا لـداعينا
تصـفقون علينـا كفكـم فرحـا

ألـيس جـدي رسـول الله ويلكـم
وأنـــتم في فجـــاج الأرض تســـبونا

يـا وقعـت الطـف قـد أورثـني حزنـا
هـــادي البريــة عـــن ســـبل المضــلينا

والله يهتـــــك أســــتارا لمســـــيئينا

إن أهل الكوفة – بدؤا يقدمون بعض الطعام للركب الحزين. فصـاحت السيدة أم العواجز تصيح فيهم – يا أهل الكوفة – إن الصدقة علينـا حـرام – ومدت يدها وأخذت من يد الأطفال التمر. والخبز ودفعت به إلى أهل الكوفـة. وقالت طعام اللئام الذين تآمروا غلينا حرام. وهنا أطلت السيدة أم كلثوم برأسها من محملها وقالت لهم – صه يا أهل الكوفة – يقتلنا رجالكم. وتبكينا نسـاؤكم فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء. وبينما هي تخاطبهم. إذ بضجة قـد ارتفعت. فأطلت السيدة/ زينب رضي الله عنها. فرأت رأس الإمام رضـي الله عنه على أسنة الرماح يلعب بها حاملها ويهز الرمح يميناً وشمالاً. فازداد وجع قلبها وأنة أنة شديدة موجة وأومأت إليه. وقالت كأنها تخاطبه

يـــا هـــلالا لمـــا أســـتتم كمـــالا
غالــــه خســـفه فأبـــدى غروبـــا

مـــا توهمـــت يـــا شـــقيق فـــؤادي
ما كـــان هـــذا مقـــدرا مكتوبـــا

نظر الناس إليها. فرأوا هالة من جمال ونور. يعلو وجهها سحابة مـن حزن. فبكوا. فأشارت إليهم اسكتوا فسكتوا. وطارت نفوسهم خشـية وجللهـم موقف كله خشوع ورهبة. فقالت موجهة كلامها إليهم "الحمد لله – والصـلاة والسلام على أبي محمد. وآله الطيبين الأطهار الأخيار أما بعد. يا أهل الكوفة. يا أهل الخديعة. والغدر. أتبكون. فلا رقأت الدمعة. ولا هدأت الرنة. إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم. ألا وهل فيكم إلا الصلف. والكذب. والغدر وملك الإماء. وغمز الأعداء. أو كرعي على

دمنة. أو كعضة ملحودة. ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم. أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون- أتبكون وتنتحبون؟ أي والله فابكوا كثيرًا واضحكوا قليلاً. لقد ذهبتم بعارها وشنارها. ولن ترحضوها بغسل أبدًا. وأنى ترحضون – قتـل سليل خاتم النبوة. ومعدن الرسالة. مدره حجنكم ومنار محجتكم. وملاذ خيرتكم. ومفزع نازلتكم. وسيد شباب أهل الجنة. بئساً لكم ألا ساء ما تزرون.

ألا فتعسا لكم. ونكسا. وبعدا لكم وسحقا. لقد خاب السعي. وتبت الأيدي وخسرت الصفقة. وضربت عليكم الذلة والمسكنة... ويلكم ياأهـل الكوفـة... أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم. وأي كريمة له أبرزتم. واي دم له سـفكتم. وأي حرمة انتهكتم. لقد جئتم شيئًا إدا. تكاد السموات يتفطـرن منـه وتنشـق الأرض وتخر الجبال هدا. ولقد أتيتم بها خرفاء. شـوهاء. كطـلاع الأرض وملء السماء أفعجبتم أن مطرت السماء دماء ولعذاب الآخرة أخزى وأنـتم لا تبصرون. فلا يستخفنكم المهل. فإنه لا يحفزه البدار. ولا يخاف فـوت الثـار. وإن ربكم لبالمرصاد لقد كانت تتكلم بسلاسة ويتدفق كلامها يعبر عـن عميـق حزنها. وما أصابها وأصاب من معها, ولقد أثرت فيهم. فاستيقظوا كأنهم كانوا مغيبين. وبينت لهم شنيع جرمهم. وفظاعة فعلهم. وخسة طبعهم. وجبنهم. لقـد خذلوا آل البيت. وهم الذين استغاثوا به. واستنجدوا. ثم قتلوا ريحانة نبيهم, ثـم أخذوا سلالة البيت النبوي أسرى ملابسهم ممزقة. ليس هناك ما يحجب عيـون السفلة من الناس عنهم. أي جرم ارتكبوه. وأي خيانة ارتكبوها.. أيـن النخـوة العربية؟ وأين الشيم الأصيلة.. لكن الطبع يغلب التطبع... لابـد أن الأحـزان كانت تعتصرها. وقد تجاوزت عقدها الخامس. لكن الأطياف الحزينة تمر بها – ولم يبق إلا رجع الصدى الحزين المؤلم. والقلب الموجوع. يواجه هؤلاء الذين حملوا رأس شقيق الفؤاد على أسنة الرماح التي تلمع بدماء الشهداء. وقد تركوا جثتهم فريسة للرياح – والطامة الكبرى أن نساء الكوفة يرون سيوف رجـالهن

ملوثة بالدماء عليها رؤوس الشهداء. فبدل أن تبكوا علينا عليكن أن تقمن برمي أزواجكن بالحجارة. ورمي التراب في وجوههم لأنهم فعلوا فعلة يستحي أي شخص من المجرمين أن يشارك فيها..

إن شيخًا كبيرًا مسنًا استمع إلى كلمة السيدة الطاهرة زينب رضي الله عنها فبكى حتى اخضلت لحيته. ثم قال. بأبي أنتم وأمي. كهولكم خير الكهول. وشبابكم خير الشباب. ونساؤكم خير النساء. ونسلكم خير النسل. لا يخزيكم الله أبدًا.. يا آل بيت الحبيب الغالي.

ثم تكلمت فاطمة الصغرى فقالت بعد مقدمة طويلة... يا أهل الكوفة. يا أهل المكر والغدر. والخُيلاء ياأهل الخسة والندالة. فإنا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا. فجعل بلاءنا حسنا. وجعل علمه عنا وفهمه لدينا. فنحن عُبية علمه. أكرمنا الله بكرامته. وفضلنا بمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم على كثير ممن خلق تفضيلا فكذبتمونا. ورأيتكم قتالنا حلالاً. وأموالنا نهباً. كأننا أولاد شرك أو كابل فلا تدعوننا إلى جدالكم بما أصبتم من دمائنا. ونالت أيديكم من أموالنا. لذلك حلّ بكم العذاب. وأحاطت بكم النقمة. ألا لعنة الله على الظالمين. تبًا لكم أيها الظلمة يا أهل الكوفة...

ثم تكلمت أم كلثوم.. وهي بنت الإمام علي كرم الله وجهه. وشقيقة عقيلة بني هاشم "يا أهل الكوفة – يا أهل السوء. ما لكم خذلتم حسينا وقتلتموه. وسبيتم نساءه. ونكبتموه– ويلكم – أتدرون أي مصيبة دهتكم. وأي وزر على ظهوركم حملتم. قتلتم خير الرجال بعد النبي صلى الله عليه وسلم. وأي أموال انتهبتموها. وأي نساء سبيتم ياحزب الشيطان. اعلموا أن حزب الله هم الفائزون. وحزب الشيطان هم الخاسرون ثم قالت:

قتلتم أخي والله صبرا للؤمكم
ستجزون نارا حرها يتوقد

سفكتم دماء حرم الله سفكها
وحرمها القرآن ثم محمد
ألا فابشروا بالنار إنكم غدا
لفي سقر حقايقينا تخلدوا
واني لأبكي في حياتي على أخي
على خير من بعد النبي سيولد
بدمع غزير يستهل مكفكف
على الخد مني دايبا ليس يجمد

ثم قال الإمام علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم جميعًا. وأشار إلى الناس اسكتوا فسكتوا فقال بعد حمد الله. والثناء عليه. وصلى وسلم على النبي المصطفى ثم قال - أيها الناس. من عرفني فقد عرفني. ومن لم يعرفني. فأنا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. أنا ابن المذبوح بشط الفرات. وهو طاهر القلب من الحقد على أحد. أنا ابن من انتهك حريمه. وانتهب ماله. وسبي عياله وقتل صبرا. وكفى بذلك فخرا. فأنشدكم الله. هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وأعطيتموه العهد والميثاق. ثم خذلتموه. فتبًا لما قدمت أيديكم وسوأة لرأيكم. بأية عين تنظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول لكم "قتلتم عترتي وانتهكتم حرمتي. فلستم من أمتي" فارتفعت الأصوات من كل ناحية. وقال الناس لبعضهم. هلكتم وما تعلمون. فأشار علي زين العابدين. فسكتوا فقال "رحم الله امرءًا قبل نصيحتي ووصيتي في الله وفي رسوله وأهل بيته.. فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة". فقال الناس جميعًا.. سامعون مطيعون حافظون لذمامك. غير زاهدين فيك. ولا راغبين عنك. فمرنا بأمرك يرحمك الله. فإنا حرب لحربك. وسلم لسلمك. لنأخذن على يد يزيد، ونبرأ من ظلمك وظلمنا. فرد عليهم على زين العابدين. هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة. حيل بينكم وبين شهواتكم. أتريدون أن تأتوا إلى كما أتيتم إلى أبي بالأمس وأهل بيته معه. ولم ينسني ثكل رسول الله صلى الله عليه وسلم

وثكل أبي. وبني أبي. ومرارة ذلك بين حناجري. وغصصه في فراش صدري. ومسألتي أن لا تكونوا لنا – ولا علينا ثم قال

غمـز وإن قتـل الحسـين فشـيخه
قد كان خيرا مـن حسـين وأكرمـا
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالـذي
أصـاب حسـينا كـان ذلـك أعظمـا
قتيـل بنهـر الشـط روحـي فـداؤه
جـــزاء الـــذي أرداه نـــار جهنمـــا

ثم قال:

رضينـــا منكـــم رأســـا بـــرأس فـــلا يـــوم لنـــا ولا علينـــا

صــور الماضـــي

سيق هذا الركب الحزين – إلى الملعون "عبيد الله بــن زيــاد. والى الكوفة. ولما دخلوا تراءت الصور أمام عينيها. ففي هذا المكان نفسه كان يجلس والدها الإمام علي – زوج الطاهرة البتول – سيدتنا فاطمة الزهراء وقد تآمر عليه أهل الكوفة. وقتلوه وهو يؤذن للصلاة فجراً. هذه القاعة طالما دخلتها ووالدها يحكم بين الناس. ويفتي. ويسأل هذا ويجيب على سؤال ذاك. وها هي اليوم تدخلها والجالس فيها من؟ – قاتل أهلها وأولادها ومعهم سيد شباب أهــل الجنة – حبيب الروح – نظرت إلى الملعون فإذا به يضحك وينظر إليهم بتشفي – لقد تصدع قلب السيدة العظيمة. وقلبها متصدع من الحزن والأسى من أثر ما مر بها. ثم هي متعبة تعبًا شديدًا لما رأته من أحداث جسام. وهــي تــرى الآن نظرات الشماتة التي تراها في عيون الحاضرين. لكنها لانت بإيمانها وطلبــت

من ربها أن يمنحها الصبر. ويمدها بالقوة والعزيمة. ثم هي تعتز بعلو حسـبها ونسبها. وكرامة محتداها. وجلست في صمت لأن ملابسها رثة ممزقة لكن

لـيس الجمـال بـأثواب تزيننـا
إن الجمـال جمـال الخلـق والأدب

لقد أمر اللعين الملعون – ابن زياد – برؤوس الشهداء والضحايا. فلما وضعوا الرأس الشريف للإمام الحسين رضي الله عنه أمام الملعون. فأخذ ينكت بقضيب كان في يده بين – ثنيتي الرأس الشريف. كان زيد بن الأرقم يجلس مع الملعون. وهو يفعل ذلك. فقال له. أرفع هذا القضيب عن هاتين الثنيتين فـوالله الذي لا إله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم على هـاتين الثنيتين يقبلهما. ثم بكى فقال الملعون ابن زياد. أبكى الله عينيك. فوالله لولا أنك شيخ هرم قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك. فخرج بن الأرقم وهو يقول. أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم. قتلتم ابن الزهراء. وأمرتم ابن مرجانـة فهو يقتل خياركم. ويستعبد شراركم. فرضيتم بالذل والهوان, كان لسان الكثير ممن يجلس في مجلس الملعون ابن زياد لسان حاله يقول.

أحـب الحسـين ولكنمـا
لسـاني عليـه وقلـبي معـه
حبسـت لسـاني عـن مدحـه
حـذار أميـة أن تقطعـه
إذا الفتنـة أضـرمت في
الـبلاد ورمـت النجـاة فكـن إمعـة

لقد نظر الملعون ابن زياد في القاعة. فراعه هـذه السـيدة الشـامخة برأسها وهي تجلس وحولها العديد من الأطفال والنساء. وتحيط الإمـاء بهـم. فأشار إليها وقال من هذه؟ فلم تجبه. فقال لها من أنت؟ فلم تجبه. فأعـاد. فلـم تجبه. فقال بعض من حولها. هذه زينب. عقيلة بني هاشم فقال – متشفيًا فيها –

الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم فردت عليه اليسـدة النبيلـة – زينب رضي الله عنها. بكل ترفع وإباء... وقالت

الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم. وطهرنا من الـرجس تطهيرًا. إنما يفتضح الفاجر. ويكذب الفاسق. وهو غيرنا – فرد عليها الملعون. بقوله كيف رأيت صنع الله في أهل بيتك وأخيك؟ لقد تقوت بكل معاني الإيمان بالله. ولاذت بالصبر. وتحلت بالشجاعة. وقالت ما رأيت إلا خيرًا. هؤلاء قـوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا إلى مضاجعهم. وسيجمع الله بينهم وبينك. فـانظر لمن الفلج يومها. ثكلتك أمك يا ابن مرجانة فاستشاط ابن مرجانة غضبًا. وأثار رد العاقلة عليه غيظًا وغضا ظهرا في تصرفاته فقال عمرو بن حرب. وكـان بجواره. أصلح الله الأمير. إنها امرأة وهل تؤاخذ المرأة على منطقهـا. إنهـا لاتؤاخذ على منطقها ولا تلام على خطأ.. ولكن الملعون رد على السيدة المهذبة الفاضلة. سليلة المجد. وزهرة أهل البيت التي تتسابق الفضـائل بـين يـديها وانطبعت محامد الخصال على لألاء صفحتها. وتفجرت جلال الأعمـال مـن ينبوع همتها سيدة ظلت طيلة حياتها. وبعد موتها فخر النسـاء. حملـت علـم الجهاد. وألزمت أعداءها ويعملون ألف حساب لحماستها. يقول لها – الملعـون ابن زياد– لقد شفى الله قلبي من طاغيتك الحسين. والعصاة المردة مـن أهـل بيتك. فقالت له. لعمري لقد قتلت كهلي. وقطعت فرعي. واجتثثت أصلي. فـإن كان في هذا شفاؤك فلقد اشتفيت فرد عليها اللعين ابن زيـاد. هـذه شـجاعة. ولعمري لقد كان أبوها شجاعًا شاعرًا. فقالت – يا ابـن زيـاد. مـا للمـرأة والشجاعة. وإن لي عن الشجاعة لشغلا وإني لأعجب ممن يتشفى بقتل أئمتـه. ويعلم أنهم منتقمون منه في آخرته.

وترجم هذا الموقف أحد الشعراء فقال

يــا أيهـا المتشــفي في قتــل أئمتــه
قلـبي مـن الوجـد علـى مثـل الحجـر

لابلغتـــك الليـــالي مـــا تؤملـــه
منهـــا وبـــل ســـداك المـــالح المقـــر

قـــوم هـــم الـــدين والـــدنيا فمـــن
قلاهـــــم فمـــــأواهم إذن ســـــقر

لهـــم نـبـي الهـــدى جـد وجدهـــم
يـــوم الميعـــاد بنصـــر الله ينتـصـــر

ولقد آثار هذا النقاش بين الطاهرة المرضي عنها – وبين الملعون ابن زياد – غيرة علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم جميعًا – فـــانبرى صائحاً قائلاً ياابن زياد إلى كم تهتك ستر عمتي بين من يعرفها ومن لا يعرفها؟

فالتفت ابن زياد إليه وقال – من أنت؟ فرد عليه في حزم وثبـــات أنـــا علي ابن الحسين؟ قال ابن زياد – أليس الله قتل عليًا بن الحسين قال علـــي – كان لي أخ يسمى عليا قتله الناس بأسيافهم. فرد عليه الملعون بل قتله الله. وهنا تتجلى مرة أخرى قوة إيمان أهل البيت وشجاعتهم. ورد على زين العابـــدين – "الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الآخرى إلى أجل مسمى"[٢٨٤].

فيسأله ابن زياد عليه اللعنة في دهشة وغضب. أو بـــك جـــرأة علـــى جوابي وفيك بقية للرد – ونادى على غلمانه – أن ينظروا إليه – ليعرفوا هـــل بلغ سن الحلم. إني لأحسبه رجلاً – فكشفوا ملابســـه. ونظـــروا إليـــه "معـــاذ الأحمري" وقال نعم أدرك. قال. أقتله. فقال علي رضي الله عنه. و من يتوكل بهذه النسوة لكن السيدة الطاهرة زينب رضي الله عنها تعلقت به. وقالت. يا ابن زياد حسبك من دمائنا ما ارتويت وسفكت. وهل أبقيت أحدًا غير هـــذا؟ والله لا

---

(٢٨٤) سورة الزمر الآية ٤٣

أفارقه إن قتلته فاقتلني معه. والتفت علي زين العابدين رضي الله عنه إلى عمته. وقال لها دعيني أكلمه. وقال. يا ابن زياد. أبِالقتل تهددني؟ أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة – فنظر ابن زياد إليه وإلى عقيلة بني هاشم ساعة ثم قال عجبًا للرحم. والله لأظنها ودت لو أني قتلته أني أقتلها معه. دعوه ينطلق مع نسائه فإني أراه لما به مشغولا...

لقد نادى الملعون ابن زياد. الصلاة جماعة. فاجتمع الناس فصعد المنبر. وقال "الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله. ونصر أمير المؤمنين وأيد حزبه. وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين ابن علي وشيعته (حاشاه من شر هذا اللسان الملعون صاحبه) يقول ابن الأثير في كتابه – الكامل في التاريخ – "هذا النصر في نظري ونظر كل عاقل صحيح العقل. شر من الخذلان إذا ما فخر الآلاف الكثيرة. حيث اجتمع الآلاف على اثنين وسبعين بقيادة الإمام العظيم سيدنا الحسين رضي الله عنه. فقد نزلوا على غير ماء, إنما يعتبر النصر شرفًا وفخرًا – إذا كانت العدة متكافئة – والعدد قريبًا... فحق على ابن زياد – لعنه الله ومن على شاكلته – أن يندبوا على أنفسهم بالخسة والخسران وأن يطأطئوا رؤوسهم ذلا وعارًا. حينما وقف هؤلاء النسوة الأشراف وعلى رأسهم السيدة زينب رضي الله عنها. وهي بنت فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي بهذه الحالة – لعن الله الفسق والفساق. لقد سوءوا صحائف التاريخ وسجلوا على أنفسهم الجرائم الكبرى التي لا تغتفر ولا تنسى مدى الدهر. فإنا لله وإنا إليه راجعون" ثم يقول "وإني لأعد من سيئات بني أمية. ومنهم معاوية. أن يرخصوا لولاتهم في المعاقبة بالقتل. وكان سبيلهم أن يكون العقاب على يد الخليفة لا الوالي. فإن الترخيص بذلك جرّأ أمثال (ابن زياد– وسمرة بن جندب – وعبيد الله – وغيرهم على الإكثار من القتل الموجب والغير موجب) لقد كان عبد الله بن عفيف في المسجد عندما تطاول ابن زياد على سيدنا الإمام الحسين

وأبيه الإمام علي رضي الله عنهم جميعا- وقف عبد الله بن عفيف وقال موجهًا كلامه إلى ابن زياد . يا ابن مرجانة . إن الكذاب ابـــــن الكـــذاب أنـت وأبوك والذي ولاك . يا ابن مرجانة أتقتلون أبناء النبيـين وتتكلمـون بكـلام الصديقين ؟ فقال ابن زياد – علي به – وقتله بعد صراع مرير مع قبيلته وهكذا كان مصير كل من يعترض السفاح الظالم الكذاب الملعون ابن مرجانة...

رحلة تعب ومشقة

أراد الملعون ابن زياد – أن يزيد في إرهاق بقية بيت النبـوة. وعلـى رأسهم المهذبة الطاهرة سيدتنا زينب رضي الله عنها. فـأمر أن تحمـل رأس الإمام العظيم سيدنا الحسين رضي الله عنه ومن خلفها – العترة الطـاهرة – الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا. منظر صـعب علـى الـنفس الإنسانية أن تراه. ومشهد مؤلم. لكن – ماذا تقول للجبناء الذين اتسموا بالخسة. والنذالة وعدم مراعاة الشعور. وعدم الإحساس بالمبادئ الإنسـانية. والعـرف العربي. والتقاليد الاجتماعية. لكن. الأمر لله من قبل ومن بعد – فهو المعـين. كان أهل البيت الطاهر محمولين على أقتاب الجمال. وقد ربط الجبناء أيـديهم وشدوا الأيدي المربوطة إلى الرقبة وحولهم فريق من الحرس – أمر ابن زياد – لعنه الله وأخزاه. أن يشدد عليهم بالأمن وأنهم لن يسـتطيعوا أن يهربـوا – وأين يهربون – وهم جميعًا صغار السن – ما عدى سيدتنا الطـاهرة زينـب رضي الله عنها. السيدة أم كلثوم وهي شقيقة السيدة العاقلة زينب. ونادت علـى رئيس القوة التي تحيط بهم "شمر بن ذي الجوشن" وقالت له – لي إليك حاجة؟ قال ما هي. قالت إذا دخلت بنا دمشق فامش بنا في دروب ضيقة حتى لا يرانا ناس كثير... فقد أصابنا الخجل من كثرة النظر إلينا. وملابسـنا ممزقـة كمـا ترى. وأيدينا مربوطة إلى أعناقنا وكان هذا الشخص – شمر – لئـيم خسـيس

ملعون. والعرب قالوا – إذا أنت أكرمت اللئيم تمردا لذا أمر بعكس ما سألته – السيدة الطاهرة أم كلثوم رضي الله عنها – عتواً منه وعدوانًا على أهل البيت النبوي الكريم. وسار بهم في شوارع واسعة. بها الأسواق – والمحال التجارية. والزحام. والكل ينظر ويمد شفتيه.

وعندما بلغوا قصر الخلافة – أوقفوا الركب الحزين. وتقدم الملعون "زخر بن قيس" ودخل على "يزيد بن معاوية" وقال – أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره – وحكى له ما دار في المعركة ثم قال – فعدونا عليهم مع شروق الشمس. فأحطنا بهم من كل ناحية. حتى إذا السيوف أخذت مأخذها من هام القوم جعلوا يهربون إلى غير اتجاه. ويلوذون بالأكام والحفر. كما تلوذ الحمائم من صقر. فوالله ما كان إلا جزر جزور. أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم. فهاتيك أجسادهم مجردة. وثيابهم مرحلة. وخدودهم معفرة. تصهرهم الشمس. وتسفي عليهم الريح. زوارهم العقبان والرخم. بقاع سبسب" يقولون – بأن يزيدا دمعت عيناه وقال – كنت أرضى منكم غير هذا – لعن الله ابن سمية. أما والله لو أني صاحبته لعفوت عنه. فرحم الله الحسين وقالوا – إن مروان بن الحكم عندما رأى رأس الإمام الحسين. ورأى منظر أهل البيت قال لقد حجبتم عنا شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة لن أشارككم في أمر أبدًا... ولعل هذا كان صحوة ضمير بعد فوات الأوان ولما وضعت رأس الإمام الحسين رضي الله عنه وعن آل بيته الأطهار وكان في يد يزيد – قضيب ينكث به في ثغر الإمام. وقد أذن لنساء آل البيت أن يدخلهن. فجعلت السيدة/ فاطمة. وسكينة. ابنتا الإمام الشهيد يتطاولان لتنظرا إلى الرأس الشريف – وكان يزيد. يحاول أن يستر الرأس الشريف لكنهما رأتا الرأس الشريف. فصاحتا بتوجع وألم. فصاحت نساء يزيد وولولت بنات معاوية. وقالت إحداهن

أترجوا أمة قتلت حسينا
شفاعة جده يوم الحساب

ثم سمعوا من يقول

أيها القاتلون جهلا حسينا
ابشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعوا عليكم
من نبي وملائك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود
وموسى وصاحب الإنجيل

وقال آخر

يستبشرون بقتله وبسبه
وهموا على دين النبي محمد
وإن ما هم مسلمون وإنما
قالوا بأقوال الكفور الملحد
قد ا سلموا خوف الردى وقلوبهم
طويت على غل وحقد مكمد

وقالت سيدة من بني عقيل ابن علي بن أبي طالب

ماذا تقولون إن قال النبي لكم
ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي
منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم
أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

ولما بلغ الخبر – عبد الله بن جعفر – زوج الطاهرة الشريفة زينب رضي الله عنها وأن ولديه قتلا بين يدي الإمام الحسين رضي الله عنه. دخل أحد مواليه وقال يعزيه. ثم قال. هذا ما لقيناه من حسين. فرماه عبد الله بنعله.

ثم قال.. يا ابن اللخناء. أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل دونه. والله إنه لمما يسخي بنفسه عنهما ويهون المصاب بهما.. إن لم يفعلوا هذا فقد آساه ولداي, أي رجولة هذه. أولاده قتلوا بين يدي الإمام الشهيد. وهو سعيد بهما لأنهما قتلا بين يدي الإمام المظلوم واستشهدوا.

اشباه الرجال

بعض الناس يلبسون ملابس غالية أنيقة. وتظهر عليهم شارات الرجال. لكن الحقيقة. أنها الرجولة المشروخة – فهم أشباه الرجال. شخصيات آئمة. في قمة التفاهة من هؤلاء رجل مجهول النسب يتسول الجلوس في حضرة الخلفـــاء – كان في مجلس يزيد بن معاوية رجل من هؤلاء سمع السيدة فاطمـــة بنـــت الإمام الحسين – وهي تقول أبنات رسول الله سبايا. يا يزيد؟ فقال. يا أبنة أخي. أنا لهذا كاره. فقام هذا الرجل المشروخ في رجولته التافه. وقال: يا يزيد هـــب لي هذه الجارية – يا أمير المؤمنين. لتكون خادمة عندي؟ فارتعدت الســـيدة – فاطمة وأخذت بثياب عمتها السيدة زينب رضي الله عنها. وصاحت. يا عمتاه– وارتمت بين ذراعيها فقالت أم هاشم العظيمة سيدتنا زينب رضي الله عنهـــا – لهذا الرجل. كذبت يا لئيم يا خسيس ما جعل الله ذلك لك ولا لأميرك – فغضب يزيد. وقال كذبت أنت. إن ذلك إلى ولي – ولو شئت لفعلت – فقالت – كلا – والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا. فاســـتطار يزيد غضباً وقال إياي تستقبلينني بهذا الكلام. إنما خرج مـــن الـــدين أبـــوك. وأخوك. فقالت الطاهرة اللبيبة الفصيحة العاقلة السيدة/ زينب رضي الله عنهـــا. بدين أبي وأخي اهتديت أنت وأبوك وجدك – إن كنت مسلمًا – قـــال يزيـــد – كذبت يا عدوة الله. قالت يا يزيد – أنت أمير تشتم ظالمًا. وتقهـــر بســـلطانك. فاستحى يزيد وسكت فأعاد الرجل طلبه منه– هب لي هذه الجارية. فقـــال لـــه يزيد. اسكت وهب الله لك حتفاً قاضيًا – وكان يزيد يردد أبياتًا من الشعر تدل على التشفي من الإمام. ويقول

ليت أشياخي ببدر شهدوا
جزع الخزرج من وقع الأسل

فأهلوا واستهلوا فرحا
ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القوم من سادتهم
وعدلناه ببدر فاعتدل

فجزيناهم ببدر مثلها
وأقمنا ميل بدر فاعتدل

إن يزيد يفتخر أنه اقتص لأهله الذين قتلوا في غزوة بدر التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة. ونحن الآن سنة ٤١ يعنى بعد ٣٩ سنة- بدأ يزيد بعد هذه السنين يعلن عن انتقامه لأهله الكفار ويتشفى. ولا غضاضة في ذلك - فجدته هند. زوجة أبي سفيان. أم أبيه. كانت قد دفعت بحليها إلى عبد أسود هو "وحشي" ليقتل أسد الله في الأرض سيدنا حمزة بن عبد المطب. ولما قتله خيانة وغدرا أقبلت هند. وقامت بالتمثيل بجثمان سيد الشهداء سيدنا حمزة. وأخذت كبده ولاكته بأسنانها وليس هذا من التقاليد العربية ورفض قومها ذلك ولم يقروا هذا الفعل. وقبل ذلك كانت هند - تريد أن تنبش قبر الطاهرة العظيمة سيدتنا آمنة بنت وهب. خير من حملت ووضعت لأنها أم سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لكن علية القوم الذين كانوا مع هند - قالوا لها - هذا الفعل يكون سبة لنا تعيرنا به العرب مدى الدهر- هذه - هند - جدة يزيد - أما جده. فهو أبو سفيان الذي جمع الجموع وحزب الأحزاب وقاتل الإسلام وحارب سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد. والخندق. وغيرها. وأسلم يوم فتح مكة - وهو من العتقاء - ثم إن أبا سفيان هذا في غزوة حنين بعد أن أسلم. وقد وقعت هذه الغزوة بعد فتح مكة. وورد عنها في القرآن الكريم في سورة التوبة - خبر عن ذكرها- في بادئ الأمر انهزم المسلمون فجمع أبو سفيان من على شاكلته - وتكلم بما في نفسه وعبر عما يشعر به - لأن الإيمان لم يتمكن من قلبه -

قال في حق المسلمين لاتنتهي هزيمتهم دون البحر – فقال له أحد جلسائه لـــولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن قتلك لقتلتك"(٢٨٥)....

لقد دار كل هذا بعقل الطاهرة سيدتنا زينب رضي الله عنها فانتفضـــت قائمة ترد على – يزيد في كلمات. عليها من أنوار الإيمان القوي الذي يتحلـــى به آل البيت والحق الذي تلوذ به. ومنها

"الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على رسوله وســلم وعلـــى آلـــه أجمعين.. صدق الله سبحانه حيث يقول ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾(٢٨٦)

أظننت يا يزيد حين أخذ علينا بأقطار الأرض وآفاق السماء. فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى. أن بنا هوانا على الله. وبك عليه كرامة. وأن ذلـــك لعظيم خطرك عنده. فشمخت بأنفك. ونظرت في عطفك تضرب أصدريك فرحًا وتنفض مزوريك مرحًا. جذلان مسرورًا. حين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأمور متسقة. وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا. فمهلا أنسيت قـــول الله تعـــالى ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾(٢٨٧) إن من العدل يا ابن الطلقـــاء تحريـــرك حرائـــرك وإماؤك. وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وســـلم ســـبايا قـــد هتكـــت ستورهن. وأبديت وجوههن. تحدو بهن الأباعر من بلد إلى بلد ويستشرفهن أهل

---

(٢٨٥) يراجع في ذلك كتاب إمتاع الأسماع للمقريزي جـــ١ ص ١١٥، ٤٠٥.

(٢٨٦) سورة الروم ١٠.

(٢٨٧) سورة آل عمران ١٧٨.

المناهل والمناقل. ويتصفح وجوههن القريب والبعيد. والدني والشريف. لــيس معهن من رجالهن ولي. ولا من حماتهن حمى وكيف يرتجي مراقبة من لفــظ فيه أكباد الأذكياء. ونبت لحمه من دماء الشهداء. وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنآن والإحن والأضغان. ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم.

لاهلــــوا واســــتهلوا فرحــــا

ثــم قــالوا يــا يزيــد لا تشــل

منحنيا على ثنايا أبي عبد الله. سيد شباب أهل الجنة تنكثها بمحصرتك. وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة. واستأصلت الشأفة بإراقتك دماء ذريــة محمد صلى الله عليه وسلم ونجوم الأرض من آل عبــد المطلــب. وتهتــف بأشياخك زعمت أنك تناديهم. فلتردن وشيكا موردهم. ولتودن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت. وفعلت ما فعلت. اللهم خذلنا بحقنا. وانتقم ممن ظلمنــا. واحلل غضبك على من سفك دماءنا. وقتل حماتنا "فوالله يا يزيد. مافريــت إلا جلدك. ولا حززت إلا لحمك. ولتردن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تحملت من دماء ذريته. وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته. حيث يجمع الله شملهم. ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾[٢٨٨] وحسبك بالله حاكمًا.. وبمحمد صلى الله عليه وسلم خصيمًا. وبجبريل ظهيرًا. وسيعلم من سول لك وأمكنــك مــن رقاب المسلمين. بئس للظالمين بدلاً. أينا شر مكانا وأضعف جندا. ولئن جرت على الدواهي في مخاطبتك إني لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعك. وأســتكثر توبيخك. لكن العيون عبرى. والصدور حرى, وما يجزي ذلك أو يغني. وقــد

([٢٨٨]) سورة آل عمران ١٦٩.

قتل أخي الحسين. ألا إن حزب الشيطان يقربنا من حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله عونًا على انتهاك محارم الله. ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء. بحزب الشيطان الطلقاء. فهذه الأيدي تقطر من دمائنا. والأفواه مليئة من لحومنا. وتلك الجثث الطواهر الذواكي تنتابها الذئاب. وتنهشها أمهات الضباع.

ولئن اتخذتنا مغنمًا. لتجدنا وشيكًا مغرمًا حين لا تجد إلا ما قدمت يداك. وما ربك بظلام للعبيد. وإلى الله المشتكى. وعليه المعول. فكد كيدك واسع سعيك. وناصب جهدك. فوالله لا تمحو ذكرنا. ولا تميت وحينا. ولا تدرك أحدنا. ولا ترحض عنك عارها. وهل رأيك إلا كذب. وأيامك إلا عدد وجمعك إلا بدد. يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين. فالحمد لله الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة. ولآخرنا بالشهادة والرحمة. نسأل الله أن يكمل لهم الثواب. ويوجب لهم المزيد. ويحسن علينا الخلافة. إنه رحيم ودود. وحسبنا الله ونعم الوكيل...".

كلام من لاذع القول. شديد التقريع. مع العلم أن سيدتنا زينب رضي الله عنها تدرك تمامًا أنها في الأسر. وأنها دامية القلب باكية العين. وهذا دليل واضح على شجاعتها وقوة حجتها. لأنها في مثل هذا الموقف تلقي هذه الخطبة. ولم يستطع يزيد. رغم كرسي الخلافة. وأبهة الإمارة – وكثرة الحاشية أن يقاطع السيدة زينب رضي الله عنها لذلك – أراد يزيد بن معاوية. أن يخرج من هذا المأزق. وقد وقع في حرج شديد– ولهذا أمر باستدعاء نساء قصره وغيرهن وأقمن مأتمًا على الضحايا والشهداء.

ثم توجه بالكلام إلى سيدات بيت النبوة عما أخذ منهن. فرد إليهن أكثر مما أخذ منهن. حتى قالت سيدتنا سكينة رضي الله عنها – ما رأيت كافرًا بالله خيرًا من يزيد بن معاوية. أما علي زين العابدين – لما وصل دمشق – جلس

على درج دمشق. فوقف عليه رجل. وقال له. الحمد له الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرني الفتنة. فرد عليه علي زين العابدين. وقال له – اقرأت القرآن؟ قال الرجل نعم. قال. أقرأت حم عسق؟ قال – قرأت القرآن ولم أقرأ . حم عســق. قال علي زين العابدين رضي الله عنه للرجل.. اما قرأت ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[٢٨٩] قال. وإنكم لأنتم هم؟ قال علي زين العابدين رضي الله عنه. نعم.

نظرة تحليلية:

لقد أطلت عليك. ذكر السيدة زينب رضي الله عنها. وعرضنا لمشـــاهد مؤلمة حدثت لأهل البيت النبوي الكريم. الغرض من ذلك أن نبـــين أن المـــرأة العربية المسلمة عندها قدرة على مواجهة المواقف الصـــعبة. والتغلـــب علـــى الأزمات. ولقد أرادت مشيئة الله سبحانه – أن هذه المأساة تثير في خواطرنـــا الكثير من الأسئلة. كيف حدث هذا لبيت النبوة الذي أشاد الله بهم في القـــرآن. وأثنى على أهل البيت الطاهر. وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيـــرا. وللحق نقول :

إن الله سبحانه أحيانًا يبتلي عباده خاصة الصالحين منهم. ولهـــذا قـــال ســـبحانه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾[٢٩٠] ولذلك أمرنا بالصبر. لأن ثوابه عظيم. وأجره كبير لا يقدر بعد. ولهذا قال الله سبحانه ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٢٩١] وعلينا أن نقرأ تـــاريخ الـــدعوة

([٢٨٩]) سورة الشورى ٢٣.

([٢٩٠]) سورة محمد ٣١.

([٢٩١]) سورة الزمر ١٠.

الإسلامية في أول عهدها وكيف تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشد أنواع الابتلاء. والأذى. والسخرية. والمسلمون الأوائل وما لحق بهم وما أصابهم من عنت وإرهاق. وأذى وضرب. وغير ذلك ولهذا نزل في القرآن الكريم قول الله سبحانه ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾[٢٩٢] ثم اقرأ تاريخ أنبياء بني إسرائيل – ولقد حكى القرآن أن اليهود كانوا يقتلون أنبياء الله. وليس ذلك لهوانهم على الله. وإنما هو امتحان واختبار. لتهور الظالمين واعتداءاتهم وبغيهم. ثم ما هو موقف الأنبياء. والصالحين. والعلماء. والصديقين فسيدنا زكريا نبي عظيم. ورد اسمه في القرآن الكريم يقول المفسرون أن سيدنا زكريا عليه السلام لاذ من قاتليه بشجرة. فانشقت فدخلها فانغلقت عليه وأصبح في جوفها ولكن الطغاة أعملوا فيها المناشر. فنشر سيدنا زكريا عليه السلام بداخلها. ولم ينقص ذلك من قدره. كما أن بني إسرائيل قتلوا سيدنا يحيى وشعياء وغيرهم كثير يقول الله سبحانه ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ ﴾[٢٩٣]

كذلك هناك أصحاب الأخدود. وقد جاء ذكرهم في سورة البروج إلى غير ذلك كثير. وقد جاء في صحيح البخاري. **"أن خباب بن الأرت من المسلمين الأوائل. جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو إليه ما يعانيه. هو ومن آمن. من تنكيل بالعذاب من كفار قريش. فقال صلى الله عليه**

([٢٩٢]) سورة العنكبوت ٢ – ٣.

([٢٩٣]) سورة النساء ١٥٥.

وسلم أصبروا فقد كان يؤتى بالرجل من قبلكم فينشر بمنشار من حديد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ما يصرفه ذلك عن دين الله" فالذي حل بأهل بيت النبوة ليس بجديد في تاريخ البشرية. وليس ذلك لهوان هؤلاء على الله. ولكنها حكمة ليكونوا نماذج مضيئة في دنيا الناس. ونجومًا لامعة عندما يشتد الظلام. إن الله رفع للإمام الحسين و من معه درجاتهم وجعلهم شهداء لهم عند ربهم ما يشاؤن. ولقد منح الله المسلمين الصبر. فلم يثوروا حتى لا تكون فتنة. وأزمة طاحنة تعصف بالمسلمين. ويتم محوهم من على الأرض. لأننا ندرك أن أعداء الإسلام وأعداء الوطن الإسلامي. كثر يتربصون بنا الدوائر. فالثورة يومها ليست لصالح آل البيت ولا لصالح الإسلام ولا المسلمين- والأمة يومها قد أصابها حزن شديد. لكن اليقين من الصحابة. والتابعين – والعلماء والحكماء أنهم نصحوا ووضحوا وبينوا أن الثورة خطأ. وشر على الأمة وعلينا أن نفوت على الجبناء أغراضهم. وكان من رحمة الله أن آل البيت الطاهر عاشوا وتناسلوا وأصبحت ذريتهم بيننا أشراف. وأطهار. وإذا كان يزيد ومن عاونه أراد أن يطفئ نور الله ويقضي على الذرية الطاهرة. فقد خاب سعيهم ودمر الله عليهم. وبقية الذرية الطاهرة تعيش بين المسلمين. وأعداء الإسلام يعملون على إشاعة الفوضى في المجتمع الإسلامي لكنهم لن يتمكنوا أبدًا. فالإسلام هو الدين الخاتم والعالمي. وفوق ذلك فالله حافظه رغم صنع الجهلة وألاعيبهم وحيلهم وصدق الله العظيم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾[٢٩٤] ويقول سبحانه ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾[٢٩٥] إن الذين اعتدوا على أنبياء الله. وعلى أتباعهم علينا أن نتذكر أن الأنبياء وأتباعهم يعيشون بيننا بذكر أسمائهم والترضي عنهم وسؤال الله لهم الرحمة. وأما الذين قتلوا وسفكوا دماء آل البيت. يذكرون فيلعنون. وتصب عليهم اللعنات. هم ومن ساندهم وأيدهم ولهذا

---

(٢٩٤) سورة الحجر ٩.

(٢٩٥) سورة الصف ٨.

يقول الله عن قتلة الأنبياء ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾(٢٩٦) إن القدر ينزل من السماء - والله يفعل ما يشاء. فآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ذكرهم ملء السمع والبصر. فنترضى عنهم. ونتأسى بجدهم. وهم كسفينة نوح من تعلق بها نجى ولله در القائل:

يا آل بيت رسول الله حبكمو
فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكموا من عظيم القدر أنكموا
من لم يصل عليكم لا صلاة له

وقول الآخر:

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة
فدار ثواب الله أعلا وأنبل
وإن تكن الأبدان للموت أنشئت
فقتل امرئ في الله بالسيف أجمل
وإن تكن الأرزاق قسما مقدرا
فقلت حرص المرء في السعي أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها
فما بال متروك به المرء يبخل

وها هو الإمام الحسين رضي الله عنه - له في المجتمعات كم مسجد باسمه. وكم من الألسنة تترضى عنه ولهذا قال القائل:

---

(٢٩٦) سورة البقرة ٦١.

لـذكرك فينـا يـا حسـين خلـود **بقيـت بـه حيًـا ومـات يزيـد**

نعم مات حتى ضل في الأرض قبره **ولـيس لـه بـين القبـور وجـود**

ومن رجمت ذكراه من بعد موتـه **هـو الميـت. لكـن الحسـين شـهيد**

إن الإمام الحسين – وسيدتنا زينب. وسيدنا. علـي زيـن العابـدين. وسيدتنا سكينة وسيدتنا فاطمة. وغيرهم كثير وكثير من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أحياء في قلوبنا نزور روضانهم. ونقرأ لهم القرآن. ونصلى علـى جدهم الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ونترضى عنهم صباح مساء.

أما أعداؤهم

فأين قبورهم. وأين ذكراهم. قبورهم غير معروفة. وإذا ذكروا لعنـوا. وهذا جزاء الظالمين. ولنا أن نتأمل في مصير الظالمين. الذين ينشرون الفساد في الأرض. يقطعون الطرق. ويحفرون المطبـات. ويصـنعون المفرقعـات ويروعون الآمنين. ويحطمون المنازل ويشعلون الحرائق. وينشرون الأكاذيب. ويروجون الإشاعات. ويزعمون أنهم من المسـلمين. إن المسـلم مـن سـلم المسلمون من لسانه. ويده، والمؤمن من أمنه الناس علـى دمـائهم وأمـوالهم وأعراضهم. وهنا يأتي دور المرأة.

لأن دورها خطير. فهي المعلمة الأولى للطفل. لو غرست فـي قلبـه الرحمة. وحب الغير والتسامح. والبعد عن الشـغب. وعـدم الاشـتراك فـي مظاهرات تدمر. وتكسر وتحطم. فسوف ينشأ الأطفال على ذلك وهم شباب الغد ورجال المستقبل وحماة الوطن وقادة العلم وهذا ما مربنا في ثنايا هذا الكتاب.

إلى مصر

شجاعة السيدة زينب رضي الله عنها. وصراحتها. ومواجهة المواقـف والتصدي للأزمات بعزم جعلتها تغلبت على يزيد وغيره وكان لمواقفها الرائدة المتسمة بالشجاعة والبطولة النادرة رد فعل عميق في نفوس الجماهير. وأمـا يزيد بن معاوية. فقد صحا ضميره. واستعظم ما حدث. لأنه يمثل أبشع جريمة في حق آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لهذا أراد أن يكفر عن شنيع تخطيطه وسوء فعله. لهذا عرض على السيدة الطاهرة زينب رضي الله عنها. مالاً كثيرًا وقال لها. هذا عوض عما سلب منك وممن معك. فقالت له. عجبًا يا يزيد. مـا أقسى قلبك تقتل أخي وتعطيني المال والله لا يكون ذلك أبدا. وقرر يزيد. ترحيل آل البيت النبوي إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسـليم. فندب لصحبتهم شخصيات تتسم بالأمانة وكان على رأس الحرس. النعمان بـن بشير. وأوصاه يزيد. ومن معه. بحسن صحبة آل البيت. وكان النعمان ومـن معه على درجة عالية من الرعاية وحسن الصحبة وكان من حسن الصحبة أن الركب عندما وصل المدينة. قامت السيدة زينب رضي الله عنها بتقديم بعـض المصاغ المتبقى معهن لتقديمه إلى الحراس للمعاملة الطيبة والإسراع في تلبية أي طلب لآل البيت. وقالت السيدة زينب وهي تقدم ما معها. والله لو كان معنا أي شيء لقدمناه لكم على حسن معاملتكم ورعايتكم لنا. لكن الحرس. كانوا على درجة عالية. من الأدب. والذوق. وحسن الخلق. وردوا بأدب واحترام ما قـدم إليهم وقالوا. لو كنا فعلنا ما فعلناه معكم للدنيا لكان في ذلك كفاية. والله إننا فعلنا مافعلنا إلا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما نزل بكم. ولمّا وصل الركب إلى المدينة. توجهت السيدة زينب إلى المسجد النبوي وأمسـكت بباب السلام ونادت بأعلى صوتها- يا جداه. إني أنعي أليك أخي الحسين. كانت عيناها تسيل بالدموع باكية منتحبة. وقد مكثت مدة في المدينـة. تخطـب فـي

الناس وتحكي ماحدث وكأنهم يرونه على مسرح الواقع. وكانت دموعها على خديها. وكل آل البيت كذلك. وقد أثارت ثائرة الناس. وخاف يزيد. وكل قياداته من مواقفها خاصة وأن الناس تعاطفوا مع آل البيت وحزنوا لهذه المواقف المؤلمة والتي تتسم بالخسة والغدر. لذلك خافوا على أنفسهم ومناصبهم وكرسي الخلافة الذي يحميهم من أن يهتز ويسحب البساط من تحت أقدامهم.. لذلك أمروا السيدة زينب أن تختار أي مكان غير الحرمين. مكة. والمدينة. وترحل إليه للإقامة به. وعندما بلغها هذا الأمر عز عليها. لأنها سترحل من أرض الآباء والأجداد- ثم هنا - في المدينة - ومكة- مهبط الوحي.. وهنا وهناك توجد الأعظم العطرات للأجداد. والآباء. والأخوات. والعمات. والخالات. وصديقات العمر. ومعارف الجيران. ومرتع الصبا. وأيام الطفولة. والوطن غالٍ وعزيز لايفارقه الإنسان إلا وهو مكره مغلوب على أمره. وقالت. وهي تبكي "علم الله ما صار إليه أمرنا. وإليه المشتكى لقد قتل خيارنا. وساقونا كما تساق الأنعام وحملنا على الأقتاب. وبعصبية وحدة قالت. والله لا نخرج وإن أريقت دماؤنا" فتدخلت سيدات ونساء البيت النبوي. وقلنا لها. يا سيدة الكل. ويا بنت الإمام علي كرم الله وجهه. ويا بنت فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ويا أختاه - يا أم الإمام الشهيد الحسين. نستحلفك أن توافقي وتختاري فقد صدقنا الله وعده. وأورثنا الأرض ننزل فيها باختيارنا في أي مكان نشاء فطيبي نفسًا واختاري وقري عينًا وسيجزي الله الظالمين. أتريدين بعد ذلك هواناً اختاري وأرحلي. والله يقدر ما يشاء. وهو معنا. نعم المولى ونعم النصير... واستخارت ربها. فوفقها إلى أن تختار مصر...

لماذا هذا الاختيار ؟

١- لأن الله ذكرها في القرآن بقوله سبحانه ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[٢٩٧] فقد جعلها الله دار أمن وسلام, ولأن الله سبحانه قد جعل خزائن الأرض ففيها من كل خير في العالم وتتصل بالعالم. برًا وبحرًا وجوًا. وهكذا, يقول الله سبحانه على لسان سيدنا يوسف عليه السلام. عندما قال للملك ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[٢٩٨] والآيات كثيرة في حق مصر. ويقول في حديث عن السيدة مريم وابنها سيدنا عيسى عليه السلام بقوله سبحانه ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾[٢٩٩] ربوة مكان عال- قرار مستقر - معين ماء يجري. وهذا هو الجمال البيئي الذي يريح الأعصاب. ويهدئ النفسي ويشرح الصدر. وقال بعض المفسرين بأنها مصر عندما توجها إليها.

٢- لما سمعته من سيدتنا أم سلمة - أم المؤمنين - زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوصي بأهل مصر خيرًا بقوله - "**إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فاستوصوا بأهلها خيرًا**" وقوله صلى الله عليه وسلم "**إنكم ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط. فإذا فتحتموها. فأحسنوا إلى أهلها. فإن لهم ذمة ورحمًا**" وفي رواية "**فإن لهم ذمة وصهرًا**".

٣- السيدة العظيمة زينب سمعت عن مصر. وطيب هوائها. واعتدال مناخها. وعظيم قدر أهلها لولائهم ومودتهم. وعظيم حبهم لآل البيت

---

[٢٩٧] سورة يوسف ٩٩.

[٢٩٨] سورة يوسف ٥٥.

[٢٩٩] سورة المؤمنين ٥٠.

النبوي الكريم. وهذه الأرض يذكر عنها أن من أرادها بسوء ولو كان جبارًا قصمه الله.

٤- أرض مصر مر بأرضها الكثير من الأنبياء. كما ولد على أرضها بعضهم. وعاش بعضهم يصرف أمورها ويحكم بين أبناءها. إلى آخر ما هناك في فضل مصر.

٥- ومع ذلك أرادت أن تحي ذكرى السيدة – هاجر – زوجة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام – وأم سيدنا إسماعيل عليهم جميعًا الصلاة والسلام. فسيدتنا هاجر زوجة لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. وأنجبت منه طفلاً صغيرًا.. أصبح قرة عين أبيه. وفجأة يحملها أبو الأنبياء إلى أين؟ لا تدري – وفي مكان غير ذي زرع يتركها زوجها ومعها ولدها. فتسأل زوجها. أتتركنا هنا ياإبراهيم ولاأنيس ولاشجر ولاماء, ولابناء؟ فيقول نعم. لماذا؟ لأن الله أمرني بذلك. فتقول آلله أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت أذهب فلن يضيعنا. منتهى الثقة في الله. لهذا أقتنعت السيدة زينب بالموافقة على أن تتوجه إلى مصر. ولها أسوة حسنة بسيدتنا العظيمة "هاجر".

٦- وقد قال عبد الله بن عمرو.. من أراد أن ينظر إلى مثل الفردوس في الدنيا فلينظر إلى أرض مصر. حين يخضر زرعها, وتجري أنهارها. وتظهر ثمارها "وقيل" مكتوب في التوراة مصر خزائن الأرض كلها. فمن أرادها بسوء قصمه الله"...

لكل هذه المعايير اختارت سيدتنا العظيمة مصر . ترحل إليها وهذا خير عظيم بأمر الله وتوفيقه لمصر ولمن على أرضها. وقد صحبها في تلك الرحلة. السيدة. سكينة رضي الله عنها ولها مسجد به ضريحها بعد مسجد ابن طولون

بحي السيدة زينب رضي الله عنها. والسيدة فاطمة النبوية. ومسجدها معــروف باسم مسجد فاطمة النبوية. وغيرهن من آل البيت النبوي الكريم.

استقبال عظيم

كان في شرف استقبال سيدتنا الكريمة عقيلة بني هاشم ومن معها عندما وطئت أقدامهم أرض مصر وعند قرية العباسة شرقي مدينة بلبيس محافظة الشرقية كان الاستقبال التاريخي الرائع الذي لم يشهد له التاريخ نظيراً. وكان ذلك في أول شهر شعبان ٦١ هجرية الموافق ٢٦ أبريل ٦٨١ ميلادية وكان قد مضى على استشهاد الإمام الحسين رضي الله عنه مدة طويلة.

وقد تقدم وفود المستقبلين "مسلم بن مخلد الأنصاري" حاكم مصر وواليها وعندما وقف أمامها. بكى بحرارة وبكت هي الأخرى وبكى كل الحاضرين. ثم رفعت صوتها قائلة "إننا نصبر لأمر الله. ولانقول إلا مايرضي ربنا". ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [٣٠٠] مع أن المستقبلين من أهل مصر في فرح بقدومها إلا أن الدموع التي تنزل من عيونهم حزناً على الإمام الحسين الذي استشهد وهو عطشان والذين منعوه هم الذين ألحوا عليه في الخروج إليهم. ولكن قد تكون دموع فرح بهذا اللقاء وفرح أهل مصر بقدوم أهل البيت النبوي إليهم. وقد قيل

هجم السرور على من أنه
من فرط ماقد سرني أبكاني
ياعين قد صار البكي لك عادة
تبكين في فرح وفي أحزاني

الأمر لله. يفعل مايشاء وهو القوي العزيز وقد ذكر ذلك أحد الشعراء فقال:

([٣٠٠]) سورة يس ٥٢.

لمــا رجعــت مــن الشــام ليثــرب
مــن بعــد فاجعــة الإمــام الحســين

طلبــوا إليــك الظعــن للبلــد الــذي
تســـتوطنينه خـــارج الحـــرمين

فاخترت مصر فرحبت بك وانثنت
تهتز من شــرف علـــى الكــونيــن

لقد أنزل الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري. والــي مصــر وحاكمهــا سيدتنا زينب رضي الله عنها ومن معها. أنزلها في داره معززة مكرمة. وكانت قد بدأت تشكو ضعفاً ووهناً. وسمح لها الوالي بأن تتدخل في حكمه مــن وراء ستار. فتبطل حكمه أو تصحح له مستدلة بما تقول من القرآن والســنة وكــان الحاكم أشد فرحاً بذلك. وكانت سيدتنا عابدة متبتلة. قارئة للقرآن. فأقبلت عليها الجماهير من كل ربوع مصر والبلدان الأخرى. زائرين لهــا. طــالبين منهــا الدعاء مستمعين لنصائحها وعلمها وماترويه عن جدها العظيم ســيدنا محمــد صلى الله عليه وسلم. وكانت على درجة عالية في العلاقات الاجتماعية. يألفها ويحبها كل من يراها . لأن بها مسحة من أنوار جدها العظيم.

وكانت تستقبل الأرامل. وأمهات الأيتام. والمساكين. وأحياناً تشارك في صنع الطعام لهم. مع شدة ضعفها. خاصة وأنها كانت صوامة. قوامــة الليــل. نومها قليل وطعامها أقل. مشغولة بمصالح الناس وعبادة ربها. وظلت هكذا إلى أن انتقلت إلى ربها في عام ٦٢هــ في شهر رجب بعد عشــرة أيــام منــه .. ومهدت لها الأرض مرقداً في مكانها بدار مسلمة بن مخلد الأنصاري. وصــار مرقدها مزاراً طيباً مباركاً للزائرين يفد إليه المسلمون مــن مشــارق الأرض ومغاربها. يضرعون إلى الله أن يجزيها على صــبرها خيــراً. فلقــد حملــت رضوان الله عليها من بلد إلى بلد حتى لاتتجح في جمع الناس حولها. يتشيعون لها ويكونون أنصاراً لآل بيتها حولها. وفي كل مكان كان النــاس يتجمعــون

حولها. يتشيعون لها. ويتعلقون بها ويؤيدون قضيتها. وكان أعداؤها يعملون ماوسعهم جهدهم لإسكاتها. واستعملوا معها التهديد ولوحوا لها بالوعيد. فما كانت تخشى في الحق لومة لائم. وكان صوتها يعلو على أصوات الباطل. لقد تحولت دارها التي كانت تمتلئ بالزائرين إلى مرقد لها حيث أصبحت مزاراً يفد إليه الآلاف. وترتفع الأصوات بالدعاء. وبني بجوار الضريح مسجد رائع يسع عشرات الآلاف. وأقيم شاهد على القبر كتبوا عليه:

هذا ضريح شقيقة القمرين
بنت الإمام شريفة الأبوين

وسليلة الزهراء بضعة أحمد
نور الوجود وسيد الثقلين

نسب كريم للفصيحة زينب
شمس الضحى وكريمة الدارين

وأردد شخصياً مع المرددين :

حب آل البيت خالط قلبي
وسرى في مفاصلي فاعذروني

عزيزي القارئ..

لقد أطلت عليك في مشهد آل البيت النبوي. والغرض من ذلك أن تدرك ماعاناه أهل البيت ولتستشعر ماقاسته سيدتنا الفاضلة عقيلة بني هاشم والمدفونة في مصر المحروسة. وروضتها معروفة. ومقامها يزار وبني حولهـا مسـجد عظيم رابع. وحكام مصر. وأغنياؤها وعلماؤها وجماهير الشعب يتعهدون هذا المسجد بالتعمير والإصلاح وبناء مايتصدع من جدرانه ويقوم أفاضـل النـاس وأكرمهم. علاوة على إشراف وزارة الأوقاف بالعناية بالضريح والمسجد. وقام أمراء البلاد بوقف أملاكهم وأطيانهم لصرف الريع على هذا المشهد المبارك.

ونختم هذا البحث بهذه الأبيات للشيخ عبد الرحمن الأجهوري :

آل طـه لكـم علينـا الـولاء
لا سـواكم بمـا لكـم آلاء

مدحكم في الكتاب جاء مبينا
أنبـأت عنـه ملـة سمحـاء

حبكم واجب على كل شخص
حـدثتنا بضـمنه الأنبـاء

كيف مدحي بعلياء من قد
عجزت عن بلوغه الفصحاء

شرفت مصرنا بكم آل طـه
فهنيئـا لنـا وحـق الهنـاء

منكم بضعة الإمام علـي
سيف ديـن لمـن بـه الاهتـداء

زينب فضلها علينا عميم
وحماهـا مـن السـقام شـفاء

كعبة القاصدين كنز أمان
وهـي فينـا اليتيمـة العصـماء

وهي بدر بلا خسوف وشمس
دون كسف والبضعة الزهراء

إلى أن قال :

لايضـــاهي آل الـــنبي وصـــيف
لايـــوفي كمـــا لهـــم أدبـــاء

شـــرفت مـــنهم النفـــوس وســـادوا
حيثمـــا أشـــرفوا فهـــم شـــرفاء

وعلـــيهم جلالـــه وفخـــار
ووقـــار وهيبـــة وضـــياء

كـــل مـــدح مقصـــر بعلاهـــم
كـــل فـــرد مـــن هـــديهم لألاء

وبعـــــد ..

فالذي بين يديك قطرة من محيط عن تاريخ المرأة العربيـــة وتفاعلهـــا الاجتماعي نقدمه الآن لأن المرأة العربية قطعت صلتها بجدتها العربية وأمهـــا. واتجهت إلى الغرب. تقلد المرأة هناك. وهذا خطأ عظيم. وجرم كبيـــر. وإثـــم فظيع. لأن مايتفق هناك مع تقاليد البيئة – لايتفق عندنا لأمرين مهمين :

الأول : أننا أتباع نبي عظيم "سيدنا محمد خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم وهذا النبي هو محرر المرأة – والذي رفع قدرها . وأعطاها من الحقوق مالم تحظ به أي امرأة في غير دين الإسلام. ولاتنخدعوا بالشعارات وتعرفـــوا على الحقيقة هناك. واقرؤا التاريخ. واقرؤا الحاضر وســـوف تـــرون الفـــرق الكبير. كذلك المرأة المسيحية فلها نبي عظيم ورسول كريم دعا إلى الفضـــيلة. ونهى عن الرذيلة. ثم إن الأخلاق لاتتجزأ.

الثاني : الأسرة فالمرأة في الشرق هي أم عظيمة. ومربية جليلة فهـــي هنا لها رسالة عظيمة ونبيلة. فهي هنا في الشرق. تربي أولادها علـــى علـــو الهمة – الوفاء – العدل – الصدق – الأمانة – الرحمة – الصبر والجلد – آداء العبادات – الالتزام باللغة العربية وآدابها – المحافظة على الـــوطن وحبـــه – الحفاظ على دور العبادة – ودور العلم . احترام من علمني القراءة أو الصـــنعة – احترام شخصية المرأة. واعتبارها – أمي . أختي . عمتي . خالتي . جارتي . مسلمة. مسيحية. حتى السياح. فكلهم له حق المواطنة – إلى آخر ماهناك من قيم نبيلة وأخلاق عالية.

أما هناك فالأمر واضح لايحتاج إلى بيان...

إننا أصحاب دين سماوي . ولنا نبي عظيم أرسى لنا قيماً . وأمرنا الله أن نتبع خطاه وأن نسير على هديه . وأن نقتدي به . فهو قدوتنا. وقـد ربـى أتباعه على الالتزام بالقيم الأخلاقية والانضباط على تقاليد المجتمع المؤسـس على القيم النبيلة والأخلاق العالية لنحقق لأنفسنا عز الدنيا وسعادتها . وفـلاح الآخرة ورضوان من الله أكبر.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصـحبه والتـابعين . ومن سار على هديه إلى يوم الدين..... آمين

سراي القبة – مصر

١ جمادى ثان ١٤٣٦هـ

٢١ مارس ٢٠١٥م

منصور الرفاعي عبيد

وكيل وزارة الأوقاف الأسبق

للمساجد وشئون القرآن

عضو اتحاد الكتاب

عزيزى القارئ

بكل الحب والاحترام أضع قبلة الحب على يدي أمي وأرفع يدي تعظيم سلام – لأمي – التي حملتني في جسمها تسعة أشهر وأرضعتني حولين كاملين. وسهرت على راحتي أطعمتني. وجاعت . كستني الملابس الجديدة. واكتفت بما لديها . عالجتني وهي تشكو المرض . تحية إليها في كل لحظة.

وسؤال – هل تجد في الدنيا من يحبك كما تحبك أمك؟ لا – لماذا؟ لأنك قطعة منها . انفصلت عنها – فهي تحبك بإخلاص ودون مقابل. تعطيك لقمتها وهي في حاجة إليها . دون مقابل . حتى الولد العاق . سعة قلبها . يسـامحه. والقصة التالية تبين ذلك .

اغـري امـرؤ يومـا غلامـا جـاهلا
بنقـوده حتـى ينـال بـه الـوطر

قـال ائـتين بفـؤاد امـك يـافتى
ولـك الـدراهم والجـواهر والـدرر

فمضى وأغمد خنجـرا في صـدرها
والقلـب أخرجـه وعـاد علـى الأثـر

لكنـه مـن فـرط سـرعته هـوى
فتـدحرج القلـب المضـرج إذ عثـر

نـاداه قلـب الأم وهـو معفـر
ولـدي حبيبي هـل أصـاب مـن ضـرر؟

هنا – رفع الفتى خنجره ليقتل نفسه – بعد أن رأى حنان الأم وقد ناداه قلبها. ولدى الحبيب . هل تأذيت من سقوطك؟ هنا انتبه الفتى وعـرف عظـيم

جريمته. ودفعه ندمه لمحاولة الانتحار. ناداه قلب الأم – مهلاً ياولدى – لاتقتلني مرتين. كفى هذا ياولدي.

فهل هناك قلب كقلب الأم – يسامح ويغفر . ويتمنى لك السلامة والعيش في هناء وسعادة وسلام .

من هنا نقول

تعظيم سلام لكل أم. ربت أولادها على الفضائل. وهذبت أنفسهم– وعلمتهم الأدب. واحترام الغير. والصدق. والأمانة. وتمسكت أمامهم بالقيم الأخلاقية العالية بكل أدب واحترام وغرست في قلوبهم حب الوطن لأنه من الإيمان.

قيل لأعرابي ... صف لنا شر النساء .... قال شرهن

١- النحيفة الجسم – المرهقة – التعبانة – الممراض.

٢- صاحبة اللسان السليط. كأنه حربة.

٣- كثيرة البكاء بلا سبب. وتضحك كذلك من غير سبب.

٤- المتغطرسة. منتفخة الوريد. عرقوبها حديد.

٥- صاحبة الصوت الشديد العالي. وكلامها وعيد.

٦- من تفشي السيئات – وتدفن الحسنات.

٧- من تعين الزمان على زوجها. ولاتعين زوجها على الزمان. تنفض يديها من المسئولية. ولاتهتم بأولادها. ولاتنظف بيتها.

٨- إن دخل زوجها إلى البيت خرجت. وإن خرج زوجها دخلت. وإن ضحك بكت. وإن بكى ضحكت.

٩- تبكي وهي ظالمة. وتشهد وهي غائبة. تشهد بالزور.

ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور, وكفانا شرهن ونجانا من كيدهن.

تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس؟؟؟

إياكم وخضراء الدمن. قالوا. وماخضراء الدمن يارسول الله؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء.

فعلى راغب الزواج أن يبتعد عن ستة أنواع من النساء

١- الحنانة – وهي التي لاترضى بوضعها مع زوجها وتقارن بينه وبين غيره من الرجال – وتتمنى زوجاً غيره.

٢- الأنانة – وهي التي تكثر من الشكوى. وتنوح وتئن بلا سبب في كل وقت.

٣- المنانة– وهي التي تمن على زوجها بما تفعله معه. وتعيره بأهله وتفخم من أهلها.

٤- الحداقة – وهي التي تتطلع إلى كل شيئ. وتحدق بعينيها إلى ماعند الغير وتشتهي كل شيئ. وتشتري أي شيئ. ولاتنظر إلى دخل زوجها.

٥- البراقة– وهي التي لاتفارق المرآة. تصقل وجهها وتزينه. وتبالغ في ذلك.

٦- الشداقة – وهي كثيرة الكلام بفائدة أو من غير فائدة.

كفانا الله شر المرأة السوء.

الفهرس



Arabic Woman








I.S.B.N978-977-276-921-6
6 222008 913029